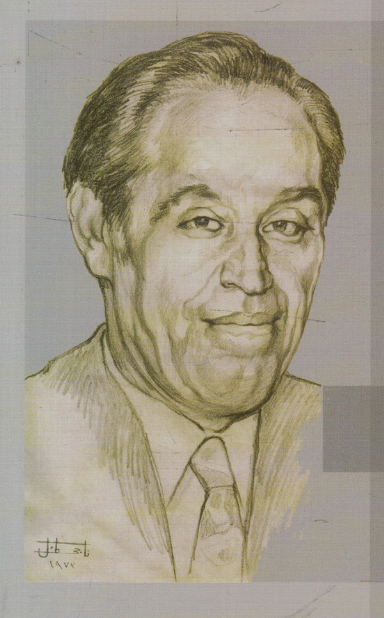


شاكر مصطفى

مشروع حضاري

(١٩٢١-١٩٩٧)



اعداد/ الامانه العامه للمؤسسه

إهـــــــداء ٢٠١٢

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للابداع الشعرى

الكويت



شاكر مصطفى

ملامح من حياة زاخرة

(١٩٢١-١٩٩٧)

إعداد

الأمانة العامة للمؤسسة

الكويت

2010

التدقيق اللغوي ومراجعة الطباعة

محمود البجالي

الصف والتنفيذ

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

الإخراج وتصميم الغلاف

محمد العلي



مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

هاتف: 22430514 - فاكس: 22455039 (965+)

E-mail : kw@albabtainprize.org

التصديـر

عزيزي القارئ

المسيرة العلمية للراحل الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى وعطاؤه المتميز يستحقان التقدير والثناء.. فهو علم من أعلام الفكر العربي المعاصر، وقامة شامخة في ميدان العلوم التاريخية، ونموذجًا يحتذى في دراسة القضايا التاريخية وتحليلها، فهو أستاذ التاريخ الذي لم يكن مجرد ناقلٍ للأحداث الغابرة، بل مفكرٍ يضع فرضيات ويفند أخرى وفقًا لمعطيات يستنتجها بدراية واسعة وعقلانية ومنطقية.

ولا تزال الكويت تتذكر - بوفائها المعهود - العلاّمة الدكتور شاكر مصطفى، وما زالت مقاعد جامعة الكويت منذ أولى خطوات إنشائها تستعيد صورة هذا الرجل الذي غاص في وجدان العلوم التاريخية توثيقًا وتحليلاً، حيث ترأس فيها قسم التاريخ مشرفًا عليه ومتابعًا لأبنائه الطلبة.

لم يقتصر حضور الدكتور شاكر مصطفى في الكويت والذي استمر متواصلاً لخمسة وعشرين عامًا (١٩٦٦ - ١٩٩١) على العمل الأكاديمي فقط، فقد عمل أيضًا مستشارًا في مجلس الأمة الكويتي، ورافق الكثيرين من أعضائه في رحلاتهم وزيارتهم إلى غالبية دول العالم، وكان مثالاً للشخصية المثقفة الواعية لكل ما ينبغي عمله والتعامل معه.

لقد وجدت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في حياة هذا الرجل ونتاجه الفكري، مادة غزيرة ثرّة تستحق أن تُقرَأ وأن يُطلع عليها، فقد عاش الراحل حياة حافلة ألّف خلالها عشرات المؤلفات والبحوث والدراسات، وأقام فيها الكثير من العلاقات مع أدباء عصره ومفكريه، تاركًا لنا إرثًا عامرًا بالمعرفة.

كانت حياته رحمه الله مزيجًا من فكرٍ وسياسةٍ، وسارت خطواته في ميادين عديدة فقد عمل قنصلاً عامًا لبلده سورية في العديد من دول العالم ثم سمي وزيرًا للإعلام كان خلالها مثالاً للنجاح والالتزام.. ترك بصماته على مختلف نواحي الحياة يدفعه إلى ذلك هواه العروبي وإنتماؤه الخالص إلى قضايا أمته بمزيد من الوعي والمسؤولية.

وبعد.. فتجسيدًا للعرف الكويتي الأصيل وعرفانًا للرجل الذي قدّم من عصارة جهده وفكره بلا حدود، رأت المؤسسة إصدار هذا الكتاب الذي يضم بين دفتيه شهادات قيلت بحقّ الراحل ممن زاملوه في العمل وممن عرفوه ومن مجايليه منذ النشأة الأولى، وممن تبادل الرسائل معهم في مناسبات عديدة، ويشتمل كذلك على بعض المقالات والبحوث المقننة التي كتبها، كما حرصت المؤسسة على استكتاب بعض تلامذته وأبنائه ليعبروا عمّا يجول في أنفسهم تجاه الدكتور شاكر مصطفى، ليكون الكتاب باقة وفاءٍ لرجلٍ يستحق الوفاء والتقدير والتكريم،،

هذا قصدنا وعلى الله قصد السبيل،،

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت في ١٧ من صفر ١٤٣١هـ

الموافق الأول من فبراير ٢٠١٠م

****

شاكر مصطفى

سيرة في كلمات(*)

هو رجل دمشقي المولد والهوى، ومعرفتي به تذهب في الماضي العتيق - إذا أسعفتني الذاكرة - إلى ٧٥ عامًا مضت، يوم كان طفلاً يحبو ولا يعرف الثرى من نجوم الفلك، ولقد نشأ في أسرة دون المتوسطة، فأبوه بقال كان يرجو أن يرث ابنه دكانه الصغير. في ما كان أعمامه مزارعين يسكنون بستانًا غربي دمشق. ولعله كان يحلم بينهم بالتقاط القمر واللحاق بالسنونو الخاطف!

كان الحدث الأهم في حياته يوم نال الشهادة الابتدائية. لقد وضع الصحيفة التي نشرت اسمه في إطار من الورق وعلقها على الحائط، فرحته بها لم تعدلها نواله لأي شهادة بعدها. ثم ما تدري كيف عشق القراءة والفنون والأدب في المدرسة الثانوية، فأقام مكتبة له من ثلاثة كتب تراثية في صندوق خشبي، فهو على الطرب للشعر تارة وعلى محاولات الرسم تارة وعلى الإنصات لراديو وأسطوانات الجيران تارة ثالثة!..

كان ذلك في عقد الثلاثينيات، وكان أبوه شديد القسوة يضربه إذا رآه يقرأ لاهيًا عن الدكان، ولكن ظل يقرأ في السر كل ما يقع تحت يديه سواء كان مجلة أو جريدة أو كتابًا في نهم الميت من الجوع! في الصفوف الثانوية الأخيرة حاول الشعر ولكنه لم يرض عما جاءه منه، وحاول ممارسة الرسم ونجح، لكن لم يسعفه ضيق وقته، بل حاول الموسيقى ولكنه لم يكن يملك ثمن آلة منها، القراءة كانت أرخص!

في الفترة نفسها كان جو المدرسة الثانوية (وهي إحدى ثانويتين اثنتين فقط في سورية) معبأ ضد الاحتلال الفرنسي، فغرق صاحبنا في العراك ضده. كان وهو طفل

(*) كتبها الراحل بنفسه.

يرى كيف يُموّن أبوه الثوار بالرصاص في رزم الخبز. أما هو فقد كان غالبًا ما يعود إلى البيت مشقق الجيوب من حمل الحجارة يرمي بها مع رفاقه الفتيان الضباط الفرنسيين ذوي القبعات الزرقاء وطرابيش الجنود السنغال الحمراء. وكم دهش حين رأى بعض هؤلاء يدخلون الجامع ليؤدوا الصلاة بعيون حمراء كالكرز! منذ تلك الأيام لم يفارقه عشق السياسة إلى اليوم وكان هذا هو قدره الأول.

في نهاية الثلاثينيات أنهى الدراسة الثانوية. ولولا مصادفة هبطت عليه من السماء لكان اليوم شُرَطيًا أو شيخًا في أحد الجوامع أو في أحسن الأحوال معلم قرية، كذلك كان يريد أبوه، ولكنه في المدرسة الثانوية لقي بعض الأساتذة الذين دفعوه دفعًا في اتجاه آخر هو انتظار مسابقة حكومية للفوز ببعثة، وجاءت المسابقة في الأدب. وكان الأول فيها، فتقرر إرساله إلى مصر. كانت الحرب العالمية الثانية قد أغلقت جميع الأبواب إلا باب مصر. وكانت بعثته ثاني بعثة إليها. وخشيته من أن يعود مدرسًا للنحو – وهو لا يطيقه – جعلته يغير اختصاصه إلى التاريخ غير آسف.

ونال الإجازة من جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٤٥، فكان هذا قدره الثاني. وقرر أستاذه الإنكليزي في التاريخ الحديث إرساله إلى جامعة أكسفورد، ولكن حكومته لم توافق وأرسلته مدرسًا في ثانوية درعا بحوران، ثم عمل في ثانويات دمشق، ثم أصبح مديرًا لمعارف حوران، ثم مديرًا لدار المعلمين بدمشق، ثم أمينًا عامًا لجامعة دمشق، كل ذلك ما بين سنتي ١٩٤٥ – ١٩٥٥ وكان هذا قدره الثالث.

خلال هذه الفترة كان يخوض العمل السياسي باليمين وبالشمال كاتبًا ومعارضًا وذا مشاركة في الرأي القومي. كان يتصور أنه مع قبضة من رفاقه يستطيع أن يقوّم المعوج، وما أكثر ما كانت سذاجته وهو يخوض هذا البحر ذا الحمأ المسنون وجنيّات الأعماق.

حين أرسل مستشارًا ثقافيًا إلى مصر سنة ١٩٥٦ دخل في بحر الدبلوماسية وغرق فيه حتى الأذقان. حسب أنه انتقل إلى جو أنقى وأكثر قابلية لخدمة وطنه، وكان هذا قدره الرابع. وقد تنقل فيه قائمًا بالأعمال في السودان ثم وزيرًا مفوضًا في بوغوتا (كولومبيا) أيام الوحدة، ثم قنصلاً عامًا في سان باولو (البرازيل). وكان كل ما كسبه

في هذا القدر ما بين ١٩٥٦ و١٩٦٣ أنه أتقن اللغتين الإسبانية والبرتغالية إلى جانب ما يعرف من اللغتين الفرنسية والإنكليزية، ولكنه كره السلك الدبلوماسي كله. رآه نفاقًا مهذبًا وضياع وقت، فاختار العودة لبلاده فعين مديرًا عامًا للشؤون السياسية في وزارة الخارجية وأمينًا عامًا بالوكالة إلى أن اختير وزيرًا للإعلام (١٩٦٥ - ١٩٦٦).

وانقطع به الحبل بعد ذلك. طغى العسكر على الحكم في انقلاب دموي، واتجهت السياسة إلى التطرف الاشتراكي، فهرب بجلده منذ اليوم الأول، وتمزقت قبضة الرفاق ما بين مصر ولبنان والأردن والعراق. ولم يكن قد قرر مصيره بعد وهو هارب في لبنان حين أتته دعوة من الكويت فوصلها وليس في يده ورقة باسمه!

كان ذلك في آب/ أغسطس ١٩٦٦ ولم تكن جامعة الكويت قد افتتحت أبوابها بعد، فشارك في التدريس بها منذ يومها الأول مع زمرة من الأساتذة الـ ٣١ الذين افتتحوا الجامعة، وكان هذا قدره الأخير، بقي يدرس التاريخ الإسلامي فيها خمسًا وعشرين سنة مرت كأنها حلم ليلة صيف. واستلم خلالها رئاسة قسم التاريخ، وكان العميد المساعد لكلية الآداب في الجامعة. كما اختارته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الأليكسو) عضوًا وأمينًا عامًا في اللجنة التي أقامتها لوضع الخطة الشاملة للثقافة العربية مع ١٦ ستة عشر عضوًا اختارهم من جميع البلاد العربية وعمل على ذلك أربع سنوات كتب في نهايتها تقرير اللجنة وضم إليه الدراسات المقدمة لها. وطبع ذلك في ست مجلدات أقرها مؤتمر وزراء الثقافة العرب ١٩٨٥.

وإذا كان قد نال في ربع القرن الذي قضاه في الكويت درجة الدكتوراه، فقد نال في الوقت نفسه ما كان - ولا يزال - يعتبره كسبًا أهم وأسمى هو الانصراف للعلم وللفكر. وعرف الثقة والأمل بالمستقبل. وفي ما كان العمل السياسي يبتعد رجالاً وحكامًا ومناورات عن إشغال جمجمته، ويصغر على البعد ثم يصغر، كان الهم العلمي يصبح رسالة حياته ويمنحه الاطمئنان الروحي الذي ما عرفه من قبل. ولقد أقبل على العلم بنهم الجائع منذ قرون، كأن له ثأرًا لدى كل معرفة حتى صرعه قلبه مرتين وخذله ظهره. وإذا كان يحس اليوم أنه كان كمن يغرف من ماء المحيط بصدفة فإنما يغريه قوله جلّ وعلا «وفوق كل ذي علم عليم» وقوله تعالى «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».

****

شاكر مصطفى (١٩٢١-١٩٩٧)

- دمشقي ولد في ١ مارس / آذار ١٩٢١.
- درس الإبتدائي والثانوي في دمشق ونال البكالوريا الأولى والثانية عامي ١٩٣٨ و١٩٣٩ وكان الأول فيهما.
- نال دبلوم دار المعلمين الإبتدائية (١٩٤٢).
- ونال دبلوم دار المعلمين العليا (١٩٤٣).
- أرسل في بعثة إلى مصر ونال الإجازة في التاريخ من جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليًا) ١٩٤٥.
- عمل مدرسًا في ثانويات درعا ودمشق حتى ١٩٥٠.
- عمل مدرسًا في دار المعلمين ثم صار مديرًا لها ما بين ١٩٥١ - ١٩٥٤.
- عمل أمينًا عامًا لجامعة دمشق (١٩٥٥).
- أرسل عام ١٩٥٦ مستشارًا ثقافيًا إلى مصر.
- عمل في وزارة الخارجية منذ عام ١٩٥٧، وعين قائمًا بأعمال سورية في الخرطوم.
- نقل أيام الوحدة وزيرًا مفوضًا في بوغوتا (كولومبيا) ما بين سنتي ١٩٥٨ - ١٩٦١.
- ثم نقل بعد الانفصال قنصلاً عامًا في سان باولو (البرازيل ١٩٦١ - ١٩٦٣).
- اختار العودة إلى سورية عام ١٩٦٣، فكان المدير العام للشؤون السياسية والأمين العام بالوكالة للوزارة ١٩٦٣ - ١٩٦٥.
- اختير وزيرًا للإعلام (١٩٦٥ - ١٩٦٦).
- تقاعد عام ١٩٦٦ وجاءته دعوة إلى الكويت يوم تأسيس جامعتها فعمل فيها خمسًا وعشرين سنة، تولى خلالها رئاسة قسم التاريخ ومساعد العميد لكلية الآداب.
- اختير عام ١٩٨١ عضوًا وأمينًا عامًا في لجنة وضع استراتيجية الثقافة العربية التي شكلتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وكتب تقريرها النهائي الذي أقره مجلس وزراء الثقافة العرب وطبع في ٦ مجلدات عام ١٩٨٦.

- نال الدكتوراه من جامعة جنيف عام ١٩٧٠ بدرجة الامتياز.

- عضو مراسل في المجمع العلمي في بغداد ومجمع اللغة العربية في دمشق.

- توفي في (١٩٩٧/٧/٣١).

الأعمال المطبوعة:

١ - العالم الحديث

٢ - معالم الحضارات

٣ - بيني وبينك

٤ - حضارة الطين

٥ - في ركاب الشيطان

٦ - جغرافية البلاد العربية

٧ - سورية ولبنان جغرافيّاً

٨ - في التاريخ العباسي

٩ - ماريانا (ترجمة عن الإسبانية لمسرحية غارسيا لوركا - ط ١٩٦١).

١٠ - المؤرخون في العصر السلجوقي والأيوبي (بالفرنسية) مجلدان.

١١ - سورية

١٢ - دولة بني العباس (مجلدان)

١٣ - التاريخ العربي والمؤرخون (٦ مجلدات)

١٤ - الأدب في البرازيل

١٥ - آل قدامة والصالحية

١٦ - تاريخنا وبقايا صور

١٧ - فلسطين من الفاطميين إلى الأيوبيين

١٨ - المدن في الإسلام (مجلدان)

١٩ - بهجة المعرفة (٣ مجلدات)

٢٠ - سلسلة أوراق من التاريخ (١٣ كتابًا)

٢١ - ٣٢ بحثًا في مواضيع مختلفة في الموسوعة الفلسطينية الصغرى

٢٢ - صلاح الدين المفترى عليه

٢٣ - الخطة الشاملة للثقافة العربية (٦ مجلدات)

٢٤ - موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها (٤ مجلدات)

٢٥ - دراسات في التاريخ الشامي

٢٦ - دراسات في التاريخ الإسلامي

٢٧ - الأندلس في التاريخ

٢٨ - مدينة للعلم (الصالحية)

الأعمال غير المطبوعة:

١ - تاريخ ابن الأزرق الفارقي (تاريخ ميافارقين والجزيرة)

٢ - الثقافة والتنمية (مجلدان)

٣ - هل التاريخ علم؟

٤ - أحداث العالم ما بين ١٩٤٥ - ١٩٨٥

٥ - رسائل

٦ - شخصيات عرفتها

٧ - شعراء عرفتهم

٨ - تاريخ التربية في الكويت

٩ - من دفتر شهرزاد

١٠ - أنا وشهريار

١١ - شهريار ذو الألف وجه

١٢ - أنا وأنت والخاطرة

١٣ - حصاد الشوك

١٤ - خواطر للريح

١٥ - الكتاب الأسود

****

شــــهــــادت بـحـــــق
الدكتور شاكر مصطفى

صاحب القضايا الكبرى

د. عبدالمالك خلف التميمي(*)

تذكرناه متأخرين بعد وفاته بسنوات، لكن إنتاجه العلمي والأدبي باقٍ، فقد كان مثقفًا حقيقيًا. عاش شبابه سياسيًا ثم استقر به الحال في الكويت لمدة قاربت على الربع قرن، وكانت هذه الفترة غنية بإنتاجه العلمي والثقافي شأنه شأن العديد من المبدعين العرب الذين وفدوا على الكويت واستقروا بها حيث تهيأت لهم سبل الإنتاج والإبداع.

عندما أنهيت دراستي للدكتوراه، عدت إلى الكويت والتحقت بجامعة الكويت في نهاية السبعينيات من القرن العشرين، وكنت شابًا متحمسًا أطمح إلى تغيير الكون، لكن سرعان ما تعلمت منه في قسم التاريخ بجامعة الكويت – وهو الذي كان يختزن التراكم المعرفي والثقافي – الهدوء والبحث العلمي الرصين، وإذا أردت أن تحقق شيئًا عليك صعود السلم درجة درجة، ولا تقفز، فهذا نهج لا يصلح في العلم والثقافة دون شك. كان لمنهجه تأثير مباشر وغير مباشر على زملائه وتلامذته.

استلمت رئاسة قسم التاريخ للمرة الأولى بعد رئاسة الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى، ولم تكن لديّ الخبرة الإدارية التي كان يمتلكها، وشعر أعضاء هيئة التدريس بالفرق بين الاثنين، لكن تعلمت الكثير من تجربته، ووجدت بأن ثقافة الأكاديمي ضرورية، فإن المعرفة التي يحصل عليها من خلال تخصصه لا تكفي، ولا بدّ أن يبدأ المشوار العلمي والثقافي معًا وبخاصة إذا كان في مجال العلوم الإنسانية، وفوجئت به مرة يبلغني في منتصف الثمانينيات من القرن العشرين تقريبًا باختياري لعضوية إحدى لجان مشروع التطور الحضاري العربي الذي تبناه المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وجمعية

(*) أكاديمي ومفكر كويتي.

الخريجين الكويتية. لقد كان مشروعًا رائعًا وبذل فيه جهدًا كبيرًا ومتميزًا، ولكن كشأن حالتنا العربية لا نستفيد من تلك المشاريع في التنمية الثقافية، ونعود بعد سنين لنكرر الجهد للموضوعات نفسها، وربما يكون الجهد الذي بذل سابقًا أفضل، وأعتقد بأن أي مشروع اليوم أو في المستقبل عن الثقافة والتطور الحضاري لا يستغني عن مراجعة ذلك الجهد الذي بذل وساهم فيه الكثيرون من المثقفين العرب وفي مقدمتهم كان الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى..

وشاكر مصطفى الأكاديمي كانت مشكلته في محاضراته الأكاديمية أنها فوق مستوى الطلبة بصورة عامة، فقد كان يرى ويعتقد بأننا يجب أن نرتقي بمستوى الطرح العلمي والثقافي للطلبة، لا أن نبسط الأمور وننحدر إلى مستواهم، وما كان يجذب الطلبة وزملاءه له هو أسلوبه الأدبي الرائع في حديثه وكتابته، كما أنه كان عميقًا في طرح الأفكار ورمزيًا أحيانًا، حيث إنك تحتاج بعد لقائه إلى تذكر ما قاله ومغزى كلماته وعباراته. لسنا بصدد مدح رجل فارقنا منذ سنوات، ولكننا نسجل جزءًا من رحلته معنا والتي كانت خصبة ونافعة، ولم تكن تخلو من بعض الجروح التي كنا نتألم لها، فاللوائح الصماء لا ترحم، ومطبقوها لا يعرفون حقيقة الشخص. لقد انتهت مدة عمل الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى بجامعة الكويت بسبب عامل السن، ولكنه كان يفضل أن يبقى في الكويت ليتفرغ للتأليف والبحث العلمي في مجال التاريخ، وأبناؤه عاشوا في الكويت وما زالوا، ومرض الرجل وكنت أزوره وأسأل عنه بين الحين والآخر.

وما يمكن أن أذكره كذلك، هو أن شاكر مصطفى، ونتيجة خبرته، لم يكن يتدخل بالشأن المحلي الكويتي إطلاقًا، وحتى عندما تحدث خلافات بين الكويتيين أو بينهم وبين العرب الوافدين كان ينأى بنفسه عنها.

أيضًا ما كان يميزه، أنه يتحدث عن القضايا الكبرى والأساسية ولم ينشغل قط بالأمور الصغيرة والشخصية.

كذلك كان قليل الكلام، وتقرأ في عينيه التفكير العميق، وفي آخر حياته كان مهمومًا بالثقافة العربية، ذلك لا يعني إهماله لتخصصه في التاريخ وإنما كانت الثقافة والتاريخ

جناحين يحلق بهما، وكنت تتذوق الأدب من خلال كتاباته التاريخية، وكان يرى أن التطور الثقافي ومعالجة الأزمة الثقافية العربية هما الطريق إلى التقدم، والمثقف الحقيقي هو الذي يستوعب الواقع وينقده بوعي يجعله مؤثرًا وقادرًا على الاستمرار. لقد كانت جلساتنا العامة والخاصة ثرية بالحوارات الثقافية والتاريخية.. نشعر الآن أننا افتقدناها.

لقد جمعتنا الزمالة في جامعة الكويت في أكثر من موقع على الرغم من فارق السن بيننا، فقد عملنا في قسم علمي واحد هو قسم التاريخ، وتوليت رئاسة القسم بعده كما ذكرت، وتزاملنا كمساعدين لعميد كلية الآداب في منتصف الثمانينيات؛ فأنا للشؤون الأكاديمية وهو للعلوم الإنسانية – وذلك عندما كانت الكلية تجمع بين العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية.

لقد كان مريضًا قبل رحيله ولكنه لم يتوقف عن التأليف والكتابة، حيث كان يريد أن يقدم عصارة ذهنه وخلاصة تجربته قبل أن يدركه الموت، كان يريد تفريغ ما لديه من شحنة علمية وثقافية على الورق لتستفيد منها الأجيال القادمة، خاصة وأن الانشغال بالكتابة يخفف من آثار المرض ومن الوقت المثقل بالأحداث، وبذلك ترك لنا كتابات تاريخية وأدبية وثقافية عميقة ننهل منها. كما كان اسمه مع أسماء أخرى لامعة في قسم التاريخ في جامعة الكويت رمزًا لقوة هذه الجامعة علميًا. رحم الله الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى وأسكنه الله تعالى فسيح جناته.

****

تحية من تلميذ إلى معلم وصديق

د. عيسى درويش[*]

كتب لي الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى في مقدمة روايتي الأولى «حكاية على جدران الزمن» في عام ١٩٨٨ تحت عنوان تحية لأخ حبيب ما يلي:

«لا ليست هذه الأسطر بمقدمة وإن جاءت في مطلع الكتاب، وليس في الخاطر أن تكون وإن تعلقت بشيء من هذه الحكاية ومن صاحبها، فالمقدمات قد تكون صادقة كل الصدق وقد يمر على سطورها حملة المباخر وأحيانًا بعض المنافقين.

ولا أريد أن أكون من هؤلاء، ولا من هؤلاء، ولكني أريدها تحية لأخ حبيب عرفته عن قرب فإذا هو الشمائل كلها. خلق كينبوع الصفا، وحسّ قومي يتلفع بألوان الرؤى، وشيء من كبر في أعماقه ونبل فياض فيه جانب من الشهامة غير قليل.

وطالما تطارحنا الشعر معًا، فإذا هو أبوه وحموه، وتداولنا الأدب، فإذا هو دنياه، وتحدثنا في السياسة وفي العلم، وكان المجلّي والمعلّي معًا وصاحب قصب السبق. وكم نفضت ونفض معي الدفاتر القديمة».. ثم يتابع - أستاذي الدكتور شاكر مصطفى وهنا بيت القصيد - قائلاً: «وكم رأيت فيه نفسي في شبابي الذي ذهب حين كانت الدنيا ملعبي وعريض الآمال غاري وجراحي».

هذا بعض من كلام الدكتور شاكر مصطفى حول شخصي الضعيف وما أوردته إلا لأعيد الحق إلى صاحبه وأرجع الفضل إلى ذويه وتلك هي الحكاية.

(*) وزير سوري وسفير سابق وأديب.

تشاء الأقدار أن تكون ولادة شاكر مصطفى (١٩٢١) بعد عام واحد من دخول الجنرال غورو بجيوشه إلى دمشق حيث راح متحديًا متغطرسًا إلى قبر صلاح الدين الأيوبي قائلاً: «ها قد عدنا يا صلاح الدين..».

قال السوريون بصوت واحد: أي عودة يا غورو..؟ لن تستقر في هذه الأرض.. تحولت سورية إلى أرض من لهيب، وقامت الثورة ضد الاحتلال في كل شبر من الأرض.. كان والد شاكر مصطفى منخرطًا في العمل مع الثوار يزودهم بالذخيرة وسط رزم الخبز وصناديق الفاكهة..

أما الصبي شاكر فقد كان له نصيب في ضرب عساكر الفرنسيين بالأحجار ويافعًا يزود الثوار بالأخبار..

ترى هل كان لهذه الظاهرة علاقة بولع شاكر بالتاريخ ودخوله إلى محرابه عاشقًا كالكهنة.. فتقلد سيف الحق وقلم العدل وصوت الحرية.. وتلك هي الحكاية.

كانت فترة الخمسينات من القرن الماضي تعج بالحركة والنشاط، وتشهد المنطقة العربية كلها حراكًا سياسيًا ووطنيًا في ظل متغيرات إقليمية وعالمية، فالحرب العالمية الثانية قد ألقت أوزارها، وتقاسم المنتصرون الحلفاء النفوذ في العالم، ونشأت الأمم المتحدة، وظهر نظام قطبي ثنائي تقوده الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.. وكان الوطن العربي ضمن مناطق النفوذ، مناطق منه لا تزال تحت وطأة الاستعمار الفرنسي في بلدان شمال أفريقيا، وفي ليبيا قواعد بريطانية وأمريكية، وفي مصر وجود بريطاني في السويس. ووجود بريطاني في الجنوب العربي والدول الخليجية، وحلف أمريكي بريطاني في بغداد.. والأخطر من ذلك من إنشاء دولة اسرائيل في عام ١٩٤٨ على أرض فلسطين وتشريد شعبها وتحويله إلى لاجئين.

في هذه الفترة كان الدكتور شاكر مصطفى مالئ الدنيا وشاغل الناس في فكر نيِّر ومستنير، وبيان هو السحر فيما يكتب في التاريخ أو الأدب أو السياسة، وهو المجلّي في كتابته للتاريخ والتنقيب في ثناياه ليكشف عظمة تراث هذه الأمة، وليرد عنها ما لحقها من كيد الأعداء وتزييفهم للحقائق، وهو العروبي الذي يدعو هذه الأمة للانعتاق من الجمود

والانطلاق نحو النهضة والإبداع وصنع المستقبل، وهو الناقد الحصيف الذي يصوغ من الأفكار دررًا وقلائد يضعها على صفحة الشعر أو القصة أو المسرح كالجواهري الذي يضع الألماس في مكانه، ويزين فيه جيد الغيد الحسان وصدورهن..

وكنت أسأل نفسي: أما من طريق إلى لقاء مع هذا العبقري الذي سحرتنا أفكاره وجذبتنا إليها وشدّنا في سحر الكلام الذي كان كاللحن عذوبة وطربًا وإيقاعًا؟، ولكن كيف لنا الوصول إلى القمم الشامخة ونحن ما زلنا طلابًا في المرحلة الثانوية لا نملك القدرة على الوصول إلى العاصمة والعيش فيها، شأننا في تلك الأيام شأن معظم الطبقات الفقيرة في بلدنا؟.

وتوالت مؤلفات الدكتور شاكر مصطفى في الخمسينيات: (معالم الحضارة ١٩٥٠)، و(العالم الحديث ١٩٥٠)، و(بيني وبينك ١٩٥٤)، و(حضارة الطين ١٩٥٤)، و(القصة في سورية ١٩٥٥).

كان الدكتور شاكر يقول عن نفسه: «كنت نهمًا في القراءة، ابتلع الرواية في جلسة أو جلستين، أتفكه بقصة وأنا انتظر الغداء. أقيم مسرحًا كاملاً وأدير شخوصه وأنا أقرأ»[1].

وبالرغم من نشأة أستاذنا في بيئة فقيرة حيث كان أبوه صاحب (دكان) صغير يريد لولده أن يعمل في دكانه، إلا أنه في ظل نهمه العلمي وجدّه المتواصل، كان يقرأ كل شيء تقع عيناه عليه من ورق الجرائد إلى المجلات والكتب التي يستعملها البقالون في الصرّ في ذلك الزمان، فجاء هذا الصبي في تفوقه وجدّه ما لفت إليه الأنظار، وهكذا حصل على الإعدادية والثانوية، حصل على منحة دراسية إلى مصر ليدرس الأدب والتاريخ في أربعينيات القرن الماضي، فإذا هو الأول بين أقرانه يتمتع بثقافة واسعة وذخيرة ثرّة من اللغة العربية وبيانها، واختار التاريخ مهنة ودراسة لأنه وجده أقرب إلى شخصيته، وقد عبر عن ذلك بقوله:

---

(١) من كلمة الدكتور شاكر فحام في تأبين صديقه الدكتور شاكر مصطفى، أيلول ١٩٩٧ - مجلة الثقافة، أيلول ١٩٩٧.

«الأدب والتاريخ صنوان، التاريخ مهنتي، والأدب هواية عمري»، ثم يقول في مكان آخر: «التاريخ ليس مهنتي فحسب ولكنه قدري، ولأنه قدري فأنا أعانيه بحنان عاشق وبقسوة الخنجر معًا»[1].

وهكذا حصل أستاذنا على الإجازة في التاريخ من جامعة فؤاد الأول (القاهرة) عام ١٩٤٥. وإذا كنت أشير إلى دراسته الجامعية، فمن الأمانة أن نذكر نضاله ضد الفرنسيين عندما كان شابًا يافعًا يشارك بالمظاهرات، ويرى، وهو الطفل، كيف يزود والده الثوار بعلب الرصاص مغلفة ومنقولة مع الحاجات الغذائية ورزم الخبز. ويروي الدكتور شاكر مصطفى عن طفولته في بساتين (كيوان) في دمشق وهو يرى بأم عينه الثوار الذي ينتقلون بين البساتين[2].

لم أكن أنا الطالب المفتون الوحيد بفكر شاكر مصطفى وأدبه، فقد أعلنت إحدى المجلات الأدبية (النقاد)[3] في دمشق استفتاءً للجمهور لاختيار أفضل الكتّاب في سورية، وجاءت النتيجة بالفرسان الثلاثة؛ فؤاد الشايب – الدكتور عبدالسلام العجيلي – شاكر مصطفى.

ولعل أهم ما يمكن الاستشهاد به ما كتبه الشاعر الكبير نزار قباني في تقديمه لكتاب شاكر مصطفى «بيني وبينك» في عام ١٩٥٤ تحت عنوان أغنية لشاكر مصطفى[4] جاء فيها:

«إن شاكر لا يرمي حروفه رميًا على خشبة المسرح، كل فكرة لديه تعرف موضعها وكل نقطة، كل فاصلة تعي دورها وتأخذ مكانها المرسوم لها.. لا فوضى.. ولا مصادفة في أدب شاكر مصطفى» ثم يقول:

«وبعد فهذا سفير جمالٍ يخرج من غابات بلادي بمئزر قديس وعصا ساحر (الكلمة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) كلمة الأستاذ عبدالغني العطري في تأبين د. شاكر مصطفى - مجلة الثقافة، دمشق ١٩٩٧، وانظر كذلك في كتاب بين الأدب والتاريخ للدكتور شاكر مصطفى، ص١٠.

(٣) أجرت مجلة النقاد الأدبية في عام ١٩٥٤ والتي تصدر في دمشق هذا الاستفتاء، د. شاكر الفحام، مرجع سابق.

(٤) الرسالة مؤرخة في ١٩٤٥/١١/١٠ - لندن - بارنز كومون كما وردت في مقدمة الكتاب ص٦.

الطيبة) لا تسقط من فمه، والزهور البرية الغريبة وهي تتمنى لو صارت زادًا في سلته». ثم يتابع نزار قباني قوله بعد أن يدعو صديقه شاكر إلى الكلمة الجميلة قائلاً: «إن جمال الكلمة جمال الجمالات والفنون كلها كلمات.. الموسيقى كلمة على فم الوتر.. والتصوير كلمة على فم اللون.. والنحت كلمة على فم المرمر. والزنابق على الرُّبا، والنجوم في السماء والعيون الكبيرة السوداء.. كلمات تنتظر من يقولها وما أشقى النجوم والعيون يوم لا تجد من يقول لها أو يقول عنها شيئًا»..

ويختتم نزار قباني أغنيته النثرية لشاكر مصطفى، وكلاهما كان يكتب النثر كأنه الشعر بقوله: «وقد كنت لا أزال أعطي هدب عيني لحرف جديد لم يدر ببال أبجدية بعد.. ولم يزحف في جبين إنسان.. حرف يتعذب من أجل وجوده على الورق، فإذا أحببت شاكر مصطفى فلأنه عرف عذاب الحرف ورائحة الظنون وهي تحترق.

أحبه لأنه فاتح درب شقّها بمحراث منحوت من أضلعه، ودوزن كل حصاة.. وكل حشيشة فيها.. أنا أحب شاكر مصطفى، وهذه الأغنية التي كتبتها له ليست مقدمة وإنما دعوة إلى حبه».. ومن الجدير بالذكر أن الدكتور شاكر مصطفى كان له علاقة طيبة مع الرحابنة وفيروز[1].

وماذا أقول أنا لشاكر مصطفى بعدما قاله نزار.. وهو رفيقه وصديق عمره وزميل شبابه وصباه.. وكذلك التقى معه في مهنة الدبلوماسية التي شغلها الاثنان ثم افترقا عنها ليتفرغ كل منهما إلى ما خلقه الله له.. القباني في الشعر.. وشاكر في الأدب والتاريخ.

وأعود إلى معرفتي بالدكتور شاكر مصطفى الذي عثرت عليه أخيرًا بعد تجوال دام قرابة عشرين عامًا حيث التقينا في الكويت/ جامعة الأحباء/ على المحبة في منتصف السبعينيات عندما كنت وزيرًا للنفط في سورية وكان الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى أستاذًا للتاريخ في جامعتها ورئيسًا للجالية السورية فيها. لم يساعدني الحظ أن ألتقي

---

(١) كان الدكتور شاكر مصطفى من أوائل من تبنى الثلاثي (فيروز - عاصي الرحباني - منصور الرحباني) وطبع للأخوين الرحباني ديوان «سمراء مها» وكتب مقدمته وهو على اسم أحد أغاني فيروز وكان ذلك عام ١٩٥٢ - عن دار الرواد في دمشق - راجع مجلة شؤون عربية - العدد الأول ١٩٨١ - لقاء مع الدكتور شاكر مصطفى اجراه د. محمد صالحية.

شاكر مصطفى عندما جئت طالبًا في جامعة دمشق في عام ١٩٥٩، فقد كان في هذه الفترة في السلك الدبلوماسي.. وعندما ذهبت إلى القاهرة لدراسة الاقتصاد والعلوم السياسية في عهد الوحدة السورية المصرية، كان الأستاذ قد ترك القاهرة.. وعند عودتي إلى دمشق بعد الانفصال وقيام ثورة آذار ١٩٦٣م لم تطل إقامتي في دمشق حيث ذهبت مديرًا للشؤون الاجتماعية والعمل في اللاذقية.. وعند عودتي إلى دمشق في عام ١٩٦٩؛ كان الدكتور شاكر قد ترك دمشق بعد صراع على السلطة، وكان وزيرًا للإعلام عام ١٩٦٦ حيث فتحت له الكويت أحضانها بدعوة من المرحوم الشيخ جابر العلي وبرعاية من أميرها في ما بعد الشيخ صباح السالم الصباح طيب الله ثراه..

كنا وشاكر مصطفى من مدرسة فكرية واحدة، هدفها نهضة الأمة العربية وانبعاثها، وإحياء تراثها وفكرها، وبناء وحدتها وتحرير أرضها.. وكنت من بيئة زراعية مثل بيئته، وكنت أتلمس خطاه الأدبية وأفكاره السياسية ونظرياته التاريخية، وكنت أمارس نظم الشعر منذ الصبا.. وكنت طموحًا لنيل الشهادات الأعلى، وكانت رغبة أهلي أن أكون معلمًا أو موظفًا يساعدهم على تحمل شظف العيش، وتمردت كما تمرد شاكر مصطفى، وحصلت على منحة دراسية في القاهرة كما حصل على المنحة، ولكن كل في اختصاصه، ولذلك أعيد إلى الذهن ما قاله عني أني أذكره في شبابه، بل أقول إنه كان يروي قصة مكافح وكفاح وقدوة لتلميذ يريده أن يكون رجلاً في بناء وطن، وما أحوج الأوطان للرجال.. وكم مشينا على درب العذاب.

كنا نلتقي في كل زيارة للكويت حيث مقر منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول.. وخلال الأيام التي كانت تتاح لنا كان موقع الدكتور شاكر في الصدر دائمًا وله الحديث المعلى في التاريخ.

يتدفق صورًا ومواقفًا ووثائقًا بين يديه في ذاكرة قلَّ نظيرها، وفي عرض شيق لا يملّ مستمعه، وإذا تحدث في الأدب والشعر فالموسيقى من صنع أنامله تنساب إلقاءً عذبًا واختيار الرائع من الشعر كأنه الجمان.. وإذا تكلم في النقد، فعين الناقد الحصيف الملم بثقافة العصر، وخاصة بعد أن تتالت مؤلفاته في مرحلة الستينيات والسبعينيات مثل (مؤرخو العصر السلجوقي والعصر الأيوبي) وهما مجلدان باللغة الفرنسية كانا

عنوان رسالة الدكتوراه في جامعة جنيف عام ١٩٧٠، بالإضافة إلى ترجماته وهو الذي كان يتحدث أربع لغات، وقد ترجم (مسرحية غارسيا لوركا) عن الإسبانية عام ١٩٦١ ثم (التاريخ العربي والمؤرخون) ستة مجلدات. وتشاء الأقدار أن أعين سفيرًا لسورية في الكويت في الفترة من ١٩٨١ إلى ١٩٨٨.. كانت الكويت في هذه الفترة تمر بأزهى فترات حياتها الثقافية مع صحفها التي تصل إلى كل الوطن العربي؛ (مجلة العربي) وقد رأس تحريرها الصديق المرحوم أحمد بهاء الدين، و(عالم الفكر) وقد ترأس تحريرها الدكتور أحمد أبوزيد، وجامعتها التي جذبت علماء العرب أمثال الدكتور شاكر مصطفى في التاريخ، وفؤاد زكريا في الفلسفة، والدكتور عبدالوهاب حومد، ود. عبدالسلام الترمانيني في القانون، وفي الطب الدكتور جورج أبونا والدكتور حسان حتحوت وغيرهم الكثير في مجالات العلوم الأخرى الذين لا يتسع المجال لذكرهم من أمثال الدكتور عبدالله عبدالدائم.. يجمعنا – كل أسبوع – في دارته المرحوم عبدالعزيز حسين في ديوانية تمنيت أن يسجل ما يدور فيها ويطبع لكي يكون زادًا للأجيال في أدب الحوار وعمق الثقافة وديمقراطية الرأي التي عزّ نظيرها في أي مكان في دنيا العرب.

وبالرغم من قسوة الظروف في الثمانينيات من القرن الماضي، حيث الحرب بين العراق وإيران تدور رحاها على مقربة من حدود الكويت، حرب بدأت وانتهت بإرادة من خطط لها وساعد على إضرامها، ومات في نيرانها مئات الألوف دون أن تقدم شيئًا للأمة العربية والإسلامية سوى الكوارث والمصائب وإتلاف الأموال والأرواح.. وحرب أخرى شنتها إسرائيل على لبنان حتى وصلت إلى احتلال بعض الضواحي في بيروت، وخروج الفلسطينيين من منفى إلى منفى، واحتلال صهيوني استيطاني في فلسطين والجولان.. وتشرذم عربي كان يلقي بظلاله على فكر أستاذنا شاكر مصطفى، فيتجرع الألم كأنه السم، ويكتب ويحاضر ويدعو إلى المؤتمرات، فربما بصيص نور يُخرج الأمة من الظلمة، ونضال مظلومين يجدون في نضالهم مخرجًا نحو انفراجٍ من كربٍ ومخرجًا من عسر فلا يجد إلا الخيبة تلي الخيبة، والمرارة تدفع بأعظم منها..

جاءني مرة، وهو الذي يكتم الألم ولا يعلنه، فيبقى في القلب ويتحول إلى جمرٍ أين منه الجمر.. قال لي في حسرة: «ذهبت إلى العراق منذ أيام وعدت» ونظر في عينيَّ

الدهشة، وكان بيننا وبين العراق ما بيننا في عهد صدام حسين.. ولم أدعه يكمل: ماذا فعلت في العراق؟..

قال لي: جاءني رجل عراقي يعمل في الصندوق العربي في الكويت ويرتبط مع آل العظم في مصاهرة في سورية، يطلب غوثًا ومساعدة مني في إنقاذ شقيقه وكيل وزارة التموين من حبل المشنقة.. وكوني أقف مع المظلومين شعرت بأن أخاه مظلوم.. فقصدت بغداد، وقابلت ميشيل عفلق الذي قبل طلبي وتوسط لدى صدام حسين في إنصاف هذا الرجل.. ورجعت من بغداد بعد أن قال لي الأستاذ عفلق أنهم قرروا الإفراج عنه في يوم الجمعة القادم.. وهكذا أخبرت أهله بنجاح مهمتي.. ولكن ماذا حصل بعدها..؟

قال الدكتور شاكر بألم وبريق الدمع في عينيه: لقد ذهبت عائلته إلى السجن لاصطحابه وهم يلبسون الثياب كأنهم في فرح ولكن ليستلموا جثته بعد أن نفذ حكم الإعدام فيه.. ومنذ أيام وأنا لا يطيب لي نوم ولا إقامة..

ووقفنا صامتين.. ثم قال: كم في التاريخ من مظلومين. لقد قضت قصيدة المتنبي في هجاء كافور على كل ما قدمه كافور، وكم هناك من الجبابرة ممن زيّن المؤرخون لهم عصرهم وكانوا لا يستحقون إلا الخزي، وكم في التاريخ مظلومون ومنسيّون.. آه ما أحوجنا إلى استنطاق التاريخ مرة أخرى وسأفعل كل ما أستطيع لإتمام رسالتي..

وبعدها جاءت سلسلة كتبه (أوراق من التاريخ) في ١٣ كتابًا.. جاء في كتابه «المظلومون في التاريخ»(١) مايلي:

«أكره الظلم والظالمين، طبيعة فيَّ ما أدري من أين ورثتها، ولكن قلبي ينفجر لكل ظلم ومظلوم. وبيني وبين العدل حلف يدخل في تكويني ونسيجي الروحي، ولقد علَّمني هذا الحلف أن أنظر على الدوام إلى الوجه الآخر للتاريخ، الوجه المطل على الجحيم». ثم يتابع قائلاً: «من ألقوا من بني الإنسان في جحيم الظلم، دفعوا به إلى الأبد، سيظلون خالدين أبدًا في ذلك الجحيم»، قال تعالى [إن الإنسان لظلوم كفار] ثم قوله تعالى [إنه كان ظلومًا جهولا].

---

(١) المظلومون في التاريخ.. أوراق من التاريخ، رقم ٢ - ص٤ - منشورات شركة النور - الكويت.

وفي الثمانينيات من القرن الماضي تبرعت الكويت بأن تكون مركزًا لوضع استراتيجية طويلة للثقافة العربية ودفعت القسم الأكبر من ميزانية لجنتها التي دعت إليها منظمة الثقافة العربية بالتعاون مع اليونسكو وبإشراف من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، وتولى الدكتور شاكر مصطفى أمانة هذه اللجنة، ورأسها المرحوم الوزير عبدالعزيز حسين.. وما هي إلا سنوات قليلة حتى قدّم الدكتور شاكر ستة مجلدات تعتبر أعمق ما وضعه العرب من استراتيجيات من القرن الماضي.. وقدّم لي المجلدات هدية للاطلاع عليها.. وقد شاءت الأقدار أن أذهب سفيرًا[1] في القاهرة ومندوبًا دائمًا لسورية في الجامعة العربية لمدة عشر سنوات متصلة، كان المرحوم الدكتور شاكر يزورني وهو يردد بمرارة: «بقيت هذه المجلدات على الورق».. ولم يؤخذ بها فقد أحدث غزو العراق للكويت واحتلاله كارثة عربية مازالت تداعياتها خلال عقدين مضيا لا تولّد إلا الكوارث والمصائب على العرب والعراق..

وفي هذه المناسبة أذكر لقاءنا في معرض القاهرة الدولي للكتاب؛ كنا الدكتور شاكر مصطفى، والمرحوم الكاتب السوداني الذائع الصيت الطيب صالح الذي رحل عن دنيانا هذا العام (٢٠٠٩)، والأخت الشاعرة الكبيرة الدكتورة سعاد الصباح، وأنا كاتب هذه السطور وبعض الأدباء الآخرين نتوجه إلى إحدى الصالات لنستمع لمحاضرة أحد المفكرين.. كانت القاعة لم تكتمل بعد بالحضور، فتقدم الدكتور شاكر وقال لي: أرجو أن تلقي علينا قصيدتك (لقاء مع أبي الطيب المتنبي).. وقلت له في خجل شديد: لست مدعوًا إلى الكلام أو إلقاء الشعر وأنا سفير لبلادي لا أريد إحراج أحد أو التطفل عليه.. ثم نظر إلى الطيب صالح والدكتورة سعاد قائلاً سأتولى تقديمه، وهكذا كان، وأذكر أني ألقيت هذه القصيدة وقصيدة أخرى ونزلت.. عندها قال لي الطيب صالح: أنصحك بترك الدبلوماسية واحتراف الشعر.. كن مثل نزار قباني وشاكر مصطفى..

كان الدكتور شاكر مصطفى يتقن أدب الحوار ويحترم الآخرين وهو يقول في كتابه «بيني وبينك» مايلي[2]:

(١) كان كاتب هذه السطور سفيرًا لسورية في القاهرة ومندوبًا دائمًا لها في الجامعة العربية من ١٩٩٠ - ١٩٩٩.

(٢) راجع كتاب «بيني وبينك» - شاكر مصطفى - ١٩٥٤ - دمشق.

«ولهذا أعلم نفسي دومًا احترام «عقل» الآخرين وأحاول أن أنظر من الزاوية التي منها ينظرون.. وأحذر كل الحذر من أن أدعي الحكمة دون غيري أو عمق التجربة دون مبرر، أو أن أمد يدي وأقول للناس ها هنا الطريق الوحيد، وأنا أعرف أن دروب الحياة، لله ما أكثرها».

جاءني يومًا في زيارة.. وكان متجهم الوجه، بادي الغضب.. ولما حاولت الاستفسار عن السبب قال لي بألم: كنت ألقي محاضرة في بعض العواصم العربية.. ويبدو أن أحدهم حوّر كلامي وأرسل تقريرًا إلى دمشق يقوِّلني ما لم أقله.. هذا نص المحاضرة اقرأه كلمة كلمة.. وافرض أني قلت ما قلت، فهل يستحق مثلي أن يطلب بكتاب للتحقيق.. وابتسمت قائلاً: اعتبر الموضوع كأنه لم يكن. ثم قال لي: لقد كتبت منذ عقود كتاب «بيني وبينك» وفيه مقال تحت عنوان أؤمن بالفكر الحر، أرجو أن تجد الوقت لقراءته.. ووعدته بذلك.. وكتبت للرئيس حافظ الأسد عن الحادثة، وأبلغني أن أرسل للدكتور شاكر دعوته لزيارته في دمشق، وبقي موضع احترام وحفاوة حتى رحيله عن دنيانا..

رجعت للمقالة وها أنا أقتطف منها مايلي:

يقول الدكتور شاكر: «إن الوجود الإنساني في ما قام في الواقع إلا على الفكر الطليق وإنما بدأت إنسانية الإنسان منذ اللحظة التي تمرد فيها على الغريزة والعادة وحقق وجوده الخاص، أي شعر بفردية المبدع وبكل قلقه».

ثم يقول: «وكم اختفت من فكرة حرة على شفاه ابن حنبل وغاليلو.. وكم خرج من دماغ حرٍّ إلى محاكم التفتيش فخرج شلوًا على الأعواد، ولا تسأل أعداء الفكر الحر بعد هذا هل مات ذلك الفكر الذي أسكتوه أو خنقوه، إنهم لايدركون إلا متأخرين أن النبتة القوية لا تموت، وإن دفقة الحياة المتسامية لا يمكن أن توقف، وأن الذين أسكتوا الفكر ما أسكتوا غير الشفاه، والذين أحرقوا الكتب ما نالوا غير الورق، والذين قتلوا ما فازوا بغير الجسد، وبقي الفكر الحر لا يمكن أن يسكت أو يقتل أو يحرق «إن الخنجر لا يجدي شيئًا ضد الروح».

وكما قال الشاعر:

لـثـورةِ الـفـكـر تـاريـخٌ يُـحـدِّثُـنـا

بـأنَّ ألـفَ مـسـيـحٍ دونـه صُـلِـبـا

في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي توالت مؤلفات أستاذنا الدكتور شاكر مصطفى بعزيمة لا تعرف الكلل وعلم غزير كالنهر المتدفق وعذوبة في النص، سبحان من فتح له من كنوز المعرفة وجوهر اللغة ومنطق الكلمة وأعمال العقل وإحقاق الحق والجرأة في المواقف والصبر على الشدائد وعذاب الفكر وشدة الصبر ما أعطاه، فجاءت كتبه التالية: التاريخ العربي والمؤرخون ٦ مجلدات ١٩٨٠، فلسطين بين العهدين الفاطمي والأيوبي ١٩٨٥، دولة بني العباس مجلدان ١٩٨٦، الأندلس في التاريخ ١٩٩٢، موسوعة الدول الإسلامية ورجالها أربعة مجلدات، وسلسلة أوراق من التاريخ ١٧ كتابًا ١٩٩٥، المدن في الإسلام مجلدان ١٩٨٨ - ١٩٩٧، دراسات في التاريخ الإسلامي ١٩٩٧، عودة صلاح الدين الأيوبي ١٩٩٧، وثمة كتب أخرى لم نبلغ عنها ومئات المقالات والمحاضرات المنشورة وغير المنشورة.

ولي على هذا الكم الهائل من الإنتاج ملاحظتان: الأولى أنه في عام الرحيل ١٩٩٧، وقد رحل في شهر تموز/ يوليو، وفيه أصدر ثلاثة كتب وكان على فراش المرض.. والثانية أنه كان في تواضع العالم لا يدعي المعرفة ولا العبقرية ويهرب من الألقاب وينفر من حفلات التكريم.

واقرأوا معي هذا النص الذي كتبه عام ١٩٥٤ وبقي وفيّاً له تحت عنوان «لا أؤمن بالعبقرية» حيث يقول:

«أتؤمن بالعبقرية، أنا لا أؤمن بها، وكل هذا النبع المسحور الذي يعزون إليه الألق والتفوق وشياطين الفكر، محوته من خاطري، بيدي أصبحت أخشى كسله الحرام وخدر الراحة إليه، إنه هيكل أجوف، والهياكل الجوفاء هي في العادة أكثر الهياكل إغراء وأكثرها عبادًا أيضًا.

ولست أخشى أن تفتح لي الكوى الآن فتطل منها زمرة العباقرة عاتبة أو غاضبة أني أسلبها إطارات النور التي تطيف برؤوسها، إني أجر بأرجلها إلى الوحل، فالذين ابتلوا العبقرية هم أول من يعلم أنه لا صدفة عمياء توزع نصيب الناس من الإبداع والبله، ولا رعونة حظ ترقص على عتبة جارك وتأبى أن ترقص عند عتبتك، العبقرية قبل أن تكون هبة وموهبة كانت عملاً - عملاً دائبًا - كانت غزل دماء ومزق شرايين وذبحة جهد»[1].

وأشهد أني ما ذهبت إليه في زيارة إلا وجدته كالفنان الخارج من المرسم - أو كالعازف الذي يحمل أوراق نوطته في يده وفي جيوبه.. كانت يده دائمًا ممهورة بحبر القلم والأوراق المتناثرة على المكتب والمقاعد.. كان الرجل يعمل بلا كلل حتى في ساعات المرض الأخيرة.. إنه العمل الذي يؤاخي العبقرية فلا يفترقا إلا ليلتقيا، وهكذا كان مفكرنا الكبير..

زارني في القاهرة في نهاية ١٩٩٦ وكان لونه شاحبًا.. وراعني أن أراه كذلك وهو الذي يطفح بالابتسامة والفرح ويدعو إلى الأمل والتفاؤل.. قال لي إنه متجه للإسكندرية لإجراء عملية جراحية، كنت أعرف ألم المرض ووهن الجسد وتعب القلب، وكان شارف على الخامسة والسبعين عامًا.. وعندما عرضت عليه الذهاب معه، قال لي: زوجتي أم الحكم معي، والعملية بسيطة وسنعود للقاهرة خلال يومين أو أكثر.. وعاد إليّ بعد نجاح العملية، ووجدته مرحًا مستبشرًا بالحياة.. وكيف لا يكون كذلك وهو صاحب فلسفة في هذا الشأن حيث يقول في إحدى مقالاته ما يلي:

«أنا أكره التشاؤم، أكره السواد - وقد أضع النظارة السوداء ولكن على أنفي لا أمام قلبي وأعقد ألف مرة ما بين حاجبي ولكن احتفظ دومًا بابتسامة الربيع في أعماقي»[2].

وفي كتابه «حضارة الطين» المنشور عام ١٩٥٥ يقول: «تفاؤل الإرادة هو الذي ينتصر دائمًا على إرادة العقل».

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٥.

(٢) المرجع السابق صفحة ٩٢.

في حضارة الطين قسّم الدكتور شاكر الكتاب إلى قسمين[1]: أولاهما الحضارة، وثانيهما الإنسان.

وضمّن القسم الأول العناوين التالية: (الإنسان والعلم)، (إنسان هذا العصر)، (أزمة وعدة حلول)، (تقدم الإنسان).

ويرى الدكتور شاكر أن حضارة الإنسان بدأت بالطين والحمأ المسنون، وسنعود للطين، وإن حضارة اليوم مدمجة بالحديد والفولاذ والرقائق الإلكترونية ومشتقات المعادن.

ها هي حضارة الإنسان في بلاد الرافدين، والتي بدأت فوق الطين، مدفونة في الطين والرمال.. يرى الدكتور شاكر أن الحضارة الغربية تعاني أزمة في الروح، والحضارة، فشلت في معالجة مشاكلها الوصفية فشل العقل، والعقائد والقيم الأخلاقية.

ويرى الدكتور شاكر مصطفى أن حضارة الغرب قائمة على القلق، المتجذر فيها، وتساءل: ماذا سيبقى منها عندما تذبح بيدها كل قيمها، وماذا ستقدمه للإنسانية بعد أن يرقص إله القوة رقصته الأخيرة وتحت قدميه يسحق الأجيال والكائنات والبشر... ويرى شاكر مصطفى أن تطور الحضارة لا يعني بالضرورة معنى التقدم والسمو.. وما تنبأ به تحقق اليوم.. وما نراه من حروب ضد الشعوب ومن ظلم يمارسه القوي ضد الضعيف إلا شواهد على ما قاله مفكرنا الكبير قبل أكثر من نصف قرن.. هذه الأزمة الاقتصادية العالمية التي تأكل فقراء العالم.. وهذه الحروب وما فيها.. وهذه أزمة الأخلاق والقيم في العالم المتقدم.. وفي هذا يلتقي مفكرنا شاكر مصطفى مع إيليا أبوماضي في قوله:

إنني أشهد في نفسي صراعًا وعراكا

وأرى ذاتي شيطانًا وأحيانا ملاكا

هل أنا شخصان يأبى ذاك مع هذا اشتراكا

أم تراني واهمًا فيما أراه؟.. لست أدري

---

(١) حضارة الطين – دار الرواد – دمشق ١٩٥٥ – والطبعة الثانية في دار طلاس ١٩٩٦.

وعلى مدى عقدين من الزمن تآخينا معًا، أنا وشاكر مصطفى، كنت أرى فيه المعلم والصديق وكان يراني أخًا أصغر منه يستشيرني حتى في القضايا العائلية، حتى إنني أذكر أنني ذهبت معه إلى بيت إحدى العائلات الفلسطينية لطلب ابنتها للزواج من ولده الأكبر، الحكم، وهناك قضايا كثيرة لا أرى مجالاً لذكرها هنا.

عندما غادرني من القاهرة.. كانت لديه مشاريع فكرية كثيرة وكان في عجلة لإنهائها، وفي سورية كان الأصدقاء والمحبون في عجلة من أمرهم لأن يقيموا له حفلاً تكريميًا يشارك فيه أدباء سورية وشعراؤها وكتابها في تظاهرة ثقافية كبرى.. وبالرغم من كونه يكره المظاهر والاحتفالات، فقد أخجله تواضعه وسمو خلقه من أن يكلف أحدًا بأي شيء.. وتقدم الشاعر الأديب الأستاذ مدحت عكاش، مؤسس مجلة الثقافة الدمشقية، وهي من أعرق وأقدم المجلات الأدبية المستمرة في الصدور حتى الآن، والمرحوم أستاذنا الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق، الوزير والسفير سابقًا، والحائز على جائزة الملك فيصل في الأدب، وغيره كثيرون.. واتفق الجميع على أن يكون التكريم في الشهر الثامن من العام ١٩٩٧ في مكتبة الأسد في دمشق.. وأرسل الدكتور شاكر كلمته التي سيلقيها في حفل التكريم، وحدث ما لم يكن في الحسبان فقد رحل الفقيد الكبير في ١٩٩٧/٧/٣١، إلى جوار ربه، وتحولت الكلمات التكريمية إلى تأبين.. وأرى من واجبي وأنا الذي سكب الدموع يوم الفراق وكانت أقوى من قدرتي على الكلمات أن أذكر بعض ما قاله أصدقاؤه فيه إنصافًا له ولهم.. وقد أصدرت مجلة الثقافة[١] عددًا خاصًا للمناسبة في أيلول ١٩٩٧، كما أصدرت بمناسبة الذكرى الأولى لوفاته مجلة العربي الكويتية عددًا تكريميًا نشرت مقالاته على صفحاتها.

يقول الدكتور شاكر فحام في تأبينه: «إنه ليروعك وأنت تقرأ آثار الدكتور شاكر مصطفى، هذا الثراء العريض متدفقاً بين يديك وقد بلغ ذروة الجودة معنًى ومبنًى، فكرًا وأسلوبًا، وتعجب أشد العجب لهذه المقدرة الفائقة التي لا يقوى عليها إلا العباقرة المبدعون».

---

(١) كلمة الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق. مجلة الثقافة - دمشق - عدد أيلول ١٩٩٧.

ويتابع الدكتور الفحام قائلاً: «كان يؤرقه الوصول إلى الحقيقة، ويلقى في طريقه إليها ما يلقى من العنت والجهد – ولا يستسلم أبدًا، شعاره:

لا رآنـــي الـلــه أرعـــى روضــةً
سـهـلـةَ الأكـنـافِ مـن شـاء رعـاهـا

إنه لا يقبل المسلّمات بل يخوض الغمرات ليبلغ الحق، يقول (أي شاكر مصطفى): «الحقيقة الخبيئة هي التي تجتذبني، لا الأحكام المستقرة» «السفر في التاريخ متعة مرّة» و«البحث عن المنسيين وقفة عدل وإنصاف».

ثم يختتم الدكتور شاكر فحام كلمته بقوله: «لقد كان الأستاذ شاكر مصطفى من كبار علمائنا ومفكرينا الذين أغنوا المكتبة العربية وتركوا آثارًا بينة في مسيرتنا الثقافية، لقد منح بتآليفه ودراساته للأجيال الجديدة آفاقًا رحبة، وأثار فيهم الرغبة والشوق ليتابعوا الطريق وينشدوا الكمال..».

وكتب الأديب الدكتور بديع حقي: «هكذا قضى الله أن يكون الحفل المعدُّ لتكريمه والاحتفاء بأدبه الفذّ حفل تأبين – يجلو فضله على الأدب العربي المعاصر كاتبًا فذّاً لا مثيل لأسلوبه الآسر الساحر ومؤرخًا منصفًا، فمن نظراته الطلقة في تاريخنا العربي الخالد، وفوّفه بنقلات قلمه المبدع، وأن تكون كلمتي هذه التي أعددتها لتكريمه تقتبس جمرتها من حرقة حزني وأسى قلبي عليه، وأن ترسل حروف كلمتي مانحة معانيها وبعض ألفاظها مما كنت قد استجليت ونوهت من قبل».

يقول الكاتب الفرنسي اندريه موروا: «إنني أتمنى أن يداهمني الموت، ما بين نقطة وفاصلة من جملة أعكف على كتابتها».

وهكذا كان شاكر مصطفى، ظل يكتب لآخر يوم في حياته وهذا ما رواه عنه الأديب والشاعر مدحت عكاش الذي زاره قبل الرحيل بأيام فوجده منكبّاً على الأوراق يكتب على فراش المرض.

أما الشعراء فقد كتبوا في رثائه القصائد الخالدات وأقطف من رياضهم ما يلي:

قال الشاعر جابر خير بك[1]:

يا سيدي لستُ أدري إن شكا قلمي

عبء المعاني إذا لم أوفِ ما وجَبا

فأنتَ رائد أجيالٍ وما برحتْ

أقلامُنا تشتهي روضَك الخصبا

حروفُكَ الخضرُ مِسكٌ في دفاترِنا

منها تَعِبُّ إذا كلُّ الشّذا نضَبا

فكنتَ أبلغَ من وشي البيانِ ندًى

وداعب الحرفَ والأوزانَ والخُطَبا

أما الشاعر رضا رجب فقد قال:

خَفَتْ دمشقُ إلى الدمشقي الذي

صاغتْ أناملُه الحجارةَ مرمرا

أمحاورُ التاريخِ تنشرُ ما طوى

وتبينُ ما أخفى وتَجْمع ما ذرا

نفَذتْ رؤاكَ إلى خَفيِّ رموزِهِ

فَوصلْتَ بين الأمس واليوم العُرا

أنصفْتَ قومَكَ حين صُغتَ تراثَهمْ

كالجوهري حنّا ليرصفَ جوهرا

تأبى على الفصحى وأنت ابن لها

ألا تكونَ أميرةً بين الورى

إنّ البلاغةَ لا تكونُ فريدةً

إلا إذا عَذُبَ الحديثُ مُكرّرا

---

(١) قصائد الشعراء في حفل التأبين منشورة في مجلة الثقافة - دمشق أيلول ١٩٩٧.

وجاء في قصيدة الشاعر عبدالمجيد عرفة..

وترجمتَ ما تُخفي الصدورُ تبصُّرا
وعرّبتَ ما قد خطّهُ كلُّ أعجمي

كأنّك تأبى أن تَفوتَكَ فكرةٌ
لتنقلَها للناس من كلِّ معجمِ

نقَرْتَ إلى حطينَ تكتب مجدَها
فَيَالكَ من شهم ويالكَ من كَمِي

كأنَّ صلاحَ الدينِ أعطاك سيفَهُ
وما السَّيفُ من فضلِ اليراعِ بأعْظَم

وليعذرني الأساتذة والشعراء مدحت عكاش وقمر كيلاني وعصام الحلبي وعبدالغني العطري وغيرهم فالمجال لا يتسع لذكر كل الكلمات والقصائد، وربما يأتي ذلك في كتاب عن فقيدنا العظيم.

غير أنني وجدت من روائع الأشياء بل من عجائب الأقدار أن يكتب شاكر مصطفى كلمة ليلقيها في يوم تكريمه، فإذا تقرأ في يوم تأبينه، لقد رحل قبل التكريم.. وفي هذه الكلمة التي تعتبر من آخر ما خطّهُ قلمه تشكل درسًا في التواضع، وعبرة لكل معتبر، ودرسًا لكل متعلم، وسأورد بعضًا منها في ختام حديثي عن معلم وصديق..

يقول الدكتور شاكر في كلمته إلى مكرميه بعد أن يورد حكاية من الصين بين الإمبراطور ووزيره الذي يرغب في تكريمه ومنحه لقبًا، ويرفض الوزير اللقب، ثم يقول الإمبراطور:

إنك لا تريد أن تكون العقل الأسمى ولا الإنسان الأسمى، ولكن تريد أن تكون الإنسان الحر، فاذهب! وتركه كاهنًا في معبد بعيد لا يملك سوى الحرية..

ثم يقول شاكر مصطفى:

«وهذه حكايتي معكم، فقد تمنيت على أخي الأستاذ مدحت عكاش أن يتركني كويهنًا في المعبد القصيّ لا يأتي عليه إلا الظباء والوحش وبنات الطير وبعض الزنابق

والزهر والطيوف مع ظلمة الغاب، وأردتم أنتم أيها الأخوة والأحباب والتلامذة القدامى أن توقفوني موقفًا يغسلني بالخجل وما وقفته أبدًا في حياتي قبل اليوم، ولا ألجم لساني العي كما ألجم اليوم، فأنا أتعثر بالحروف الأبجدية مع إني ابن المنابر منذ أربعين سنة.

كلمات الثناء التي نثرت كأزهار اللؤلؤ فوق رأسي وملأت البساط حولي وحولكم أعترف أنها كانت تنخزني، تحزنني، تزيد من حناكتي، تكشف مدى قصر قامتي، وفي ذهني كل عملاق يقطف النجم ويزيد شبرًا – وأعترف لكم مخلصًا أنني كنت عند كل كلمة أسمعها أحسب أنها تعني غيري، وحين انتبه أنها تعنيني أذوب في مقعدي ويغيب عني شيء إلا الدموع».

ثم يتحدث عن الكلمة فيقول:

«تثيرني الكلمة الجميلة، الكلمة التي تحمل طرفًا ملونًا من ألوان كن فيكون، قناطير من الورق أفنيت، أطنان من حروف الأبجدية استخدمت، بنهم الجرذان ابتعلت الكتب نعتًا وهامشًا وتعليقًا – بساتين أهلي في كيوان عرفتني أشجارها واحدة واحدة، وعرفتني السواقي وأغصان التوت والخوخ وشلوخ الزنابق وكتابي تحت إبطي.. في ما شاركت أيدي أهلي في التراب والشوك، وكانوا هم أنفسهم ظاهرة ترابية كجذور أدغال معتقة. ثم عرفني حي الصالحية بأناسه الطيبين ابن بقال كان أبوه يضربه إذا فاجأه يقرأ، لكنه كان يقرأ في السر كل شيء ويخفي ما يقرأه تحت أوراق الصرّ».

ثم يعترف هذا العبقري بالرغم من أنه كتب ثلاثة وخمسين كتابًا عدا مئات المقالات والمحاضرات قائلاً: «يتساءل هذا الواقف أمامكم متلفعًا بعباءة التكريم لمن يكتب، ولماذا يكتب؟».

ويحسب أن طيفًا من التشاؤم يلم به وهو يسأل، فما زان الأدب برائعة خالدة.

وهو المولع منذ الصغر بالجديد الجميل ولا قدّم عطاء يذكر مع اسمه – ومعظم ما قدّم فإنما هو غثاء أحوى يذهب مع الريح.

هذا هو تواضع شاكر مصطفى – لم يغيره طيلة حياته، لم يتغير – كان فكره هو سلوكه، باحث عن الحقيقة، يكتوي بنارها، يدافع عن المظلومين ويتحمل جمر الظلم،

يدافع عن الحرية ويعرف أن لها ثمنًا أين منه حصى الرمضاء.. ويعترف أنه لم يقدم طيلة مسيرته ما يستحق الخلود.. الله.. الله يا شاكر يا معلم التواضع.

ثم يعترف أخيرًا بأنه ابن بقال كان أبوه يضربه ثم يعلن صرخته أو شهادته قبل الموت – قائلاً:

«إنما أكتب لنفسي لا لأحد – على أني وأنا أكتب لنفسي أكتب عمليّاً للآخرين – أكتب للجياع، إلى كلمة حب للمعذبين في الأرض لمن آمنوا بالإنسان، ولمن أهلكت عيونهم الدياجير وللثائرين على الظلم، وأنا أشعر بوجودهم في مطاوي صدري وعلى عرائش أصابعي.. وفي مرآة نفسي أرمقهم ويرموقونني على الصمت». ثم يقول:

«أنا أؤمن بالكلمة التي تحمل انفعالاً، تحمل شيئًا تقوله، ولو كان قشة مما يحمل الطير في منقاره ليبني عشًا – الكلمة الفارغة، الجافة، الخشبية يا حسرة قائلها، إنها تموت قبل أن يقرأها أحد».

هذا هو شاكر مصطفى.. وتقتضي الأمانة أن أقول أن شاكر مصطفى كتب الشعر، ولكن لم ينشر عنه، ومارس الرسم.. وخرج منه مبكرًا.. والمستغرب أنه لم يكتب القصة وإن كان مارس نقدها في مؤلفه المبكر «محاضرات عن القصة في سورية حتى الحرب العالمية الثانية – جامعة الدول العربية – ١٩٥٨».

وما أؤكد عليه حول الهوية الثقافية ما كان يقوله لي دائمًا عن نظرته للثقافة بما يلي:

- الثقافة هي كل ما يميز هوية الأمة وردود فعلها تجاه الكون والحياة، الثقافة هي الموقف المميز من الحياة، من النعيم والمعارف والعلوم والسلوك ومن تعبير عن أنماط تفكير ومذاهب جمال.
- إن قضية التبعية الثقافية هي مسألة كونية تحاول الثقافة الأمريكية فرض هيمنتها على العالم.
- علينا أن نواجه التبعية بالاختيار والاستقلالية، فالاختيار يعني أن نمتلك القدرة بإزالة العصابة عن أعيننا والعقبات من أمامنا وأن نمارس إبداعنا بلغتنا وإنسانيتنا.

أما الاستقلالية فهي السبيل الصعب والوحيد، والسير في الطريق عبر ثلاث متحولات متشابكة في الذات القومية، وهي التراث، ومعطيات العصر، والمستقبل القومي. الاستقلالية كما يراها هي نقيض للتجمد والتحجر ويرى أن الثقافة التي لا تتطور تموت.

ومات شاكر مصطفى وفيّاً لهذه الأفكار وداعيًا لها أمينًا عليها.. وإذا كان قد غادرنا إلى رحاب الخلد.. فإنني سأظل أذكره كما الملايين في الأمة بكل المحبة والعرفان والتقدير... وإذا كان لا بد أن أعيد الفضل إلى أهله شاكرًا كل الأصدقاء الذين أعادوا تنشيط ذاكرتي لنصف قرن مضى من المؤلفات والأبحاث والمقالات.. وعلى الأخص الشكر موصول للأستاذ الصديق الشاعر الأخ عبدالعزيز سعود البابطين الذي تشرفت بدعوته لكتابة هذا البحث. ولفقيدنا الرحمة والخلود ولكم جزيل الشكر ووافر الثناء.

المراجع

١ – بيني وبينك، شاكر مصطفى، وزارة الثقافة السورية دمشق، الكتاب الشهري ٣٩.

٢ – اليتامى في التاريخ، شاكر مصطفى، أوراق من التاريخ (١) – منشورات شركة النور – الكويت.

٣ – المظلومون في التاريخ، شاكر مصطفى، أوراق من التاريخ (٢) – منشورات شركة النور – الكويت.

٤ – حضارة الطين، دار الرواد، دمشق ١٩٥٥ – الدكتور شاكر مصطفى.

٥ – حكاية على جدار الزمن، د. عيسى درويش، دار التكوين دمشق – ٢٠٠٨.

٦ – محاضرات عن القصة السورية حتى الحرب العالمية الثانية، جامعة الدول العربية – القاهرة ١٩٥٨.

٧ – مجلة الثقافة السورية – دمشق – أيلول ١٩٩٧.

٨ – تقرير استراتيجية الثقافة العربية ١٩٨٢ – ١٩٨٥ منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (٦) مجلدات.

٩ – مجلة العربي – الكويت – العدد (١١) ١٩٩٩ والكتاب الدوري مع مقدمة الدكتور محمد الرميحي.

١٠ – حفلة التأبين (الكلمات والقصائد بما فيها كلمة الفقيد التي أعدها لتلقى في تكريمه قبل الرحيل).. وتحول التكريم إلى تأبين لاحقًا، وثائق الدكتور عيسى درويش.

١١ – مقالات من مجلات مختلفة في سورية والعالم العربي.. أهمها مجلة العربي – الكويت، ومجلة شؤون عربية، القاهرة – ومجلة المعرفة السورية.

١٢ – كتب ومؤلفات ومحاضرات وأحاديث الدكتور شاكر مصطفى المشار إليها في المرفق عن مؤلفاته.

****

قطعة من الكريستال

د. حنان قصاب حسن

جامعة دمشق

حين بدأت أكتب عن الراحل الدكتور شاكر مصطفى شعرت كمن يقلّب في يديه قطعة كريستال يجد في كل وجه لها صورة مختلفة، لكنها في اجتماعها تشكّل بريقاً يخطف الأبصار.

فشاكر مصطفى الأديب هو صاحب القلم الرشيق واللغة العذبة المتعة والوصف الحي المشوّق. تقرأ له فتخال أنه يحدثك أنت وحدك بنوع من البوح لا يجيده إلا من كانت الكتابة لديه وسيلة تواصل حقيقية مع القارئ. ليست مصادفة أن يحمل أحد كتبه عنوان «بيني وبينك»، فهو بأسلوبه السلس يشد القارئ ويمتعه حتى ليظن أنه لا يكتب إلا له.

تكتسب الكلمة تحت قلمه حياة وحيوية يشعر هو نفسه بها: «أكاد والكلمة تفلت مني على هذا السطر أو ذاك أن أعود فالتقطها، وأنا أحس دبيب ابتعادها على الورق، وخلودها ضدي على الرغم مني». أما الصفحات فتتحول بفعل قلمه إلى بساط سحري يجعلك لا تقرأ مجرد كلمات، بل تكتشف عوالم مذهلة في غرابتها وجمالها، تسمع ما فيها من أصوات، وتشم ما يحيط بها من روائح وترى ما يكوّنها من ألوان. وقد ساعده عمله في السلك الدبلوماسي وتنقله بين كولومبيا والسودان ومصر والبرازيل أن يزور مناطق غريبة في فترة لم تكن فيها وسائل الاتصال قد قرّبت المسافات بعد كما هو الحال اليوم، فكان وصفه الدقيق مصدر معلومات ثمين لمن لم تُتح له متعة السفر. وما زلت أذكر أنني، وأنا بعد يافعة، حملت من كتابه «في الأدب البرازيلي» تلك الصورة المشوقة التي أحفظها حتى اليوم عن تلك البلاد، وأدين بها لأسلوب شاكر مصطفى الحي:

«والبرازيل عالم.. بكل ما في العالم من تنوع لا ينتهي، ومفاجأة تلجم اللسان، وجمال يورث الدوار، ودبيب وحش، وجوع، وجنون، ورعب، وأنهار كالبحار تتدفق في جلال مكين، وصخور ثلجية تثقب الغيم لتطل على الفضاء المطلق، وسهول تركض الفرسان شهوراً في جنباتها الخضراء، والأفق هو الأفق... وهنود بلون النحاس، وزنوج كالليل أو أشد سواداً، وسمر أخذوا الشمس تحت الإهاب، وأوربيون أتعبتهم زرقة العيون وشقرة الشعر، فهم غرباء كالعنز البيضاء في القطيع الأسود».

«أردت أن ألقي القارئ في أجواء البرازيل الحارة، أن أنثرها أمامه، في غاباتها الوحشية، وعبر سمائها ذات الزرقة اللازوردية، وعلى آفاقها في بعدها اللانهائي، وبين ناسها الذين تختلط فيهم كل ملامح البشر وكل ألوان البشر... بدون هذه الأجواء لا تستطيع فهم البرازيل والنفاذ إلى أدب البرازيل الحار القلق. أدب البرازيل معجون بطينها وصخرها وغاباتها، ملتصق الالتصاق الرحمي بناسها وعروقها فلا سبيل إليه إلا من خلال هذا الطين والصخر والغابة والناس والعروق. هنا المدخل».

لكن كتابات شاكر مصطفى لم تكن أدب رحلات فقط، فهو لم يكن يكتفي بوصف ما هو غريب ومثير، وإنما كان يبحث ويحلل ليخرج بدراسات معمقة وصحيحة تفتح أبواباً كانت مغلقة من قبل، أو تصحح صوراً نمطية كانت سائدة. فهو كان من الأوائل الذين عرّفوا القراء العرب بأدب أمريكا اللاتينية بالإضافة إلى ربطه ذلك الأدب بالواقع الاجتماعي والاقتصادي والحياتي لتلك القارة البعيدة؛ وما كتبه عن أفريقيا كان معلومات تاريخية دقيقة لا تنبع إلا من معرفة الأديب المسلّح بأدوات البحث التاريخي بعيداً عن النظرة العنصرية السائدة:

«تسلطت الأساطيل الأوروبية على الشواطئ الأفريقية تصطاد منها الزنوج، ليكونوا آلات الحرث والتعدين والخدمات في أمريكا. بدورها، لم تكن أفريقيا التي صاروا يدعونها بالسوداء، بلد الطبل المبحوح في الغابة والوجه الملطخ بالأصباغ والتشنج الهستيري حول الرماح، والليل يتلوى كأنه الثعابين العطشى. الزنجي وحش الغابة البدائي كذبة أخرى من أكاذيب الغرب. أفريقيا القرن السادس عشر والسابع عشر كانت بلداً للحضارة الإسلامية والممالك الواسعة والثقافة والإنتاج. بعد إمبراطورية غانة التي كانت تقوم

على قاعدة من الذهب هناك، جاءت إمبراطورية الماندنغو الإسلامية في مالي. عاصمتها تمبكتو كانت تزدحم بالعلماء والمساجد والمواكب والقصور والثروات والذهب والنحاس، وفي أراضيها القطن والزراعات وعلى طرقاتها القوافل. جاءت كذلك إمبراطورية سنغاي، الدولة النيجيرية بملوكها وبجيشها المنظم وشبكات الري الزراعي والفنون المتقدمة والصيد ونظم الحرب والسلم والمجتمع».

ذلك أن شاكر مصطفى لم يكتفِ كما غيره من السفراء بدفء المكاتب الأنيقة المعزولة بزجاجها السميك عن العالم الحقيقي، فهو سافر وانتقل واختلط بالسكان المحليين، فكان العمل الدبلوماسي بالنسبة إليه مناسبة للبحث عن علاقات التقارب واللقاء بين الشعوب. فأثناء إقامته في البرازيل بحث عن الجذور السورية لكثير من المهاجرين الذين انقطعت علاقتهم بالوطن؛ وله يعود الفضل في الكشف عن أوراق قسطنطين خوري وتحقيقها ونشرها، ومنه علمنا أن ذلك المهاجر إلى البرازيل من حمص كان قد رافق أبا خليل قباني في مسيرته المسرحية. وها هو اليوم حفيد قسطنطين البرازيلي يقوم برحلة في الاتجاه المعاكس ليقتفي بفضل ذلك الكتاب آثار جده، وليستعيد جذوره السورية ويبرزها في فيلم سينمائي.

أما شاكر مصطفى المؤرخ فلم يكتفِ بجمع ما ورد في كتب السابقين وتكرار ما قاله من سبقه من المؤرخين، بل استقرأ الوقائع بمنظاره الجديد ليخرج لطلابه وقرائه بأفكار جديدة تعيد الاعتبار لمن شوهته الصور النمطية وليحكم بقسوة أحياناً على من كرّسته الأساطير أيقونة لا يقبل أحد المساس بها. والكتب التي عالج مصطفى من خلالها التاريخ تشي بتوجهه لتسليط أضواء جديدة على من أهملهم أو نساهم المؤرخون. واستعراض عناوين هذه الكتب يبيّن كيف كتب عن فئات وشرائح لم يتطرق إليها كثيرون من قبله[1]. وهو في تدريسه للتاريخ فتح أمام طلابه وتلاميذه أبواب جديدة فحببهم بما كان يعتبر مادة جافة، وقرب منهم فهم العلاقات التي تفسر التاريخ العربي. كما أنه في مؤلفه الضخم «تاريخ العرب والمؤرخون»؛ طمح لأن يقدم دراسة في تطور التاريخ كعلم.

(١) المظلومون في التاريخ، اليتامى القادة في التاريخ، المغامرون في التاريخ، المكتشفون في التاريخ، المنسيون في التاريخ، المصادفة في التاريخ، اليتامى في التاريخ..

لم تكن الألقاب والمناصب تغريه. فهو لم يتردد أن يترك وزارة الإعلام بعد عام واحد ليساهم في تأسيس جامعة الكويت مفضلاً البحث الأكاديمي على بريق السلطة، مكرّساً وقته للهاجس الذي لم يفارقه، وهو التخطيط للنهوض بالأمة العربية والثقافة والتعليم، خاصة عندما عمل كأمين عام للجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية في الكويت. وقد أثرى ذلك المنظور التنموي الاستراتيجي بدراساته الهامة[1].

أما شاكر مصطفى الإنسان فهو ذلك الشخص الوديع لطيف المعشر الذي وصفه بأجمل الكلمات صديقه وابن جيله الدكتور صباح قباني: حين تسمع صوته الخافت الخجول في حديث إذاعي أو محاضرة مسائية، وحين تقرأ كتبه الصغيرة المنمنمة تظنك أمام مختص في الفلسفة أو الأدب، ولكنك تسأل.. فيبتسمون ويقولون: (شاكر؟ إنه أستاذ تاريخ) مفكّر عذب ورقيق يقدّم لك أضخم المسائل الفكرية وأعصاها على الإفهام بلغة بسيطة حلوة ورشيقة حتى لكأنها الشعر الحلال.

إنه لا يكلمك، ولكنه يهمس في سمعك همسات صغيرة متواضعة سرعان ما تكتشف أن وراءها عقلاً جبّاراً وثقافة أدبية وتاريخية متألّقة. وتجدك حائراً متسائلاً: «هل هذا الذي أسمع وأقرأ هو أديب أم مؤرّخ؟» بل إن شاكر مصطفى نفسه هو الذي يتساءل مثلك في بعض ما كتب: «هل كان عملي طوال حياتي في التاريخ أم في الأدب»؟ ولكنه سرعان ما يجيب ويقول: «التاريخ هو مهنتي، والأدب هو هواية عمري».

لكن ما أعرفه عن الراحل شاكر مصطفى على الصعيد العائلي شئ آخر، والمشاعر التي تجيش في قلبي حين أذكره هي من نوع العواطف التي يمكن لطفلة أن تكنّها لمن تدرك بحسها الفطري أن له في قلب والديها مكانة خاصة.

فعندما كان يأتي لزيارتنا في إجازاته قادماً من الكويت مع زوجته وأولاده، كنا نحن الصغار نشعر من لهفة الاستقبال أن القادمين أشخاص استثنائيون لهم في قلوب أبوينا

---

(١) «التخطيط لتنمية عربية: آفاقه وحدوده». «التعليم والثقافة كحاجات أساسية في الوطن العربي». «الثقافة العربية والاعتماد على الذات؛ نحو تنمية عربية تعتمد على الذات»...

محبة. هي محبة؟ بل أكثر من ذلك. هو دفء لا يمكن أن يشعر به إلا من خبر لقاء الإخوة بعد غياب... وكان بينه وبين والديّ ما يتجاوز علاقة الإخوة.

فهو الذي ولد في حي الصالحية الجبلي في دمشق كان جار والدتي في طفولتها، تعرفه من نعومة أظفارها وتذكر فيما تذكر كيف كان لا يذهب في طفولته الأولى إلى المدرسة قبل أن يوزّع الحليب الذي يبيعه والده في دكانه المتواضع، وكيف كان ينسخ بخطه كتب الدراسة لعجزه عن شرائها. وعندما طلبها والدي للزواج، كان شاكر مصطفى الرفيق الناصح الذي شجعها على الاقتران بمن كان في نظره من أفضل الشباب. فيما بعد، حين كان يأتي لزيارتنا مع عائلته الجميلة كانت تقول لنا كم هي سعيدة لأن ذلك الذي عاش الشقاء في طفولته استطاع أخيراً أن يجد الحب والحنان في عائلة دافئة وأن يعيش حياة عز ورفاه تعوض له السنوات العجاف.

عنه كتبت والدتي أمينة عارف الجراح في كتابها (أيامي كانت غنية):

«كان المبدأ المشترك واسطة التعارف بيني وبين من أصبح زوجي وهو نجاة قصاب حسن، وكنت أسمع عرضاً عن ذكائه من أهل زوجة عمه القاطنين في حينا ورأيهم له قيمته. وكذلك كان صديقنا المشترك شاكر مصطفى رفيقاً لنجاة منذ الدراسة الابتدائية والثانوية وحتى دار المعلمين، وكان يطري أمامي حدة ذكائه وصدق وطنيته. وعندما جاءنا يومًا متجهم الوجه حزيناً وأخبرنا أن نجاة قصاب حسن قد اعتقله الفرنسيون في ذلك اليوم وحرم من الفحص النهائي في دار المعلمين اشتد تعاطفي مع هذا الشاب المناضل».

أما علاقته بوالدي فقصة أخرى....

ولدا معاً لا تفصل بينهما إلا أيام قلائل.. ذهبا إلى مدرسة واحدة وتتلمذا على يد الأساتذة أنفسهم، ولئن سارت بهما الأيام كلٌ في طريق خلال الحياة العملية، فإن ذلك كان مدعاة لأن تتحول جلساتهما إلى جلسات نقاش ثقافي يستحق في كل مرة أن يُسجّل في كتاب لما فيه من عمق وأهمية. كان شاكر مصطفى اللطيف العذب بصوته الخافت العميق وضحكته الناعمة الخجولة، نقيض والدي الصاخب العابث بشخصيته الطاغية

وحضوره المحبب ومرحه الذكي لكنهما كانا رغم اختلاف الطباع والصفات الشخصية متفاهمين يحملان لبعضهما وداً استثنائياً لم يخفت على مر السنين.

عنه كتب أبي نجاة قصاب حسن في كتابه (حديث دمشقي):

«في هذه المذكرات ترونني أذكر شاكر مصطفى في كثير من المناسبات المتعلقة بطفولتي وشبابي، فإن أردتم التفسير فها هو: كنت وشاكر من السن نفسها تماماً، وكان هو من حي الصالحية ونحن سكنّا في حارة المقدم (بين الجسر الأبيض والصالحية في دار بقدونس) لمدة سنة قبل ١٩٣١ حيث انتقلنا إلى بيتنا في حينا القديم الدائم في بستان الكركة. وهذا الجوار جعلنا ندخل مدرسة ابتدائية واحدة هي مدرسة عرنوس.

أمضينا معاً سنوات التعليم الابتدائي، صفنا واحد وطريقنا واحدة، ونجحنا معاً في الشهادة الابتدائية، وكنا في مكتب عنبر معاً في الصف والشعبة نفسها، عرفنا الأساتذة عينهم وكان أصدقاؤنا مشتركين وأخصهم بالذكر مظهر وصفي وتيسير الشايب وغيرهما من الرفاق الأحباء. وفي عام ١٩٣٨ تقدمنا معاً بعد القسم الأول من البكالوريا للتعيين كمعلمين وعُيِنّا معاً وبقرار واحد في الفرات، واستنكف هو ورجعت أنا بعد عشرين يوماً فقط إلى دمشق، وأمضينا سوية سنة الفلسفة وأخذنا القسم الثاني من البكالوريا معاً في وقت واحد.

ثم جرى تعييني مؤقتاً في قرية الديماس المجاورة لميسلون على طريق بيروت وعُيِّن شاكر مثلي ولكن في قرية تلفيتا بين قريتي منين وصيدنايا. وقرب آخر السنة عندما اقترب عيد أول أيار جاء والدي فأنذرني بأن دارنا في دمشق (كبستها) الشرطة لاعتقالي، فذهبت من فوري إلى دمر بسيارة عابرة، ومن دمر إلى قرية منين عن طريق الجبل مشياً على الأقدام. ونمت الليلة الأولى عند زميل لي معهم في قرية منين، واسترحت من تعبي، وفي صباح اليوم التالي قصدت إلى تلفيتا حيث كان شاكر مصطفى معلماً. ولكنني كنت قد غيرت أحلاسي وهيئتي وصار اسمي الشيخ علي. وقضيت أياماً لدى شاكر اختفي عنده عن أنظار السلطة مدعيًا أنني شيخ من أصدقائه، ثم تركت تلفيتا وذهبت إلى التل حيث نزلت عند صديقي معلم القرية الأستاذ عبد القادر حتيتاني فأواني هو أيضاً رغم

أنه لا يشاركني أفكاري، شأنه في ذلك شأن من تقدم ذكرهم من الزملاء الذين كانوا يتصرفون بالتعاطف والصداقة ولأننا جميعاً ضد المستعمرين والسلطة لكن لكل واحد أفكاره المستقلة.

وأذكر أنه في اليوم التالي لتركي تلفيتا ومنزل شاكر مصطفى، جاءت دورية كبيرة من الدرك يتقدمها الكولونيل هرانت بك لتكبس القرية ولم تجدني، وسجلت على شاكر نقطة في ذلك الوقت في نظر السلطات لكنه كان شجاعاً فلم يأبه.

وفي العام التالي دخلت وشاكر مصطفى معاً دار المعلمين وقضينا معاً السنتين في هذا المعهد وتقاسمنا معاً المرتبتين الأولى والثانية عند التخرج و(تشيطنّا) معاً على الأساتذة. ولما تخرجنا اختارتنا وزارة التربية لنتقاسم معاً صفاً في مدرسة التطبيقات، وندرس معًا في دار المعلمين العليا. وأوفدتنا الوزارة كلينا إلى مصر في العام التالي، ولكنه ذهب هو فدرس التاريخ ثم بلغ مكانته العالية في الأدب والتاريخ والتوجيه القومي، واخترت أنا أن أبقى في دمشق أدرس الحقوق وأعمل في المجالات الأخرى.

وكنا نشترك في مستوى دخلنا ومستوى ملابسنا وفي الهوايات كالأدب والرسم والشعر فهو رغم عدم مجاهرته بذلك رسام مبدع يرسم بالزيت وبالفحم، وشاعر رقيق وله أشعار أحفظها ولا يقرّ بها، وكان لنا أصدقاء مشتركون. ولا يزال حتى اليوم يرعاني وأرعاه على البعد، وحين يأتي إلى دمشق لا يملك إلا أن يتفقد أحوالي، وحين ذهبت إلى الكويت كان لي نعم الأخ، بل كان يعتبر والدي كوالده وكذلك أنا، وأخوتنا نراهم أخوة مشتركين.

وإني فخور ومعتزّ بأنه سبقني في كثير، وترك آثاراً باقية وسيوفق إن شاء الله في كثير جداً من مشروعات التأليف التي يعمل فيها الآن، وإنني معه عشنا الوقت نفسه بمصاعبه ومزاياه، بنجاحاته وفشله، وأنه يصدق فينا قول من قال: رب أخ لك لم تلده أمك».

حين مرض والدي مرضه الأخير القصير المفاجئ، جاء شاكر مصطفى ليزوره وهو على سرير المرض. كان والدي عاجزاً عن الكلام وشاكر مصطفى صامت لا يتكلم. نظر

بعينيه الحزينتين إلى والدي بحنان ثم مد راحته وربت بها على خده، وذهب دون أن يقول شيئاً. لعله كان يخشى أن يفضحه تهدج الصوت وأن تخونه دمعة لا بد أن تفر.

بعد ذلك بأيام، وفي مجلس العزاء بوفاة والدي، يذكر جميع الحاضرين كيف تهالك شاكر مصطفى بين أيدي الأصدقاء، وكيف سقط عند خروجه على الرصيف يعاني من أزمة قلبية استدعت تدخل سيارة الإسعاف التي حملته إلى المستشفى حيث توفي رحمه الله بعد ثلاثة أيام من وفاة والدي.

أهي مصادفة أن يولد الإثنان معًا ويرحلا عن الدنيا معًا؟ أم هي مسيرة صداقة قلّ نظيرها؟ رحيلهما المتزامن يبدو لي وكأنه مؤشر لنهاية لجيل لن يتكرر تميز بموسوعية المعرفة والدقة في الاختصاص. جيل عرف أبناؤه كيف يتنقلون بين مواطن الأدب والفنون والعلوم بسهولة ويسر، ينهلون من منابعها ما يغني معارفهم ويوسع مجالات المعرفة لديهم، ويربطون بين ملامحها ليستنبطوا منها سمات الحضارة.

****

نصير المظلومين في التاريخ

أديب اللجمي(*)

ولد شاكر مصطفى سنة ١٩٢١ في دمشق «من أسرة دون المتوسطة فأبوه كان بقالاً يرجو أن يرث ابنه دكانه الصغيرة، في ما كان أعمامه مزارعين يسكنون بستانًا غربي دمشق»، ولعله كان يحلم بينهم بالتقاط القمر واللحاق بالسنونو الخاطف» (بقلم شاكر مصطفى، كتبه بخط يده قبيل وفاته بمناسبة حفل تكريم كان يراد تنظيمه له).

ظهرت موهبته الأدبية منذ طفولته، وكان هو في المدرسة يلتهم الكتب الشائعة، ويحفظ من روائع الشعر العربي، وبخاصة شعر النضال في وجه الانتداب الفرنسي على سورية، وكان ينظمه في مختلف المناسبات شعراء سوريون مبدعون من أمثال عمر أبوريشة وبدوي الجبل وبدرالدين الحامد وغيرهم: «بلى كنت نهمًا في القراءة، أبتلع الرواية في جلسة أو جلستين، أتفكه بقصة وأنا أنتظر الغداء» (من كتابه: بين الأدب والتاريخ).

بعد نيله شهادة الدراسة الثانوية سنة ١٩٣٩ انتسب إلى مدرسة المعلمين بدمشق وتخرج فيها سنة ١٩٤٢.

أوفدته وزارة التربية السورية (وكان اسمها آنذاك وزارة المعارف) ببعثة دراسية إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة، انتسب فيها إلى قسم التاريخ وتخرج بشهادة إجازة في التاريخ سنة ١٩٤٥.

بين سنتي ١٩٤٥ – ١٩٥٥ عمل مدرسًا ثم مديرًا، لمدرسة المعلمين، ثم أمينًا عامًا لجامعة دمشق في أوائل الأربعينيات.

(*)معاون وزير الثقافة في سوريا سابقًا، ومستشار سابق للشؤون الثقافية لدى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وعضو اللجنة المكلفة وضع الخطة الشاملة للثقافة العربية.

وبين سنتي ١٩٥٦ – ١٩٦٣ عمل في السلك الدبلوماسي ممثلاً لسورية في السودان وكولومبيا والبرازيل، ثم أصبح مديرًا عامًا في وزارة الخارجية وفي سنة ١٩٦٥ سمي وزيرًا للإعلام.

غادر سورية واستقر في الكويت، ومارس التدريس لمادة التاريخ في جامعتها الناشئة سنة ١٩٦٦، وفي أثناء تدريسه أعد أطروحة أكاديمية موضوعها «مؤرخو العصر السلجوقي الأيوبي» نال بها شهادة دكتوراه في التاريخ من جامعة جنيف (سويسرا) سنة ١٩٧٠.

وفي سنة ١٩٨٢ عهدت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إلى لجنة تضم مجموعة من أعلام الثقافة العربية، رأسها عبدالعزيز حسين الوزير في دولة الكويت، ومهمتها وضع خطة شاملة للثقافة العربية، وكان شاكر مصطفى أمينًا عامًا لها.

امتد عمل اللجنة طوال المدة من ١٩٨٢ – ١٩٨٥ وشارك في تناول موضوعات الخطة حوالي ٦٠٠ خبير ومتخصص في مختلف فروع الثقافة في لقاءات مفتوحة وأبحاث موثقة، وقد اعتمدها مؤتمر وزراء الثقافة العرب.

انصرف شاكر مصطفى للكتابة في موضوعات تاريخية وأدبية، واستمر نشاطه الفكري والأدبي متميزًا على مدى خمسة وعشرين عامًا قضاها في الكويت حتى سنة ١٩٩٠، عاد بعدها إلى دمشق ليواصل التأليف والكتابة، حتى وافاه الأجل سنة ١٩٩٧.

السمة الأولى في مؤلفاته التاريخية هي أن أسلوبها مزيج من الأدب والتاريخ (الأدب والتاريخ صنوان... التاريخ مهنتي والأدب هواية عمري) (من كتابه: بين الأدب والتاريخ – ص١٦٨).

تناولت مؤلفاته تاريخ العرب من جوانب متعددة بعض هذه المؤلفات موسوعية مثل «موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها» وهي في أربعة مجلدات «التاريخ العربي والمؤرخون» وهو في أربعة مجلدات، إضافة إلى عشرات من الكتب والكتيبات التي بحثت في موضوعات محددة من التاريخ العربي.

مجموع هذه المؤلفات التاريخية تندرج تحت ما سماه المؤلف «الملحمة العربية الكبرى مع التاريخ» يبلغ عمرها حوالي ثلاثة آلاف سنة، تتجلّى في:

- ركن حضارة عربية في منطقة حائل.

- ركن حضارة في اليمن امتد أكثر من ألف ومائتي سنة، له لغته العربية وكتابته الخاصة ومعابد مشيدة وعلم وصل إلى التحنيط وقد عرف المسيحية واليهودية.

هناك قامت حضارة سبأ وحمير وقتبان.

- حضارة ثمود حول تيماء ومدين في أعالي الحجاز، تركت لنا ١٢ ألف نقش في الصخور ولها التجارة الواسعة مع اليمن والشام.

- المثلث الحضاري الضخم الممتد بين أقصى جنوب الشام وأعلى شمال العراق.

- قبل الميلاد وبعده، بمراكزه التجارية المشهورة: بطر الانباط، تدمر الزباء حضر في غربي الموصل.

- كان البطوريون ملوك (مجدل عين جر) في سهل البقاع، وآل شمس الكرام في حمص، وبنو الأبجر في الرها أو رفد في شرق الأناضول من ديار بكر في العهد الهلينستي.

- آل الجلندي في عمان يحملون التجارة للهند، وملوك كندة ما بين الأحساء وجنوب فلسطين، وكان المناذرة والغساسنة في جنوب العراق «الحيرة» وأواسط الشام «بصرى».

- وأخيرًا نهضة الجاهلية المظلومة التي أوصلت إلينا من لغاتها اللغة العربية القرشية مكتملة والشعر العربي تام الموسيقى والوزن والقافية، ومعابد الحج في مكة ونجران، والاتجاه للإله الواحد، واعتناق الأديان السماوية، وتنظيم أسواق التجارة السنوي، والرأي السياسي العربي الذي تجلّى في حروب الردة بين الحجاز ونجد واليمن وشمال الحجاز.

«من مجموع هذه الحضارات وعناصرها المتفاعلة، تكاملت في نهاية العصر الجاهلي، أواخر القرن السابع للميلاد عوامل ظهور عقيدة الإسلام، بعد طول إرهاص وتجارب، وتألقت الرسالة المحمدية. وكان عصر الرسالة بداية القدر التاريخي للعرب أجمعين» (من كتاب: على جناح طائر، ص١٤ - ١٥).

وانتشرت موضوعات شاكر مصطفى التاريخية والأدبية في كتب وكتيبات عن المغامرين والمنسيين والمكتشفين واليتامى والمظلومين في التاريخ «السفر في التاريخ متعة مرّة، والبحث عن المنسيين وقفة عدل وإنصاف» (من كتابه: المنسيون في التاريخ، ص١١).

والمظلومون في التاريخ كثيرون؛ فالحجاج بن يوسف الثقفي عرضه التاريخ على أنه «شيخ الظالمين ورئيس منظمة القمع والإرهاب» وأهمل التاريخ أن يبرز أن الحجاج كان أحد بلغاء العرب ولم يكن عبدًا للمادة. (كانت عمالته السنوية ٥٠٠ ألف درهم)، وبقي واليًا على المشرق كله من العراق إلى أقصى خراسان والسند، ولم يكن لديه عند موته سوى ٣٠٠ درهم.

والحجاج هو الذي عرّب الدولة في المشرق كله، عرّب الدواوين والنقود، وأمر بوضع اعجام الأحرف وتنقيطها ووضع الشكل للحركات.

ومن المظلومين في التاريخ كافور الإخشيدي حاكم مصر، شوه المتنبي سمعته لأنه لم يغدق عليه العطايا والمال والتكريم. وكان دافع كافور غير ذلك، إذ كان داهية تمكن من إقامة علاقات ودّ مع كل دولة الفاطميين في المغرب ودولة العباسيين في بغداد، وكانت كل منهما تحاول ضم مصر إليها.

وكان كافور متواضعًا، شديد التدين، كثير الصدقات، عميق الاحترام لآل البيت. كان يصلي صلاة الفجر بوضوء صلاة العشاء.

التاريخ العربي لم يستحوذ وحده على اهتمام شاكر مصطفى الفكري، إذ كان للواقع العربي نصيب كبير من هذا الاهتمام، لماذا تطورت أمم كثيرة وانفتحت على حضارة القرن العشرين، بينما بقيت الأمة العربية تراوح في مكانها؟ في دراسة مطولة قدمها شاكر مصطفى إلى ندوة نظمتها جمعية الخريجين بجامعة الكويت حول (أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي) سنة ١٩٧٤ تساءل الكاتب: «لماذا تطلب وفاق

العرب مع العصر كل هذا الوقت الطويل، ودون كبير جدوى؟ هذا السؤال المصيري النازف كالجرح في ضمير كل عربي ملتزم، إذا كان ما يزال يأخذ يومًا بعد يوم أبعادًا مأساوية متزايدة فلأنه قد مضت على ارتطام هذه الأمة بالحضارة الحديثة وبمعطياتها سنون بعيدة. كتلك الأقاليم العربية مضت عليها الفترة الزمنية الكافية لتكون في مستوى العصر وتكنولوجيته وفيضه الحضاري.. فهل وصلت الأمة حقًا مرحلة الشيخوخة، فهي إلى الإدبار والعقم الحضاري؟ أم أضاعت الطريق؟». (كتاب أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي، ص٣٦ - ٤٢ - جمعية الخريجين جامعة الكويت - ١٩٧٥).

ويرى الكاتب الأبعاد التاريخية لأزمة التطور الحضاري العربي تتمثل في عناصر أربعة أساسية، وهي:

أ - طرق الإنتاج المادي: كيفية ونوع العمل الاقتصادي وما يحمل من ثقل التاريخ.

ب - تكوين نظام السلطة: تاريخية التكوين السياسي القائم ونوع العلاقات بينه وبين الشعب.

ج - طبيعة العلاقات الاجتماعية: أسس التكوين الاجتماعي، الجنس والمرأة، الولاءات العائلية والعشائرية والطائفية، القيم الخلقية.

د - قيم الفكر التراثية: الإيديولوجية الفكرية - اللغة والتعبير.

المراجع

- لم يكتب حتى الآن عن شاكر مصطفى إلا القليل، وقد اعتمدت في كتابة هذه الكلمة عنه على صلتي اللصيقة به طوال سبع وخمسين سنة، وعلى نص مقتضب كتبه شاكر مصطفى بخط يده عن سيرة حياته لا يتجاوز خمس صفحات ونشر في كتاب: عبدالغني العطري: عبقريات - منشورات دار البشائر - دمشق ١٩٩٧.

****

شاكر مصطفى .. يصحح التاريخ

نصر الدين البحرة[*]

كان ذلك في خريف عام ١٩٥١، وكنت وقتها في الصف الأول من دار المعلمين الابتدائية، والأساتذة يتوالون دخولاً على صفنا واحدًا بعد الأخر، فنتعرف عليهم تباعًا.

دخل شاب ربعة، في وجهه وسامة، وفي هيئته أناقة واضحة. وقف أمام السبورة، وقال – وقد كست محياه مسحة من الجد واضحة: أنا سأدرسكم الجغرافيا، واسمي شاكر مصطفى.

في الليلة الفائتة، سهرت وأنا أقرأ في رواية، مستمرًا في ما كنت أفعله في ليالي ذلك الصيف، وقد غفوت والكتاب على صدري، لذلك فقد ندَّ عني تثاؤب في درس الجغرافيا لم أملك له دفعًا، فإذا شاكر مصطفى يوقف الدرس، فران هدوء ثقيل أجبرني على الانتباه، وعندئذ أشار نحوي وقال: أنت.. إذا كنت نعسان، فاذهب إلى بيتك.. ونم هناك لا في الصف.

شعرت بخجل كبير، واستأذنته في الكلام، فسمح، قلت: والله يا أستاذ درسك جميل، ولكني أنا سهرت أمس حتى وقت متأخر وأنا أقرأ.. فعفوًا.

هزَّ شاكر مصطفى رأسه في سماحة.. ولم يقل شيئًا..

كل الذين اشتغلوا في التعليم، يعرفون مكر التلاميذ وخبثهم، ويعلمون أنهم ينصبون شباكًا لأساتذتهم، ويدخلونهم منذ الدرس الأول في اختبار ولكن ذاك لم يكن فخًاً ولا اختبارًا لشاكر مصطفى. مصادفة خالصة عرفنا معها، ومع انتهاء ذلك الدرس،

(*) كاتب سوري وأحد طلبة د. شاكر مصطفى.

(عن صحيفة تشرين السورية، العدد (٦٨٩٦) ٢٨/٨/١٩٩٧).

أي أستاذ عظيم كان هذا الرجل. كانت السبورة لوحة فنية حقيقية، خطوط عربية مختلفة متقنة، أشكال توضيحية أنيقة ملونة، توازن لا يتقنه إلا فنان بين أجزاء السبورة المختلفة وكان يقتصد في الكتابة والرسم حتى تستوعب السبورة الدرس كله.

في تلك الأيام لم يكن شاكر مصطفى قد نشر أيّاً من كتبه.

في السنتين التاليتين درَّسنا شاكر مصطفى التاريخ العربي وتاريخ الحضارة العربية وتاريخ الحضارات.

صارت الدروس أكثر إمتاعًا لنا من دروس الجغرافيا، مع أن شاكر مصطفى لم يكن مقصِّرًا في جعلها نزهة للأرواح بين الأمصار والسماوات والغيوم.. بل إني لا أزال حتى الآن أحفظ أسماء عربية ذكرها تعريبًا لأسماء غربية لأنواع السحاب: الركام، الدلوح الطخرور.. الخ.

غير أن التاريخ كان الهوى الحقيقي في نفس الرجل، وهو لم يقدم لنا تاريخنا في أجمل صورة وأرقاها فحسب، بل علَّمنا ما يسمى «نقد الخبر الداخلي» وأفهمنا ألا نصدق كل ما نقرأ، إن كان متناقضًا في ذاته، أو متضاربًا مع مبادئ العقل. وقال لنا إن كثيرًا من المؤرخين لم ينخلوا أو يمحِّصوا الأخبار التي تلقوها، ونبهنا إلى أن زمنًا غير قصير بين بعض المؤرخين والأزمنة التي يتحدثون عنها، وفي ذلك ما قد يبعدهم، من هوى أو نقص في المعرفة، أو سوء في استدراك الخبر على اختلاف جوانبه، عن قول الحقيقة صافية سليمة.

ولا أزال أذكر حتى الآن تشكيكه في عدد من الأخبار التي تداولها عدد من المؤرخين العرب، دون أن يدرسوها أو ينقدوها، كي تستوي تمامًا، ويستطيع القارئ أن يأخذ فكرة عن منهج شاكر مصطفى في هذا المجال، إذ يقرأ كتاب «الأندلس في التاريخ» فهو يقول: «يتحدث المؤرخون عن عملية إحراق السفن التي جاء طارق بجنده عليها ليقطع أملهم في العودة، أو ليجعل العرب الذين لا يثقون به يؤمنون أنه جعل نفسه والبربر الذين معه أمام مصير واحد معهم. كما يتحدثون عن خطبته الأدبية الرائعة في رجاله...».

يقول الدكتور شاكر مصطفى معلقًا:

«تحوم الشكوك حول هذه الرواية كلها.. التي تشبه الخيال المسرحي، فقصة إحراق المراكب إنما رواها أول من رواها «الإدريسي» في «نزهة المشتاق» و«ابن الكردبوس» وهما في القرن السادس للهجرة، ثم رواها الحميري صاحب «الروض المعطار» بعدهما. فلماذا لم يذكرها المؤرخون السابقون على مدى خمسة قرون سابقة؟ والعملية نفسها تروى عن عدد من القادة الذين سبقوا طارقًا، كأرباض الحبشي الذي عبر البحر إلى اليمن، وعن القائد الفارسي الذي رافق سيف بن ذي يزن إلى اليمن، وعن الذين لحقوا به كأسد بن الفرات فاتح صقلية، والقائد الإسباني فاتح المكسيك كورتز وسفاحها..».

ويستطرد قائلاً: «ولماذا يحرق طارق السفن ولا يأمرها بالعودة إلى ساحل المغرب، ولا يوجد بينها وبينه إلا ساعتان في البحر؟ وكيف يحرق أسطولاً لا يملكه».

أما خطبة طارق فيصفها بأنها بليغة جميلة شائعة.. ولكن «من أين لابن زياد هذه البلاغة؟! وكيف يخاطب جندًا كانوا في جمهرتهم من البربر الذين لا يفقهون العربية».

عندما بدأنا عام ١٩٥٣ نقرأ مقالات شاكر مصطفى في مجلة «النقاد» الأسبوعية الدمشقية التي كان يشرف عليها الأستاذ سعيد الجزائري.. شعرنا بنكهة خاصة للكتابة الأنيقة والأسلوب الأدبي الرفيع المصفّى. الكلمة تنزل في مكانها، مثلما يصنع حفار الخشب الصناع أو الصائغ المعلم، إذ ينزل ذلك عاجًا في خشب، وإذ ينزل هذا جوهرًا في ذهب، وغمرنا زهو وفرح بالغان أن هذا الكاتب كان بالأمس القريب معلمنا.. فكيف لم نعرف حينذاك أنه هذا الكاتب الكبير؟

كان ذلك أواسط الخمسينيات..

بعد ذلك، راح شاكر مصطفى ينتقل في البلاد بين القارات والجهات الأربع، تارة يعمل في سفارة، وتارة يكتب تاريخ القصة في سورية، وتارة يحمل لقب الدكتوراه.. وأخرى يدرِّس في الكويت، ويساهم في إرساء نهضتها الثقافية.. إلى أن عاد بعد حرب الخليج، ليطوي قلوع مركبه، ويرسو عند شاطئ دمشق الأمين.

وقبل حوالي سنتين شرعت دار طلاس تنشر منتخبات من مؤلفات شاكر مصطفى، في الأدب والتاريخ... وبين الأدب والتاريخ، من حسن حظي أنها جميعًا زينت مكتبتي.. وقد خلتُ أن كتاب «اليتامى في التاريخ» وهو الثالث عشر للراحل»، هو آخرها.. ولكنني فوجئت قبل أيام قليلة بكتاب جديد له، هو «آل قدامة والصالحية» ولست أدري إن كان قد رآه قبل أن يغمض عينيه للمرة الأخيرة..

لقد عرفت شاكر مصطفى أستاذًا كبيرًا، وعرفته كاتبًا زميلاً، وعرفته صديقًا جميلاً، وعرفته وزيرًا متواضعًا.. فكان هو ذلك المفكر الموسوعي الملون، وذلك القلب الكبير الدافئ، وهذا الصدر الحنون الواسع.. وتلك الريشة المبدعة الأنيقة.. رحمه الله.

****

أنا والدكتور شاكر مصطفى

د. محمد سعيد رمضان البوطي(*)

من المألوف جدًا أن تنعقد صداقة بينك وبين آخرين على إثر خير أو معونة نالتك منه أو نالته منك، أو إثر لقاء فكري مشترك جمع بينكما، فمثل هذا أساس ومنطق مألوف لانعقاد الصداقات وسريان مشاعر الأنس والود بين الأشخاص.

ولكن من غير المألوف، ربما، أن تأتي الصداقة متنامية على إثر استنكار لموقف، أو من وراء مقاومة لأفكار!.. غير أن هذا الذي ليس بمألوف قد يقع.. ولكأنه من صور الجدلية التي يؤكدها الماديون؛ إذ ينبثق النقيض من النقيض.

لقد كانت علاقتي مع الدكتور شاكر مصطفى رحمه الله، في فجر معرفتي له، علاقة استنكار لأفكاره واتهام لمواقفه، ولقد تمثل ذلك في الكتيب الذي أصدرته في أوائل الستينيات من القرن الماضي ردّاً عليه.. ثم مرّت الأيام وتطورت الأحوال، ازداد الدكتور شاكر مصطفى خلالها نضجًا وعمقًا في اختصاصه التاريخي، واتجه في دراساته وأعماله الفكرية إلى نهج، بل إلى هدف متميز، هو الكشف عن خفايا ايجابية في حياة كثيرين من رجال التاريخ ورموزه، أنصف بذلك كثيرًا من ظُلموا منهم، إذ لم تتحرك أقلام الكاتبين عنهم إلا بالخوض في نقائصهم، دون التفات الى ما هو موجود في مقابل ذلك من الكمالات الفكرية والسلوكية والإنسانية في حياتهم. وهكذا فقد سخّر الدكتور شاكر فكره وقلمه في النصف الثاني من حياته لإنصاف الذين ظلمهم التاريخ وأسدل ستارًا من النسيان على مزاياهم.

فهذا شيء...، وشيء ثانٍ يجب أن أنتهز هذه المناسبة لتسجيله.. لقد جمعتني بالدكتور شاكر مصطفى خلال النصف الثاني من حياته، أنشطة ثقافية في الكويت وفي

(*) عميد كلية الشريعة - جامعة دمشق.

مصر، ثم في دمشق، فلم يظهر لي من شعوره تجاهي إلا مظاهر الود والتقدير، ولم تتفتح بيني وبينه إلا سبل التعاون الفكري والثقافي.. لم يواجهني بأي عتاب مباشر أو غير مباشر، في أي مناسبة، لردّي الذي لم يخلُ من القسوة على كثير مما جاء في كتابه عن التاريخ الأموي.

وأهم من هذا، أخلاقه المترفعة التي هي شأن العلماء الذين يذهبون في تقديس العلم والنقد العلمي مذهبًا يفكرون فيه ذاتيتهم وحظوظهم الفكرية، في سبيل الوصول إلى معرفة الحق، أيّاً كانت الأدوات الموصلة له، وأيّاً كان الشخص الهادي إليه.

رحم الله الدكتور شاكر مصطفى، فقد قضى جلّ عمره نصيرًا لرجال ظلمهم التاريخ، ثم لم يلتفت الى ظُلامتهم أحد.. أعاد منهج الدراسة التاريخية إلى كفَّتي ميزانه العدل، وما أظن إلا أن ذلك سيكون خير شفيع له بين يدي رب العالمين يوم القيامة.

****

مفكر عذب

د. صباح قباني(*)

حين تسمع صوته الخافت الخجول في حديث إذاعي أو محاضرة مسائية، وحين تقرأ كتبه الصغيرة المنمنمة، تظنك أمام مختص في الفلسفة أو الأدب، ولكنك تسأل.. فيبتسمون ويقولون: «شاكر؟ إنه أستاذ تاريخ».

مفكر عذب ورقيق، يقدم لك أضخم المسائل الفكرية وأعصاها على الإفهام بلغة بسيطة حلوة ورشيقة حتى لكأنها الشعر الحلال.

إنه لا يكلمك، ولكنه يهمس في سمعك همسات صغيرة متواضعة سرعان ما تكتشف أن وراءها عقلاً جبارًا وثقافة أدبية وتاريخية متألقة.

وتجدك حائرًا متسائلاً: «هل هذا الذي أسمع وأقرأ هو أديب أم مؤرخ؟» بل إن شاكر مصطفى نفسه هو الذي يتساءل مثلك في بعض ما كتب: «هل كان عملي طول حياتي في التاريخ أم في الأدب؟» ولكنه سرعان ما يجيب ويقول: «التاريخ هو مهنتي، والأدب هو هواية عمري».

ومن هنا جاءت كتبه في التاريخ قطعًا أدبية لا أجمل ولا أعذب، فإذا بالشخصيات التاريخية التي يحدثك عنها تتحول بقلمه البارع إلى شخوص روايات وملاحم يتحركون أمامك وكأنهم يتحركون على مسرح، بل إنه أعاد كتابة أجزاء من التاريخ برؤية غير التي نعرف، وبذلك تغيّر فهمنا لأحداث ووقائع كثيرة كانت عندنا من قبل من المسلّمات، فقد كتب مثلاً عن المظلومين في التاريخ ليرفع عنهم الافتراء المجحف الذي جعلهم في أعيننا إما مجانين أو بخلاء أو حمقى أو سفاحين، ولكن حين اعتمد شاكر النص الموثق غيّر

(*) كاتب وأديب وسفير سابق.

صورة هؤلاء وأصبحوا، بفضل قلمه المدقق والموضوعي، أهل علم وكرم وعدل وتقوى، فمنهم كان: الحجاج، وكافور، وقراقوش، والحاكم بأمر الله... وغيرهم كثيرون كثيرون.

وتعتبر مقالته التي كانت بعنوان: «هل هناك حقّاً أدب مهجري؟» من أهم ما كتب في هذا السياق، فقد نسف أكذوبة هذه التسمية من جذورها بعد أن عاش في البرازيل خمس سنوات وشاهد بأم العين طبيعتها الموحشة، وغاباتها المظلمة، وأدغالها المرعبة التي تسكنها الوحوش الضواري والأفاعي الضخمة وأسماك الأمازون المفترسة! ففي هذه الطبيعة البدائية عانى المهجريون العرب الأوائل، وضاع أكثرهم في براريها اللانهائية، وأكلت صخورها المدببة من أجسادهم وهم يلهثون وراء الرغيف، ولا رغيف، تفترسهم الملاريا، ويفتك بهم النمل الوحشي القاتل، وتغتالهم سهام هنود الغابات.

وسمع شاكر ممَّن بقي منهم ملاحم عذاباتهم وما عانوا في ذلك المصهر الاستوائي، فتذكّر أنه لم يجد أثرًا لكل ما رأى وسمع في ما سُمّي بالأدب المهجري، وكأن الأدب المهجري كتب ما كتب وكأنه لا يزال جالسًا في قريته الوادعة في الوطن الأم أو يتنعم بنسائم البردوني في زحلة!

وهكذا فإنك عندما تقرأ التاريخ على يد شاكر مصطفى ستجدك دائمًا في حضرة الأديب المتألق.

****

غزارة العلم وصدق العقيدة

عصام الحلبي[*]

تمر الآن الذكرى السنوية السادسة لوفاة المؤرخ العربي الكبير والأديب اللامع ومربي الأجيال الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى رحمه الله، ولقد يحار واحد مثلي كيف سيؤبن هذا الرجل العظيم في أسطر معدودة، إلا أنني ومن باب الوفاء لهذا الأستاذ الكبير سأبحث في أشتات مجتمعات في هذه السطور علّي أوفيه حقه في الذكرى والتذكار.

يقول الكاتب الأمريكي وندل هولمز: إن الإنسان، أي إنسان بلا استثناء، إنما هو ثلاثة أشخاص في صورة واحدة... الإنسان كما خلقه الله، والإنسان كما يراه الناس، والإنسان كما يرى هو نفسه... فيا ترى مَن مِن هؤلاء الأشخاص الثلاثة كان شاكر مصطفى؟

أما شاكر مصطفى كما خلقه الله فهذا أمر ليس في مجال الحوار ألبتة، والله تعالى أعلم بذلك منا. (إن الله عليم بذات الصدور).

وأما شاكر مصطفى كما يراه الناس فأنا أزعم أنني ما لقيت أحدًا من الناس إلا وكان محبّاً ومبجّلاً لهذا العالم الجليل، ولا يختلف اثنان في أن فقيدنا قد ترك تراثًا أدبيّاً وفكريّاً وعلميّاً يكاد يفوق حد التصور، وقد أغنى المكتبة العربية وخصوصًا علم التاريخ بفيض من نتاجه وعلمه، فغدا بذلك واحدًا من أعلام الفكر العربي المعاصر في هذا القرن ولقرون عدّة مقبلة، وواحدًا من سدنة الثقافة العربية، وقد عاش حياته وعلمه على رؤوس الأشهاد حاملاً لمفاتيح العلم ومُيسِّره للناس، وقد جمع من الصفات الجليلة في غزارة العلم وصدق العقيدة، ونبل المقصد، والوطنية الحقيقية الصادقة مع تواضع العالم والترفع عن زخرف الدنيا وصغائر الأمور في مظاهر بالية ليس لها من قيمة أو وزن عنده.

(*) شاعر سوري - رافق الراحل بعد عودته من الكويت إلى دمشق في ١٩٩٠.
(محاضرة ألقاها الشاعر عصام الحلبي في الذكرى السادسة لرحيل د. شاكر مصطفى) عام ٢٠٠٢م وقدمها لنا من أجل هذا الكتاب.

ولعله – رحمه الله – بفكره الثاقب والشامل كان يرى مستقبل الأجيال العربية المقبلة وكذلك مستقبل الأمة بأكملها، لا يمكن أن يكون باهرًا ومستقرًا بين الأمم الأخرى إلا بالعلم والثقافة والتكنولوجيا، والدأب على ممارسة البحث العلمي... ألم يكن تاريخ العرب التليد كذلك!

أعود إلى هولز فأقول: وأما شاكر مصطفى كما يرى هو نفسه فهذا هو الأمر الذي سأتحدث فيه الآن ليطلع من يعلم ومن لا يعلم على بعض جوانبه عسى أن ننفع بهذا العلم والله أعلم..

أستذكر الآن مقدمة الكلمة التي كان سيلقيها شاكر مصطفى في حفل تكريمه الذي كان قد نظم له الأستاذ الشاعر مدحت عكاش مدير مجلة الثقافة في يوم السادس من آب من العام المنصرم وقد وافاه الأجل قبل ذلك بأسبوعين، كتب يقول: في حكايا الصين أن الإمبراطور لي هيو أراد منح وزيره الذي خدمه خمسين سنة، جائزة، هي أن يحمل لقب «العقل الأسمى» ورجاه الوزير أن يؤجل اللقب سنة واحدة ليتحرّى بين الناس استحقاقه لهذا اللقب. ووافق الإمبراطور، لكن لم تمض ثلاثة أيام حتى عاد الوزير منهكًا يرجو إمبراطوره إعفاءه من هذا اللقب الفضفاض ومن أي لقب آخر قال:

– سيدي! لا أستحق أي لقب!.. ليس للحقيقة وجه واحد، ولقد تحققت ظلمي بعيني. حكمت بإعدام أناس، فإذا بي أحكم على أطفالهم بالموت جوعًا، وحكمت بالسجن على أناس، ولم أذق مرارة الوحدة في الظلام، وحكمت بجلد الآلاف، فلّما ذقت السوط الأول من العقوبة ذهبت روحي بددًا. فأنا ظالم ظالم ومزيف بسمعتي، ولعل مراحمك تعفيني.

– إذن فماذا تريد أيها الوزير الكبير؟

– أن أكون خادمًا للكهنة في معبد تسو البعيد.

فقال الإمبراطور: عرفت ذلك قبل أن تقوله، إنك لا تريد أن تكون العقل الأسمى ولكن تريد أن تكون الإنسان الحر! فاذهب!

وهذه حكايتي معكم فقد تمنيت على أخي الأستاذ مدحت عكاش أن يتركني كويهنًا في المعبد القصي لا يأتي عليه إلا الظباء والوحش وبنات الطير وبعض الزنابق والزهر

والطيوف مع ظلمة الغاب! وأردتم أنتم أيها الإخوة والأحباب والتلامذة القدامى أن توقفوني موقفًا يغسلني بالخجل وما وقفته أبدًا في حياتي قبل اليوم ولا ألجم لساني العيي كما ألجم اليوم، فأنا أتعثر بالحروف الأبجدية مع أني ابن المنابر منذ أربعين سنة.

كلمات الثناء التي نثرت كأزهار اللؤلؤ فوق رأسي وملأت البساط حولي وحولكم أعترف أنها كانت تخزني، تحزنني. تكشف مدى قصر قامتي.

وأعترف لكم مخلصًا أني كنت عند كل كلمة أسمعها أحسب أنها تعني غيري.. وحين أنتبه أنها تعنيني أذوب في مقعدي ويغيب كل شيء عني إلا الدموع!.

هكذا يعرِّف عن نفسه هذا الأديب المتميز الذي جعل الكلمة مطواعة بين أنامله يحركها ويضعها كيف يشاء والمؤرخ العبقري الذي درس التاريخ عن حب وولع، فاستطاع أن يحفظه ويختزنه في مشاعره وبين جوانحه، فيحلل ما اختزن في صدره على واقع ما يجري في أيامنا هذه، لننهل منه معينًا ثرّاً غنيّاً بالتجارب والحِكم.

شاكر مصطفى ابن حي الصالحية، هذا العملاق الذي أنجبته هذه المدينة العملاقة دمشق ولّادة العظماء والأدباء والشعراء.

في محاضرة له (خبر من الصالحية) بدأها بالمقولة التالية:

«يقولون عن أفلاطون الفيلسوف العتيق أنه حين افتتح مدرسة الـ EECYL في أثينا كتب على بابها من لم يكن مهندسًا فلا يدخل علينا! وأقول لكم سلفًا من لم يعرف شيئًا عن الصالحية فلا يدخل علينا، سيفترسه الملل، فسوف أتحدث عنها وأنا ابنها بالوريد المربوط برباط القلب منذ الطفولة.. ويقول عن معشوقته دمشق:

«لعل أحدًا منكم لم تفته معرفة الأسطورة الشائعة عن طائر الفينيق الذي يحترق عند المساء لينتفض من جديد مع مطلع الصباح، ولا يجهل أحد قولة المتنبي، جبار الكبر والعنفوان:

كم قد قُتِلتُ وكَمْ قد متُّ عندكمُ

ثم انتَفضتُ فزالَ القبرُ والكفنُ

هناك ندٌّ ثالث لهذا الذي يموت ليحيا، إنه أنتم، بلى، أنتم دمشق الخالدة. دمشق ليست مساكن وغوطة وظلالاً من ندى وأقاح، ولكنها بشر يتجددون ويجددون معهم شباب دمشق جيلاً بعد جيل» إنها دمشق التي تقول على مرّ الأيام:

هذه أنا دمشق عميدة المدائن، حكايتي التي رويتها في صور ممزقة، وجدت فيها نفسي ولون عيني، وجدت أني ما اعتديت أبدًا، فالعطاء عندي هو الأبقى، وأبدًا ما أخرجت القادة المدمرين وإن أخرجت المدافعين وبناة الحضارة الإنسانية، أبدًا ما يئست فالغد عندي على الدوام موعد مجنح. قد يكون الدرس الأعمق الذي تعلمت في دهري الأطول لا يزيد على كلمة واحدة هي التفاؤل، الإيمان بالحياة وبأنها أقوى من الموت، وبأن الشدائد لا يمكن أن تدوم إلى الأبد، أبدًا لا تدوم إلى الأبد. شيء واحد كتمته عنكم هوى سري الخاص الدفين، لغزي الذي تقوم دونه سبعة بحور.. هل أعلنته أم لا يزال سرّاً في صدري؟؟.. لست أدري».

ولد الدكتور شاكر مصطفى في دمشق في الأول من آذار ١٩٢١ وتلقى علومه في مكتب عنبر والمدرسة التجهيزية ودار المعلمين الابتدائية والعليا بدمشق حتى عام ١٩٤١، وهنا لا بد من التنويه إلى أنه قد نجح بتفوق في الشهادة الثانوية وكان ترتيبه الأول بين الطلاب كافة في ذلك العام، وأقيم له حفل خاص بمناسبة تفوقه ودُعي إلى الحفل والده، وقدمت له مجموعة من الكتب تكريمًا له على جهوده.

أتم دراسته الجامعية في مصر وحصل على شهادة الليسانس في التاريخ عام ١٩٤٥، ثم أتم رسالة الدكتوراه في جامعة جنيف في سويسرا عام ١٩٧٠.

وتقلب في وظائف التعليم والتدريس وتربية الأجيال إلى أن أصبح أمينًا عامًا للجامعة السورية بين عامي ١٩٤٥ – ١٩٥٥، ثم مستشارًا ثقافياً في السفارة السورية في مصر عام ١٩٥٦ – ١٩٥٨، نقل بعدها إلى وزارة الخارجية فصار القائم بالأعمال في السفارة السورية في السودان عام ١٩٥٨، ثم مستشارًا في سفارة الجمهورية العربية المتحدة في كولومبيا عام ١٩٦١، فقنصلاً عامًا في البرازيل (١٩٦١ – ١٩٦٣) وبعد ذلك شغل منصب المدير العام للسياسة الخارجية في وزارة الخارجية وبين عامي ١٩٦٥ – ١٩٦٦ سمي وزيرًا للإعلام.

وفي عام ١٩٦٦ وصل إلى الكويت بدعوة من الشيخ المرحوم جابر العلي الصباح وبقي في ضيافة حكومة الكويت لمدة ستة أشهر، ومنذ ذلك الحين وحتى أوائل السبعينيات كان المتحدث الرسمي باسم مجلس الأمة الكويتي، وتصادف الأقدار افتتاح جامعة الكويت، وبدأ بإلقاء المحاضرات في كلية الآداب قسم التاريخ وقد شارك في تأسيس هذه الكلية في جامعة الكويت وأصبح أستاذًا في الكلية المذكورة منذ عام ١٩٧٤ ثم رئيسًا لقسم التاريخ فعميدًا مساعدًا لكلية الآداب، وفي عام ١٩٨٢ رشحته الكويت لمنصب أمين عام لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية في جامعة الدول العربية.

وفي عام ١٩٩٠ عاد إلى سوريا ليستقر له فيها المقام حتى نهاية عام ١٩٩٧ حيث انتقل إلى الرفيق الأعلى، ودفن في سفح جبل قاسيون بتاريخ ٢ آب ١٩٩٧.

في خضم هذه الحياة الحافلة بالنشاط والعطاء العلمي والاجتماعي والفكري أصدر شاكر مصطفى مجموعة من المؤلفات أغنت المكتبة العربية بأكثر من ٧٠ عنوانًا بين كتاب ومجلد وموسوعة.

ودعوني أيها السيدات والسادة أتحدث بإيجاز عن موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، إنها إعجاز لا يستطيع أن يقوم به واحد من الرجال، إنه عمل يتطلب أن تقوم له مجموعة من العلماء والأدباء، قام به شاكر مصطفى لوحده وبصمت، وتعتبر هذه الموسوعة مرجعًا أساسيًا لدارس التاريخ الإسلامي منذ طوالع البعثة المحمدية وحتى بداية هذا القرن.

وأصدر أيضًا رحمه الله مجموعة أوراق من التاريخ – وهي عبارة عن كتيبات صغيرة بحثت في مواضيع تتعلق باليتامى والمظلومين والمنسيين والمغامرين في التاريخ، وترى في هذه الكتب الصغيرة إن شئت، معلومات رائعة وأحيانًا مخالفة لما اعتادت الأذن سماعه بالتواتر.

كتب لي رحمه الله رسالة صغيرة من الكويت يقول فيها:

«وصلت الكويت في حرٍّ يكاد المرء فيه يخرج من جلده وفي رطوبة تبلغ منها الروح الحناجر، وتمنيت لو بقيت في مستقري بدمشق لا سفر ولا من يسافر.. ليت.. وهل تنفع

شيئًا ليت؟ ولكنهم الأولاد... فإذا كان الأولاد مجبنة مبخلة فهم أيضًا مشغلة، نجرجرهم وراءنا أول العمر ويجروننا وراءهم في آخره، وهكذا فواحدنا أبدًا جار ومجرور.. والمجرور دائمًا مكسور ونحن ننكسر في آخره العمر برغمنا».

وبعد، أتراني أتيت على بعض من مواقف هذا العالم الكبير! لا لم آتِ على شيء، إنه غيض من فيض والباحث في علم شاكر مصطفى قد تلزمه سنوات وسنوات ليخرج بالقليل القليل من هذا البحر الزاخر وهذا المعين الذي لا ينضب... وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.

****

والدي شاكر مصطفى... كما عرفته

حكم شاكر مصطفى(*)

جميل... وأنت في غمرة البرد أن تشعر بالدفء بقلبك وجوارحك..

جميل.. وأنت متعب من أعباء العمل والمسؤوليات أن تبلغ ما يسعدك ويريحك..

جميل وأنت بين عكفة هنا ومنحنى هناك أن ترى الضوء على مدى نظرك..

هذا ما حدث في يوم من أيام شهر يناير لسنة ٢٠٠٩ حين تلقيت اتصالاً هاتفيّاً من الأستاذ عدنان فرزات ولم يكن لي معه سابق معرفة من قبل، ليبدأ هو المكالمة بأسلوبه الراقي: «أتحدث باسم مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، وقد كلفني الأمين العام الأستاذ عبدالعزيز السريع إبلاغك قرار مؤسسة الجائزة إصدار كتاب عن والدك الدكتور شاكر مصطفى بمناسبة الاحتفال بمرور عشرين عامًا على إنشاء المؤسسة».

شكرت الأستاذ عدنان على هذه المبادرة التي لاقت عندي كل التقدير والصدى الطيب، وحمّلته تحياتي وشكري للأستاذ عبدالعزيز سعود البابطين، وأبلغته رغبتي لقاء السيد البابطين شخصيّاً للتعرف إليه عن قرب، وللتعرف على رجل عرف عنه كرم الخلق واليد وبذله لكل غالٍ لرفعة الثقافة العربية، ودعمه المتواصل للشعراء والأدباء على مساحة الوطن العربي.

أنهيت المكالمة، بعدها قلت لنفسي، جميل أن صرحًا ثقافيّاً مثل مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري يُقدِم على تكريم والدي بعد رحيله باثني عشر عامًا، لا أخفيكم! فهذا هو الجزء المشوق من المكالمة، أما طلبهم مني الكتابة عن والدي

(*) نجل الراحل شاكر مصطفى (كتب المقالة في ٢٨/٥/٢٠٠٩).

مقالة لنشرها في الكتاب، جعل الأفكار تدور في رأسي كما يدور راقص (الميلوية) على الحلبة.

كيف وأنا لم أكتب مقالة أدبية واحدة في حياتي، وعن من؟ عن والدي! وهو ليس بالرجل العادي، فشاكر مصطفى يعرفه أكبر الأدباء والشعراء بالوطن العربي، وهو صاحب القلم الذي يقطر منه الورد حين يكتب، وكيف لي اختصار إبداعه على مدى ستة وخمسين عامًا في صفحات لا تتعدى أصابع اليد، وأخذت هذه الحالة مني الأيام بل الأسابيع، إلى يوم جلست فيه وسرحت مع أفكاري، وإذا بوالدي يجلس أمامي ويقول لي ما بك؟ اكتب عني فأنت أقرب الناس إليَّ وأكثرهم معرفة عني، حكم، سأخفف عنك قلقك استمر أنت في استرخائك ودعني أنا شاكر مصطفى أبدأ الحديث معك، وسأجعله بيني وبينك لكن بصوت عالٍ.

فأنا شاكر بن أحمد مصطفى صالح دبس ولبن، ولدت بدمشق في آذار لسنة ١٩٢١ لأسرة متوسطة الحال، وكنت الابن الأكبر بين أخواتي، أمي سيدة شامية من أسرة المارديني، وأبي رجل من أهل الصالحية بجذوره الممتدة على جبل قاسيون المتأبطة لإحدى روافد بردى والمستقرة في حي الشيخ محيي الدين، أبي الحاج أحمد مصطفى كان مختار الحارة وله دكان لبيع الحبوب والبقول، عرف بالأمانة والصدق وشدة التدين والطبع، غير أن شخصية أبي الحاج أحمد كان لها أثرٌ كبيرٌ في منهج حياتي وشخصيتي، فأنا من شدته استخلصت الرحمة، وهذا كان جليّاً في أول سنوات حياتي العملية، عندما بدأت التدريس الابتدائي وصفني أحد أصدقائي بالأب الرؤوف لتلاميذي لكثرة ما كنت أحن وأصبر عليهم، ومن تديني عرفت الاتزان ورجاحة العقل، فلقد ناديت بالبعد عن التعصب الديني وطالبت بجعل الدين منهجًا ونظامًا بدلاً من خطب عصماء، وحوربت كثيرًا من المشايخ وخطباء المساجد خاصة عندما عينت في الخمسينيات من القرن الماضي مديرًا للإذاعة في سورية، وأذكر منهم فضيلة الشيخ علي الطنطاوي، فعلى الرغم من أن كلانا قد ترك سورية فيما بعد، أنا إلى الكويت والشيخ الطنطاوي إلى السعودية، والخلاف في الرأي فيما بيننا ما زال قائمًا، إلا أن الشيخ الطنطاوي عندما أصدر مذكراته في كتاب أرسله مع كلمات معبرة عن مشاعر راقية مفادها رجاحة ما كنت أنادي به، وإذا

ما تذكرت أمانة وصدق والدي الحاج أحمد أيقنت أن الأمانة والصدق ما هي إلا الحقيقة والحقيقة لا غير، وهذا كان منهاج حياتي في جميع المجالات سواء أكانت السياسية أو التعليمية أو الاجتماعية أو غيرها.

والدي آسف لمقاطعتك: ولكن هنالك الكثير ممن يسألني عن شاكر مصطفى وهل شاكر أديبًا أم مؤرخًا أم أستاذًا جامعيّاً.. أم هو سياسي .. أم كان فنانًا وشاعرًا ورسامًا، وكيف كان الابن والأخ والحبيب والزوج والوالد والجد. ضحك في وجهي وقال: كنت كل هؤلاء: فأنا أتقلب من حال إلى حال كعازف يلعب على قيثارته، فهو ينتقل بين الأوتار ليسمعك أجمل ألحانه، وأنا كذلك، فلقد انخرطت بالسياسة في مقتبل العمر حين كانت الأمة العربية تحت الاحتلال وتبحث عن الاستقلال والحرية، وتركتها إلى التدريس بجامعة الكويت عندما شعرت أن العلم سلاح الأمم، واتجهت إلى الثقافة لاقتناعي أن الغزو القادم ليس عسكريّاً، بل ثقافي اجتماعي واقتصادي، وبين كل هذا فالأدب والقراءة والكتابة والشعر هي غذائي الذي من دونه لا أشعر أنني قادر على مواجهة الحياة بظروفها الصعبة.

فأنا مثل الشام التي عشقتها حتى النخاع، والتي تجري مجرى الدم في عروقي، فتارة أكون شاعرًا وأطير عصفورًا في حارتاها متنقلاً بين أشجار الفل والياسمين، وتارة عاشقًا لكل ما هو حولي مثل رائحة الزهور في ربيع الغوطة، وتارة أخرى سياسيّاً شامخًا كجبل قاسيون، ومرة سلسًا متدفقًا كمياه بردى عندما أجلس بين الأهل والأحباب، أو منفتحًا كما تنفتح الشام على أقاصي الدنيا عندما أنهل من العلوم.. فها هي الشام بحالاتها لا تتغير لكنها تعطي كل عاشق جرعة عشق ليبقى أسيرًا لها، فالشام مني وأنا منها.

والدي.. سأقاطعك مرة أخرى لأحدثك عن بعض ما عرفته عنك، فهي فرصة قلّما تتكرر.

فأنت من عرَّفني أن الوصول إلى الغاية ليس دونها إلا الهلاك، وأن المجد يصنع بالعزم والإرادة، فلقد أخبرتني يومًا كيف كافحت إبان الحرب العالمية الثانية حتى تنال شهادة البكالوريا، وكيف أرغمتك الظروف لنسخ جميع كتب المنهج الدراسي، وكيف أنهيت عامك بتفوق وحصلت على بعثة للدراسة بجامعة القاهرة.

وعرفت منك أن الإنسان هو من يحدد مكانه على خارطة الحياة، وإلا فالرحيل أفضل من البقاء في الظل، وهذا كان خيارك عندما تركت العمل السياسي واتجهت إلى عشقك الأبدي الكتابة، إلى حين توقف قلمك وخلد ذكرك في كتاباتك.

كما عرفت عنك كيف كان وقع الألقاب والأسماء عليك، وكيف كان لكل منها مكانة في وجدانك وتاريخك دون منافسة أو نـزاع.. فتارة أنت شاكر بك بين رفاق العمل السياسي.. وتارة أخرى أنت أحلى شاكر حين يناديك نزار قباني، وأخرى أخي شاكر عندما تسمعها من رفيق حياتك الأستاذ نجاة قصاب حسن، كما كان طلبتك ينادونك الدكتور شاكر، وأصدقاؤك وأحباؤك يلقبونك بأبي الحكم، وزوجتك الغالية هذه السيدة الفاضلة هي وحدها من يناديك بحبيبي شاكر، ولن أسألك ما أحب الألقاب إلى قلبك أو أقربها لنفسك، سأترك هذا السر يكتشفه كل من أحبك أو عرفك.

كذلك أتذكر كيف كنت تتألم لكل وجع عربي بدءًا من ضياع فلسطين إلى الحروب الأهلية إلى غزو الكويت إلى فرقة الكلمة والاختباء وراء القوميات والطوائف.. إلى غيرها من ضعف وتشرذم واختفاء ملامح هويتنا العربية، لكن مع كل هذا لم أعرف عنك يومًا أنك فقدت الأمل في انبعاث الشعوب، لذلك بقيت تقاتل بكتابتك لتسجل واقع آتٍ.

كما شهدت عيني كيف بكت دمشق كلها عندما ألقيت محاضرتك «دمشق إن حكت» بمكتبة الأسد في افتتاح معرض الكتاب ١٩٩١، وكيف غصّت الشوارع بالحضور، وعرفت بل أيقنت أن دمشق وأهلها حتى الشباب منهم لم ينسوك وكانوا جميعًا بانتظار ابنهم العائد لهم بعد طول غياب.

وتابعتك على مدى سنوات طوال من خلال تقديمك البرامج السياسية والثقافية في إذاعة وتلفزيون الكويت، وأذكر منها البرنامج التلفزيوني (اعرف عدوك) والبرنامج الإذاعي (خاطرة شاكر مصطفى) والذي استمر بثه لمدة ثلاثة عشر عامًا في شهر رمضان يوميّاً، وكيف استطعت أن تحقق من خلالهما ولو لدقائق قليلة حلمك بالوحدة العربية، فلقد كان كل من يعرف أنني أبنك يسألني: هل شاكر مصطفى كويتي؟ مصري، سوري؟ فلسطيني عراقي؟ لبناني؟ وكانت الإجابة دائمًا شاكر مصطفى عربيّ عربيّ.

والدي.. عرفت عنك الكثير، لكنني أيضًا تعلمت منك الكثير الكثير، فأنت مدرسي وموجهي ومثلي الأعلى، وأنت مفخرة لكل ابن، ولكن.. أود أن أبوح لك ببعض أجمل ما تعلمته..

تعلمت منك أن تعيش دائمًا صقرًا على قمم الجبال على أن تعيش عصفورًا في قفص ذهبي، ولمست هذا في جميع تفاصيل حياتك، فلقد كنت تكره التبعية وتحرص دائمًا على أن تكون ندًّا في المكانة والاحترام.

وعلمتني أن العمل ليس فقط وسيلة للقمة العيش، إنما هو شرف كبير، فلا أذكر يومًا أنك وقفت في باب أحد طالبًا فضله، بل كان دائمًا علمك وعملك هما الوسيلة. وكيف كانت عندك الكلمة حقيقة، والقلم سلاحًا والطيبة ليست ضعفًا بل هي القوة لمواجهة الطغيان.. وكيف يجب أن تكون صلبًا في وجه قسوة الحياة حتى تحقيق غايتك، فما أصعب الانكسار.

وأنت من علّمني أن الكريم حدوده السماء السابعة، وبابك يجب أن يبقى مفتوحًا لكل آتٍ دون انتظار رد الجميل من أحد، فلقد كنت مقتنعًا دائمًا بأن الله أكرم الأكرمين.

كما تعلمت منك السماحة... وتعلمت منك الابتسامة... وتعلمت منك المحبة.. وتعلمت منك عدم نكران الجميل.... وتعلمت منك اللهفة لإغاثة السائل... وتعلمت منك الصبر.. الصبر.. الصبر، كم كنت صبورًا.. وتعلمت منك..... وتعلمت منك... وتعلمت منك...

فسأتوقف هنا، فهذا الحديث بيني وبينك، وحديثي معك لا ينتهي.. وسأقتبس من شاعرنا الكبير نزار قباني بعض كلماته من «أغنية إلى شاكر مصطفى» التي ختم فيها مقدمة كتابك «بيني وبينك» في ١٩٥٤/١١/١٠ حيث كتب: «**أنا أحب شاكر مصطفى، وهذه الأغنية التي كتبتها له ليست مقدمة وإنما دعوة إلى حبه**». وأنا أكررها ثانية «**أنا أحب شاكر مصطفى وهذه المقالة التي كتبتها له ليست كلمات في ذكرها وإنما دعوة إلى حبه**».

****

يا من علّمني الحب

د. كندة شاكر مصطفى[*]

لا يمر يوم دون أن أذكرك.. فبالرغم من مرور إحدى عشرة سنة على فقدك فإني لا أزال أفتقدك، كأنه اليوم، وتغمر الدموع عينيّ عندما تمر بخاطري، ويبكيني فرحًا وفاء أحد تلاميذك أو محبيك (وهم مرضاي) لك ولذكراك الطيبة.

يا من علّمني الحب من دون كلام. وعلمني الصبر، وعلمني المثابرة حتى بلوغ الغاية، وعلمني التواضع وحب الناس وحب الخير، علّمني كل المعاني الحلوة من غير توجيه، بل بالقدوة، كان لا يتكلم كثيرًا.. لكننا كنا نراه كبيرًا.. مثلاً.. مثلاً لنا في كل شيء.. نراقبه ونقتدي به.. نخاف (لزعله) وليس منه.

يوم رحيلك عندما جاء أحد أصدقائك يحمل كتابًا من كتبك عليه إهداء منك، شعرت بالغيرة والحزن، لأنني لا أملك كتابًا لك فيه إهداء لي.. ولكنك جلت بخاطري، وفكرت: كيف أحزن لأنني لا أملك كتابًا مذيلاً باسمه، وأنا اسمي مزين باسمه.

وها هم اليوم يكتبون عنك كتابًا فيه كل من أحببت، وكل من أحبوك ومازالوا، تخليدًا لذكراك، ولكنهم لا يعلمون أنك دائمًا وأبدًا في القلب باقٍ وباقية ذكراك، فالتذكر ليس مشكلة.. المشكلة في نسيان أنه رحل، لأن الحقيقة تبقى تواجهك.

****

(*) كريمة الراحل شاكر مصطفى.

ورقة للتاريخ

د. عزالدين البدوي النجار(*)

في أقل من شهر واحد شيعت دمشق وعالم العربية ثلاثة من أساتذة الكلمة الكبار، وناسجي أبراد الفكر والفن في زمن العرب الأخير، وكاتبي وَجْد هذا الزمن ومجده، كلٌّ بطريقته وأسلوبه، ومرتبته في الفكر والفن، وموضعه الذي ينظر منه إلى الحياة والأحياء.

مضى أولاً القانوني والأديب الناقد متعدد المواهب نجاة قصاب حسن (١٩٢١ - ١٩٩٧/٧)، ثم تولّى في إثره صاحباه: الشاعر الكبير، شاهد القرن، وآخر الكبار من حجج الشعر العربي بصورته التاريخية الموروثة محمد مهدي الجواهري (.... - ١٩٩٧/٧/٢٧)، والمؤرخ والكاتب الكبير ذو الفنون الدكتور شاكر مصطفى (١٩٢١ - ١٩٩٧/٧/٣١).

وبطرائقهم وأساليبهم أيضًا كانوا عوالم كاملة استجمعوا في ذواتهم المرهفة الواعية أحوال العصر ودقائقه وأسراره، فوق ما فاضوا هم به على العصر معارف وفنونًا ذوات شكول وألوان.

ولسنا - على أية حال - بسبيل الحكم الجامع على هؤلاء، ولا هو في طوق كلام تكفكف منه مساحة على الورق معلومة أن يصنع ذلك. ولا تزال الأحكام دعاوى يدعيها أصحابها حتى تتأيد بالبرهاين والعلل. وإنما التفاتنا هنا إلى عموم الموهبة لا إلى خصوص الفكر والمنزع والضمير.

ونحن فيما يستقبل من هذه السطور نرسل الكلام في الدكتور شاكر مصطفى رحمه الله في وجهتين اثنتين إحداهما تمام على الأخرى:

(*) أكاديمي سوري.

١ – نذكر أشياء من سيرته هي كالمعالم الكبرى في حياته، ونسمي طائفة من أعيان تصانيفه، رجعنا فيهما جميعًا إلى ما كتبه رحمه الله بنفسه، ووقفنا على صورة من صديقه وأحد خلصائه وحافظ سيرته في العقدين الأخيرين من حياته الأستاذ عصام الحلبي، وإلى ما سمعناه متفرقًا من نجل الفقيد الأستاذ الحكم شاكر مصطفى، ومن قدماء أصدقائه وتلاميذه.

ويدخل في هذا رسالتان نفيستان للغاية ربما أحوج المقام إلى الاقتباس منهما، أرسلهما الشاعر الكبير نزار قباني لصديق عمره الأديب المؤرخ الفنان، قبل ثلاثة أشهر من وفاته، أبان فيهما بيانًا بليغًا مؤثرًا عن مودته الراسخة لصديق عمره الدكتور، وعن تقديره العالي لأستاذيته في الشعر والفن. كل أولئك أشادوا بشعريته التي يفيض بها نثره، والتي يُرْبي بها أحيانًا على طائفة من شعره نفسه، والتي لا ينفع فيها عرض ولا تلخيص.

ونزار – كما يعلمه قراؤه – من أبرع كتاب النثر في تاريخ النثر العربي كله، بل هو أستاذ جنس مخصوص منه لا يكاد يجاريه فيه أحد، لاجتماع أدواته وأسبابه له، ولامتيازه بشخصيته الشعرية المعروفة. ولو تهيأ لناقل عن العربية أن يؤدي الجمالية المدهشة التي في هذا النثر، فوق ما فيه من وثبات عقله الشعري وتهويماته، لقد كان ينبغي إذن أن يعد هذا النثر في مختار آداب العالم. وعلى أنه بالقياس إلى قارئ العربية في هذه المرتبة، بلا ريب فيه.

والرسالتان أيضًا وَقَّفنا عليهما الأستاذ عصام، آثره بصورة منهما الراحل الكبير.

٢ – ونثبت بعض ما استرسل فيه القلم من صفته، رحمه الله، إنسانًا وكاتبًا له في الكتابة منهج وأسلوب.

وليس بخاف علينا ولا على قارئ الدكتور العارف به أن أفاقه العلمية والثقافية أوسع جدًا من أن تحيط بها (ورقة واحدة) كتبت في ما يشبه الارتجال بعد أيام معدودة فقط من وفاته رحمه الله.

١ - الرجل:

استوى الدكتور شاكر مصطفى في ساحة الفكر العربي الحديث قامة عملاقة، ونموذجًا عبقريًا، انتظم من القدرة على صور الفن، وعلى آفاق متعددة من آفاق المعرفة، ما لا يتسق إلا للآحاد من كبار النوابغ والموهوبين.

ومثله رحمه الله في مثل ما اتسق له في فنونه وعلومه أحد من تُحاسن بهم العربية في زمنها الأخير أكابر رجالاتها في عصورها الذهبية الزاهرة، وتعدُّهم الإنسانية بأسرها شواهد نبيلة من شواهدها، ونجومًا ساطعة في سمائها التي تنجلي أحيانًا، وتغبر وتكدر حينا بعد حين. ولا يخطئ قارئه عالمية الرؤية، وشمولَ التعاطف، وشوق النفس إلى ملابسة كل معنى إنساني رفيع - معاني تفيض بها آثاره، يجلوها على الناس فكرًا وأدبًا وفنون جمال.

٢ - ملامح سيرة:

ولد الفقيد في حي الصالحية على سفح قاسيون في عام ١٩٢١ غداة دخل الفرنسيون دمشق (١٩٢٠)، وكان والده مصطفى مختار الحي الذي ولد فيه. معان ثلاثة ذوات شأن أطافت به منذ ولد، فهل كانت دراسة التاريخ قدرًا له لا يملك إلا أن يعيشه؟ ولد في أحضانه، وفي مجرى بعض كبريات أحداثه، وتقلب صباح مساء في مفرداته ومواده؟.

أما هو فقد أخبرنا أن نشأته في حيه غذته غذاء صحيحًا بلغ منه الشغاف، ألم يكن ابن هذا الحي «بالوريد المربوط برباط القلب منذ الطفولة»؟.

ونبت الولد البار، تَحفُّه الرعاية، نباتًا حسنًا في حيه ومدينته، وأقبل يستوعب الحياة والمعرفة بملكاته المتفوقة كلها، وكانت الآداب العربية والغربية، قديمها وحديثها، هواء يتنفسه، ومادة حية تغتذي بها إنسانيته غذاءها العلوي. وكانت - مع الفنون التي ذاقها ومارسها - السماء ذات النجوم التي أظلت وجوده القلق الفائر على الأرض.

فكان - في ما كان - «يلتهم القصة في ما بين وجبتي طعام» وعبارته هذه - على هوان شأنها في الظاهر - هي دليل الباحث إلى الأصل المعرفي المتين الذي بنى عليه في

ما بعد واحدة من أضخم دراساته وأصلها، هي كتابة (القصة في سورية) الذي يبدو لأول وهلة – نشازًا في سيرته العلمية الأولى.

وكانت معاهد علمه (مكتب عنبر) و(التجهيز) مؤسسات علمية راسخة في عصره، وكان أساتيذها كبار علماء عصرهم وأدبائه ولغوييه. لا جرم، كان مثل الدكتور في مواهبه وذكاء قلبه يشبّ فيها شبابًا باذخًا ألمعيًا، ولا جرم أنه حين اجتاز امتحان الثانوية كان في قطره الأول المبرز على الأقران.

وكانت بعثته إلى القاهرة لاستكمال دراسته الجامعية (١٩٤١-١٩٤٥) شاهدًا على استقلال شخصيته، وعلى مزاج الفنان فيه. كان يحب أن يدرس الأدب، إلا أنه كان يكره أن يعود ليدرس علومه فاختار دراسة التاريخ، ورجع بإجازة فيه وفي الجغرافية جميعًا، وكان زميله فيها الأستاذ عبدالحميد دركل، أستاذ المادتين في ثانويات دمشق، والمدير العام للآثار والمتاحف، وسفير سورية في ما بعد، على ما أخبرني به الأستاذ منير كيال الجغرافي وعالم الشاميات المعروف.

وكان من الثمرات المباشرة لهذه الإجازة كتاباه: (سورية) وهو كتاب ضخم مصور اقترحته عليه وزارة السياحة، و(جغرافية الوطن العربي) وقد كان كتابًا مدرسيًا تخرجت به أجيال.

ورسم وكالملحق لكتاب (الجغرافيا) وضع كتيبًا ملونًا لرسم الخرائط بالطرق الهندسية، ارتفق به طلاب البكالورية في دراستهم للمادة مع الكتاب الأم.

وكان قد باشر التدريس في ثانويات درعا ودمشق عقب عودته من القاهرة (١٩٤٦-١٩٥٣) وتبينت لطلابه مواهبه الفنية في الخط والتصوير والخرائط، إلى الحد الذي كانت معه لوحة الفصل (السبورة) التي كان يقرر عليها درسه أشبه بأثر فني يبقى الطلاب لتأمله بعد انتهاء الدرس.

وكان رسم الخرائط ملمحًا ظاهرًا من ملامحه الفنية جديرًا بأن يلفت اليه مؤرخًا وبلدانيًا مثل الأستاذ القاضي إسماعيل الأكوع، الوزير اليمني الأسبق، حين لقيه في القاهرة في ما بعد، مستشارًا ثقافيًا لسورية في مصر (١٩٥٦- ١٩٥٨) على ما حدثني به.

وفي دمشق كان مديرًا لدار المعلمين الابتدائية (١٩٥٣- ١٩٥٤)، وقد كان دَرَس فيها وفي دار المعلمين العليا من قبل، ثم أمينًا عامًا للجامعة السورية (١٩٥٤- ١٩٥٥) ثم عين مستشارًا ثقافيًا لسورية في مصر على ما تقدم.

وفي مقامه ذلك في مصر كتب كتابه (القصة في سورية)، وكان قد دعي إلى أن يحاضر في موضوعه طلاب قسم الدراسات اللغوية والأدبية في معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية. فاحتشد لذلك، وجمع من مادة المقدمات المتعددة للبحث ما قرّت له عينه هو نفسه، إلا أن الجانب الأكبر والأكثر أصالة في الكتاب هو الجانب الخاص بالقصة منذ بدأت تتميز لها ملامح فنية ظاهرة. وقد كانت مادته وأصوله هنا حاضرة في قلبه. ولم تكن لتجتمع له على النحو الذي جلاه في كتابه لو لم تكن مجتمعة له من تلقاء نفسها في زمن محاضراته المعلوم.

وعلى أن الرؤية الشاملة، ونضج الأدوات الفنية واكتمالها، أمران لابد من تقديرهما حاصلين سلفًا في يد الباحث قبل أن يمضي في بحثه خطوة واحدة، وهو شيء يعز مطلبه حتى على من تسموا باسم الدراسة الأدبية، فضلاً عن أن يكونوا ممن فرغ لغيرها من أنواع المعارف والعلوم.

ثم نقل إلى الخارجية فكان قائمًا بأعمال سورية في السودان (١٩٥٨) ومستشارًا في سفارة الجمهورية العربية المتحدة في كولومبيا حتى عام (١٩٦١)، وقنصلاً عامًا في البرازيل (١٩٦١- ١٩٦٣).

وفي البرازيل كتب الصورة الأولى من كتابه الذي سينشر في ما بعد باسم (الأدب في البرازيل) وانعقدت بينه وبين الكاتب البرازيلي الأشهر جورج أمادو آصرة صداقة إلى الحد الذي صح له معه أن يستكتبه إحدى مقدمتي الكتاب العجيب الشأن (مختارات من القصص البرازيلي) (دمشق ١٩٦٤) واختصر هو مادة كتابه لتكون المقدمة الأخرى، والكتاب بظاهره المعلوم، وبالمطوي من خبره غير المعلوم مأثرة عجيبة من مآثر الدكتور رحمه الله.

ثم كان مديرًا عامًا للسياسة الخارجية في وزارة الخارجية، وسمي وزيرًا للإعلام في سورية (١٩٦٥- ١٩٦٦).

دعاه المرحوم الشيخ جابر العلي الصباح إلى الكويت، فبقي في جامعتها منذ تأسيسها (١٩٦٦) ربع قرن كامل (١٩٦٦- ١٩٩١) أستاذًا ثم رئيسًا لقسم التاريخ ثم عميدًا لكلية الآداب.

وكانت الكويت قراره بعد طول ترحال، اجتمعت له فيها نفسه العالمة، فصنع فيها على مُكْثٍ أكابر أعماله، وكتب، رخي البال، ما شاء الله من شعره الذي يلبس صورة التاريخ.

وفي الكويت كانت له يد طولى في إنشاء معهد بحوث الحضارة الإسلامية في فرانكفورت الذي يقوم عليه الباحث العالمي الدكتور فؤاد سزكين. وكانت في حينها مأثرة جليلة للأمير الشيخ جابر الصباح، حضر إنفاذها الدكتور عبدالله يوسف الغنيم.

ومن أعماله هناك دوره البالغ في إنشاء مجلة (الثقافة العالمية)، ودوره في لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية، أثران ظاهران من آثار موسوعيته الثقافية، وحضوره الدائم في خدمة الفكر العربي الحديث.

وفي عام (١٩٩٠) عاد إلى دمشق، فكانت سكنه بعد أن كانت مسكنه، لا يفارقها إلا في ما يعرض له من أسفار، ولا سيما إلى الكويت نفسها، معلقًا قلبه بأبنائه فيها. وبقي في ما خلا ذلك في دمشق، يكتب فيها البحوث، ويلقي المحاضرات، ويخرج من عنده من أعماله، أو يتتم ما كان في حاجة منها إلى تمام. وآخر كتاب كان يزمع إخراجه (تاريخ ميا فارقين) لابن الأزرق الفارقي، وكان حققه قديمًا مستوفيًا نصه، ثم نسيه، فما أذكره به إلا جهة ناشرة طلبت منه بعض ما عنده، فاستخرجه وتحدثنا فيه، إلا أن الأجل حال دون الأمل، وما يتم شيء إلا بكتاب.

٣- أدوات المؤلف:

لم يكن للفقيد من أن يعانق المجهول بدّ، فإن لم يحرزه معرفة حاضرة أو غابرة، صنعه بنفسه فكرًا وخيالاً متوثبًا وأحلامًا «تأكل من قلبه كما تأكل الحقيقة منه». فكان منه الشاعر المحلق، يقول الشعر - على طريقته - بلسانه ويده، كما كان منه العالم المصنف يجهد في أن يستودع الحقيقة تصانيفه. ومن أجل هذا لم يكن لغير العلم بصوره كلها في حياته موضع. وهذا بعينه هو الحقيقة التي تفسر الظاهر والباطن في هذه الحياة.

دعاه الشاعر الكبير عمر أبو ريشة حين كان سفيرًا لسورية في الهند إلى حفل فخم احتشد له وتأنق فيه، حتى إذا أشرف الحفل على نهايته قال له: هل سرَّك ما شهدت؟ قال: لا. قال: ولم؟ قال: جئناك لنسمع منك لا لنطعم طعامك! فتهلل له الشاعر، وقال له: لك سأنشد إذن! وأنشده وأنشد الحاضرين إلى الفجر ما شاء الله شعرًا ومودة خالصة وتمام حضور.

وبهذا التوق الغلاب إلى أن يسمع الشعر ويشهده، وفي خبر يتعلق بالشاعر الكبير نفسه، جلا الفقيد صورة عجبًا اتفقت له، أبرزها من أطوائها قبل عشرات كثيرة من السنين. فقد روى في حفل أقيم في الذكرى الخامسة للشاعر، أنه وهو صبي يافع تعلق بنافذة قاعة المدرج الكبير في جامعة دمشق التي كان سينشد فيها الشاعر شيئاً من شعره من أجل ألا يفوته هذا النشيد.

سيرة في الحياة والفن بعضها من بعض، ليس أن يبدع صاحبها بمنكر ولا بديع. قال الكاتب الكبير الدكتور حافظ الجمالي، لدَّة الفقيد وصديقه «حين تكون شاكر اعتزل الناس».

وينبغي أن يكون هذا حقّاً من القول، إلا أنه حق قد عرفت حقيقته التي تكشفه وتجلي عنه: الرجل شاعر عالم مؤرخ، فما ينفك قلبه من وجد، وفكره من نظر، ويده من قلم. وما يطيق – سجية وعملاً – أن يكون غير ذلك. ولم تكن وقائع حياته ومراحلها وملابساتها إلا مناسبات عارضة ظاهرة، تكشف سرائره التي خصّ بها، وهاجسه المبدع الدفين.

كانت اللغات التي عرفها بمواقيتها وأسبابها منافذ له إلى التراث الإنساني العريض، لا تحجزه عنه حواجز اللغة، ولا يرتهن – إذا أراده – لأمزجة الناقلين، وكانت اللغات التي يجيدها أربعًا، هي الفرنسية والإسبانية والانجليزية والبرتغالية، نذكرها بترتيبها الذي ذكرها به.

وحين كتب كتابه عن (الأدب في البرازيل) كتبه كتابة العارف بمادته، فما يحجبه عن أصولها الفنية والجمالية شيء. وعن الإسبانية ترجم (ماريانا) وهي في ما نعلم كتابه المترجم الوحيد.

٤ - آثاره:

ذكر رحمه الله قبل أقل من شهرين أن له ثلاثة وخمسين عنوانًا، ونعرف نحن أنه إن كانت عدة صفحات بعضها مئين، فإن عدة صفحات بعضها الآخر ألوف. وله مجموعات من الخواطر، تدخل في ثلاثة أجزاء، هي بمساراتها العامة ثلاثة كتب، كان على أن يسميها (خواطر)، وله إلى ذلك خمسون ومئتا مقالة (٢٥٠) أدارها على موضوعاته التي أنفق فيها عمره، تخرج منها مجلدات كبار.

وقد تقدم لك ذكر طائفة من أعماله، وسيأتي ذكر طائفة أخرى، ونذكر الآن طائفة ثالثة، بعد أن عرفت أنه صنف أكثرها في مقامه الطويل بالكويت.

كان التاريخ، قديمه وحديثه، قضية الدكتور وهاجسه المقيم، وكأنما كان قدرًا له لا يملك إلا أن يعيشه كما تقدم. إلا أن الأدب كان هوى نفسه، وحلبة طاقته الفوارة المتفلتة من القيود، والبرزخ القائم على آخر تخوم الأرض تثب منه روحه إلى المجهول.

وككل الكبار عاش قضيته وأضمر هواه، مغالبًا في ما يغالب، أنه في أعماقه مطوي على الأروع والأجل، لا يتهيأ له أن يبين عنه بكامل روعته وجلاله. وما هي، في الحين بعد الحين، إلا نفثات من براكينه، أو التماعات خاطفة في سماواته، تومئ ولا تصرح، ويغرف بها من بحره المحيط غرفات، والبحر هاجع مكانه لا يزال.

وقد كتب آخر ما كتب، أو من آخره، يعني نفسه: «فما زان الأدب برائعة خالدة، وهو المولع منذ الصغر بالجديد الجميل. ولا قدّم عطاء يذكر مع اسمه. ومعظم ما قدّم فإنما هو غثاء أحوى يذهب مع الريح».

ألا نعلم نحن أن هذا ضرب خفي من بكاء النفس، وأنه نص في الوقت نفسه أن ما كتب في الأدب ليس بشيء بالقياس إلى ما يعلم أنه حاضر في قلبه؟.

فقد استأثر التاريخ إذن بجمهور ما كتب، أخلص أكثره له، وشاب بالأدب طائفة منه، وبقي الأدب الصرف غريبًا في عالم الفنان الأديب.

كتب في التاريخ (معالم الحضارات) و(العالم الحديث) وهما من أوائل ما كتب في مستهل الخمسينيات. ثم غلب التاريخ الإسلامي على أعماله، وقد علمت أن أكثره إنما كان

مدة مقامه في الكويت. فكتب (دولة بني العباس) وهو من مؤلفاته القديمة وكتب (مؤرخو العصر السلجوقي الأيوبي) بالفرنسية، وهو رسالته للدكتوراه من جنيف، و(التاريخ العربي والمؤرخون) و(موسوعة الدول الإسلامية وأعلامها) و(المدن في الإسلام) و(مدينة العلم: آل قدامة والصالحية) و(الأندلس في التاريخ).

٥ - الفنان:

بني رحمه الله على الفن الخالص منذ كان، هبة موهوبة ونعمة سابغة لا يد له فيها، وانغمس هو، منذ عقل، في لجته الذهبية، فتوهجت في يده غير صورة من صوره مما يعرف عامة من يقرأ له وما لا يعرفون.

فكتب الخط الفارسي البديع، وهو بين الخطوط العربية من أكثرها أناقة وشعرية. ولو تفرّس متفرّس في هذا الخط وفي من يكتبه من أصحاب الفنون والآداب، لكان جديرًا أن ينتهي إلى نتائج إنسانية وفنية حسان. ولا يبعد أن يتبين أن في من يكتبه أصحاب المواجد والأذواق، وأصحاب الرؤى الباطنة، ووثبات الخيال الشاعر، أو التأمل الفلسفي العميق.

ورسم الرسم المتقن؛ وجوهًا وطبيعة وغير ذلك. فتجد في ما رسم من الوجوه خاصة حكاية الأصل، الدالة على اقتدار الصنعة وكمالها، والتعبير الدال على رؤية الفنان وحساسيته ولحظته الشعرية في عمله ذلك، وتجد في ما استلهم من مشاهد الطبيعة الإشراق والشعرية الطاغية جميعًا، عنصرين أصيلين من عناصر شخصيته، لا يخطئهما فيه من عرفه معرفة عن كثب.

وكانت الموسيقى، الى ذلك عالمًا آخر من عوالمه الشعرية المسحورة، عاشها بكليته ملاوة من الدهر، ورتلها بنفسه على الكمان والعود، واصلاً بين أسبابها وأسبابه، لاحقًا هكذا – بممارسته، وبمتابعته البعيدة المدى، وبوجده المطلق الذي يباشر به من أمره كل شيء – بأكابر صانعيها، وبالعظام الذين شادوا هياكلها العليا بين الناس.

وما أمره مع الرحابنة – عند قراء (العربي) – ببعيد. وليس في أصالة التلقي وعمقه أصل ولا أبلغ من قوله في بعض كلامه عنهم: «وكنا نبهت لينابيع الفرح الداخلي تغمرنا، فلا نصفق ولا نتكلم، ولكنا نتأمل في صمت ولا ندري ما نقول!».

ثم اقتطعته إليها همومه الأخر، وما قدرها في حياته بهين ولا يسير، فتراجع هذا كله ليكون مادة من مواد العبقرية المذخورة في قلبه العظيم. حتى إذا دعاه من حياته العامة داع أو أثاره منها مثير، ومض ما في قلبه وميضه العبقري، وتدفق من فوره فنّاً كاملاً أخاذًا، وكأن صاحبه لم يسكت عنه لحظة واحدة قط.

٦- والشاعر الأديب:

خالط رحمه الله العربية مخالطة العاشق الوامق، وذاق أسرارها ذوق العارف البصير، واصطنع في أساليبها لنفسه أسلوب فنان معرق أصيل.

وككل فنان حق، كان ينطوي على ناقد مؤرخ كبير، يذوق الجمال كله، ويعرف – عرفان القلب – المحاسن كلها، ويرى في كل ظاهر فن ما وراءه من أصالة طبع، أو دقائق صنعة ولطف تدبير.

غير أن الكلمة كانت قدس أقداسه، وكانت سرّه الأعظم، وجناحيه اللذين حلّق بهما عاليًا جدًا في سماوات الفكر والأدب والفن، واختط فيها لنفسه مداراته وأفلاكه الجبارة، التي سلّمها له كبار معاصريه، من دهاقنة الحرف، وأساتذة البيان الرفيع، شعرًا ونثرًا وما بين ذلك.

وكان له حين يأخذ في مطلب من مطالب الأدب والفن خاصة، وحين تستوي له أسبابه ودواعيه عامة، ويتطلع بعينيه الى المجهول نفسه، مجهوله الذي يتسمع إلى دبيبه في قلبه، ويسمع نغمته تتردد في جنبات نفسه – كان له رحمه الله حين يطيف به هذا ويستغرقه ويستولي عليه: أسلوب عجب هو شعر كله، بل هو فن عجيب منه، تهوي إليه أفئدة الشعراء فما يتفق لهم منه، بأوزانهم وقوافيهم، إلا الشيء بعد الشيء، يستظهرون به على دعوى العبقرية، وأن الشعر، أي شعرهم الذي من هذا النمط، من عبقر يجيء.

فإذا عرفت أن غير قليل من فنه هذا هو احتفاء بشعراء أو مقدمات لدواوين شعر، وإذا عرفت أن أكثر هذا إنما هو لأصدقاء من أصدقاء عمره، أو لناشئة مغمورين من أدباء عصره، فأنت إذن على مشارف السرّ الذي كان يتولد منه نمطه العبقري، وكان يحلّق بجناحيه الماردين في مداراته الجبارة التي أومأنا إليها قبل يسير.

وبهذه الفتنة الشاملة التي تهيأت لأسلوبه: غنى داخليًا، وحيوية دافقة، وجمالية آسرة تتخيل لقارئها بألف لون ولون، تقدم شاكر مصطفى لأول عهده بالكتابة، ليكون – في وثبات قليلة – مع الصفوة من الكتّاب التي لا يبلغ عددها أصابع اليد الواحدة، والتي هي قبلة أنظار القراء.

٧ - الصورة والحقيقة:

كان في الكويت، وطنه الثاني بعد موطنه دمشق، مع أنجاله الكرام. وكانت تلك آخر مرة ترى فيها الكويت الرجل الكبير. حتى إذا أقبل عليه الصيف رجع إلى دمشق فكان لنا لقاء معه غاية في اللطف والجمال.

الرجل هنا قمة سامقة من قمم الإنسانية المرهفة، سنواته التي تقترب من الثمانين فعلت فعلها فيه، بلغ من الحياة الموضع الذي يشف فيه فما يحس لغير الروح في بنيانه البشري أثر. الحكمة وسمت الحكماء طاقته الباطنة، وإهابه الظاهر.

محفوظه حاضر أبدًا، ومن ورائه فكره المتمرس البصير. الجد أصل فيما يورده، فإذا كانت الدعابة لونًا من ألوان هذا الجد، تكشف منه وتدل عليه، ضمه اليه، فأمتع وأفاد في آن، فإذا حدثته أقبل على حديثك بحرص من يخشى أن يفوته من حديثك حرف مرة، أو انكفأ على نفسه، وغشيت وجهه سحائب رقيقة شفافة من همٍّ بعيد مرة أخرى. حدثته يومذاك عن أفذاذ من المؤرخين، كتبوا التاريخ بفنية الأدب وجماله وتدفقه، وسميت له منهم أسماء، وما كنت أريد من حديثي غيره.

قال وهو يرقى درجة في البيت الذي كنا ضيوفًا فيه: يا رب، فعلمت أن الدنيا قد خرجت بالكلية من قلبه، وأن الروح الآن هي الحقيقة الكبرى التي عليها يعول وإليها يؤول.

وكان لنا في بيته لقاء آخر قريب، جرى الحديث فيه غنيًا حميمًا سهلاً، في الأدب وأهله والكتابة وأساليبها، والعصر وبعض المشهورين من رجاله.

وكالعادة، وعلى غرار ما صنع في سلسلته البديعة (أوراق من التاريخ) أبان لك في ما كان يتحدث فيه عن جوانب يعرفها هو أهملها التاريخ.

وفي التفاتات نفسه الرقيقة الجادة في حديثه كله، وفي أسلوب تناوله وصدقه وحرارته كانت تتكشف معاني ذلك الهم البعيد الذي يراه الرائي يغشى وجهه، ولا يكاد يتبين له فيه – لأول وهلة – سبب ولا مغزى ولا تأويل.

وحين تركته، تاركًا بعض أوراقي عنده، لم أكن أعلم أن أنفاسه في الدنيا قد باتت معدودة، وأن رؤيتي هذه له توشك أن تكون آخر العهد به.

كان مسافرًا من غده إلى حمص، حتى إذا رجع منها بعد أيام واجدًا فيها بعض الروح في ما يظهر، انقلب إلى بيروت، إلا أن سفره إليها هذه المرة لم يكن أبدًا من أسفاره السعيدة: طال عليه المقام بها، وأعنته ما لقيه من بعض ناشريه فيها، وجاءه – وهذه أشدهن – نعي صديق عمره نجاة قصاب حسن أضعف ما يكون قدرة على تلقيه.

كان العبء أكبر مما يستطيع الجسد الواهن والنفس المجرحة احتماله، وكانت سفرة صح فيها عليه من الوجوه كلها أن السفر قطعة من العذاب، حتى إذا أدرك مأتم صديقه في دمشق لم يكن غريبًا على أحد من عارفيه أن يقع مغشيًا عليه.

وفي حومة برحائه تلك، وقبل أيام يسيرة من وفاته، رغب إليه ناشر كتابه الأخير المقدم للطبع (صلاح الدين المفترى عليه) أن يقرأ تجربة طبع الكتاب، على المعهود في عالم الطباعة والكتب، فاعتذر إليه بأنه لا انبعاث له لشيء، وأنه لا يقوى على أن يقرأ كلمة أو يخطها بقلم، مع أن الكتاب نفسه كان قضية حية يتدفق في الحديث عنها قبل نحو من شهر واحد فقط من ذلك التاريخ.

هل رأى الرجل الكبير في تلك اللحظة، بنافذ بصيرته وبعبقريته الروحية، الضفة الأخرى للوجود التي يتلاشى عندها كل شيء، وتفقد أشياء الحياة الدنيا بغتة فتونها وبريقها وما تتخيل به لأهل الدنيا، تجذبهم إليها به، سرًا من أسرار الوجود ينتظم به أمر الوجود؟.

قبل يومين اثنين من وفاته ذهبت اليه لبعض الأمر، وفي يوم الخميس ١٩٩٧/٧/٣١ كان في بلودان مصيف دمشق المشهور، أجاءه إليها قدر غالب؟ وفجأة أصاب القلب المثقل المكدود ارتخاء شديد، لم يمهل صاحبه ولا من حوله، وما كانت إلا خطفة زايلت الروح الشبح الإنساني، وخلصت للحق، لتكون بالكلية في عالم الحق.

****

الواقع والممكن
في شخصية شاكر مصطفى وأدبه

د. عزالدين البدوي(*)

ملامح صورة

لا يرتاب عارف بالأدب وأهله، مميز لأساليبه، وبصير بالسرائر العقلية والنفسية التي يصدر عنها ويشتمل عليها، وقف على قدر كاف من آثار الدكتور شاكر مصطفى رحمه الله، وزاد فعرفه معرفة عن كثب، وعرف من شمائله ما لا يؤديه أحيانًا أدب الأديب أو فن الفنان. لايرتاب عارف بهذا كله واقف عليه أن الرجل عبقرية فكرية وأدبية بالمقاييس كلها، ولا يضارعه في سمو قامته من هذا الوجه إلا قلة قليلة من كبار الموهوبين من حملة الأقلام في عصر العرب الحديث، بل إن عمق تناوله لمعانيه ورهافتها وشموليتها، كل ذلك يضيف إلى أدبه وفكره قيمة إنسانية عالية محققة، فوق امتيازه في ذات الأدب وعلى النحو الذي يزن به العرب أدبهم في قديم الدهر وحديثه، ولو أن لـ(لو) موضعًا في التاريخ يقبله أصحاب التاريخ لكان يمكن لقائل أن يقول: إن الدكتور كان يمكن أن يكون من أعاجيب الدنيا في الأدب (لو) أنه كان خالصًا لأدبه وحده، بالفنية والشعرية الطاغيتين اللتين امتاز بهما هذا الأدب لا تشغله عنه شواغله الكبار، ولا تستفرغ طاقته ومجهوده العظيمين، أو أكثرهما، حتى ما كان منها علمًا إنسانيًا عريضًا كالتاريخ، هو من مواد الأدب ومصادره، لاسيما إن كان أدبًا واسع الطيف عجيب التركيب كأدب الدكتور رحمه الله، من أجل أن قراءتك للتاريخ متسعًا به شيء، واستفراغ الجهد في درسه وتحقيق مسائله وقضاياه وتركيب صوره الكلية شيء آخر.

(*) أكاديمي سوري.

(عن صحيفة تشرين السورية ١٠/٩/١٩٩٧ – العدد ٦٩٠٧).

وتأمل إن شئت مبلغ الطاقة التعبيرية التي أنفقها في كتابة العشرات الكثيرة من مجلدات التاريخ وأجزائه، المكونة – وحدها – مكتبة تاريخية كبيرة، فضلاً عما لم يطبع بعد من هذه المجلدات والأجزاء، وأنت متعجب بعد ذلك لامحالة حين تتصور الوقت والجهد العظيمين، والمحتاج إليهما في إخراج تلك المكتبة، ولا نسترسل بأكثر من هذا في القول في ناحية هي في آخر المطاف بالقياس إلى دارس الأدب المحب له أمنية، وهي في محض التاريخ احتمال، وحسبنا أنه كتب التاريخ الصرف والأدب الصرف ومزيجًا منهما جميعًا، محسنًا في ذلك كله مجليًا فيه.

وهذه بعد كلمة في الدكتور شاكر، جمعنا فيها بأقل ما يمكن من القول أظهر معانيه وخصاله، بعد أن فصلناها بعض التفصيل في موطن آخر.

١ – الدكتور شاكر مصطفى رحمه الله – قبل كل شيء – إنسان تام معاني الإنسانية... شفافها إلى أبعد حد، وهو بعد عالم مؤرخ ومفكر وأديب، عالمي الرؤية وموسوعي المعرفة، إنساني المغزي والضمير، وهو من جيل العمالقة المتازين بتعدد المواهب والملكات، الآخذين مما وهبوه بأوفر نصيب.

٢ – تنقل الدكتور في أقطار الأرض: مستشارًا ثقافيًا وقنصلاً عامًا ورحالة عالمًا. فوقف بنفسه على كنوز الفن، وتأمل مليًا أكابر منجزات الحضارة، واستغرقته عجائب الطبيعة، ففي أدبه وفنه ثراء غير محدود، مما عرف وشهد وتأمل.

٣ – كان الفن والأدب هو نفسه، إلا أنه درس التاريخ بأسبابه لا لهواه، فربحه التاريخ ولم يخسره الأدب، ومن التاريخ والأدب تألق في يده نموذج أخاذ معجب قليل النظير في آثار المحدثين.

٤ – وعلى أن الكلمة خاصة كانت قدس أقداسه، وكانت سرّه الأعظم وجناحيه اللذين حلق بهما عاليًا جدًا في سماوات الفكر والأدب والفن، واختطّ فيها لنفسه مداراته وأفلاكه الجبارة التي سلّمها له كبار معاصريه، وكان له حين يأخذ في مطلب من مطالب الأدب والفن خاصة، وحين تستوي له أسبابه

ودواعيه عامة، ويتطلع بعينيه إلى المجهول نفسه، مجهوله الذي يتسمع إلى دبيبه في قلبه، ويسمع نغمته تتردد في جنبات نفسه.. كان له رحمه الله حين يطيف به هذا ويستغرقه ويستولي عليه: أسلوب عجب هو شعر كله، بل هو فن عجيب منه، تهوي إليه أفئدة الشعراء، فما يتفق لهم منه - بأوزانهم وقوافيهم - إلا الشيء بعد الشيء، ويستظهرون به على دعوى العبقرية، وأن الشعر، أي شعرهم الذي من هذا النمط، من عبقر يجيء.

٥ - جملة القول، أنه كان أديبًا مبدعًا، ومؤرخًا علّامة، كتب أكثر من شكل من أشكال التاريخ، وفنانًا مرهف الأدوات، ذاق غير صورة من صور الفن ومارسها وصنع نماذج عالية منها، وقد كان بهذا كله ثروة قومية وإنسانية، وأحد الأفذاذ المعدودين في عالمنا اليوم.

****

النجم الذي غاب

عصام الحلبي[*]

لا السَّمعُ يُدركُ ما يجري ولا البَصرُ
خَطبٌ ألَمَّ بمن غابوا ومَن حضَروا
خَطبٌ تَزلزلُ أركانُ البلادِ لهُ
ولا تجادلُ في ما شَاءَهُ القَدَرُ
سَرَى النعيُّ دويّاً في مسَامِعنا
وكَمْ وددتُ بأنْ لا يَصْدُقَ الخَبَر
بَدَتْ دمشقُ كأنَّ الحُزنَ ألبسَها
ثوبَ الحدادِ فلا شمسٌ ولا قمر
يكادُ يَخطفُ هَولُ الخطبِ بهجتَها
وتَستَدِرُّ عليها أدمعٌ غُزُر
تبكي البلادُ ويبكي كلُّ ذي قلَمٍ
مَنْ قلَّدتْ أمَرَهاً في فنِّها مُضَر
تبكي دمشقُ كأمٍ عاقرٍ فقدَتْ
مَنْ كانت الأمُّ قبلَ العُقْمِ تَنتظِر
أبى الحِمَامُ حياءً أن تموتَ بها
كأنَّ موتَك ذنبٌ ليس يُغتَفَر
فشاءَ ربُّكَ أن تمضي إلى جبلٍ
وما عَلِمتَ بأنَّ الروحَ تُحتَضر

(*) شاعر سوري.

على الخَلائقِ حُكمٌ يا أبَا حَكَمٍ
تُقضى الحياةُ ويمضي دونَها البشر
على العبادِ قضاءٌ ليس يَدْفَعُهُ
من كان مُتَضِعًا أو مَنْ به كِبَر
هِيَ المنونُ سَرَتْ في الخلق مُذْ خُلقوا
وما تَفلَّتَ منها كَارهٌ حَذِر
ولا يموتُ ذوو فِكرٍ ومعرفةٍ
إذا استقامَ على أعقابِهِمْ أَثَر
إيهِ أبا حَكَمٍ، ذكرى تُعَاوِدُني
أيامَ ينثُرُ من قَيْثَارِهِ عُمَر[1]
ونحن ننعمُ بين الصَّحبِ في سَمَرٍ
ومَجدُ مَعْبَدِ كَاجوراو يُذْكَر
وإذْ تُرَدِّدُ مِمَّا قالَهُ عُمرُ
(إنَّ الكريمَ لَيُعطي وهْوَ يعتَذر)

نَذَرْتَ عُمرَكَ للتاريخِ تُنْصِفُهُ
بِصرخَةِ الحقِّ لا تُبقي ولا تَذر
وإذْ ردَدْتَ عن الحجَّاجِ مَظْلَمَةً
ودمعُ كافورَ في كفَّيكَ ينْهَمِر
وإذْ رأيتَ صلاحَ الدينِ يَخْدُشُهُ
أخُو الجَهالةِ مَن ضلَّتْ بهِ الفِكَر

(١) عمر أبوريشة.

همَى بيانُكَ تبيانًا ومعرفةً

وأسْفَرَ الحقُّ لمَّا جئتَ تَبْتَدِرِ

وفي البيانِ لأهلِ الحقِّ مرحَمَةٌ

وفيه إنْ شئتَ للباغينَ مُزْدَجِر

أرى تُراثَكَ تَستهدي بهِ أممٌ

فهل نُفيدُ به درسًا ونَعتَبِر

أبا المعارفِ! ليت الشِّعرَ ينفعُني

في ذكْرِ فَضْلِكَ في ما كنتَ تبتَكِر

إذا استَتَرْتَ وراءَ الغيبِ في جَدَثٍ

فما رأيتُكَ في ذكراكَ تَسْتَتِر

فَمِثْلُكَ النجمُ تأتمُّ الهُداةُ بهِ

ولا يزالُ لهمْ في ضَوئِهِ وَطَر

أتى بنُوكَ بِلألاءٍ به نَثَروا

على جبينكَ، والغارِ الذي ضَفَروا

إذا تفكَّرَ في سُبْلِ العُلا رجلٌ

ففي عُلاك لباغي المجدِ مُعْتَبَر

أخلاقُكَ الغرُّ تُبْديها سبيلَ هُدًى

وتَسْتَسِرُّ تُقًى أخلاقُكَ الأُخَر

ففي يمينكَ شمسٌ للنُّهى سطَعَتْ

وفي يسارِكَ مِن سِرِّ الهوى قمَر

أنا نَجيُّكَ في الهَمِّ الذي اختلَجَتْ

به حناياكَ حينَ الهمُّ يَحْتَضِر

عُـــذرًا إلـيـكَ فـبـعـضُ الـحـــزن بُــحْــتُ بـهِ

ولا أبـــوحُ بـبـعـضٍ مِــنــهُ... يَـسْـتَـعِـر

رأيــــتُ قـــبـــرَكَ يـحـكـي نـــورَ سـاكـنِـهِ

وقـــد تجـلَّــتْ بـــه الآيـــاتُ والـسُّـــور

فَــنَـــمْ! عـلـيـكَ مـــن الـرحـمـنِ مـغـفـرةٌ

مـــادامَ إرثُــــكَ فـــي الآفـــاقِ يـنـتَـشِـر

****

من محاضرات وكلمات
الدكتور شاكر مصطفى

دمشق إن حكت[1]

د. شاكر مصطفى

لعل أحدًا منكم لم تفته معرفة الأسطورة الشائعة عن طائر الفينيق الذي يحترق عند المساء لينتفض من جديد مع مطلع الصبح، ولا يجهل أحد قولة المتنبي جبار الكبر والعنفوان.

كَمْ قد قُتِلتُ وكم قد مُتُّ عندَكُمُ
ثُمَّ انتفضتُ فزالَ القبرُ والكفنُ

هناك ندٌّ ثالث لهذا الثنائي الذي يموت ليحيا، ثم يموت ليحيا، إنه أنتم، بلى، أنتم دمشق الخالدة. دمشق ليست مساكن وغوطة وظلالاً من ندى وأقاح، ولكنها بشر يتجددون ويجددون معهم شباب دمشق جيلاً بعد جيل.

وقد تتساءل كم جيلاً جدد شباب هذا البلد الدهري الأخضر فيعجزك الجواب، مع أن كل ياسمينة فيه تعرفه، كل قطرة ماء من بردى تهوي كالنجم، كل حورة تشمخ على حوافي الربوة كالسهم الفضي كل نسمة تحمل ريًّا الطيون والنعناع، كل انتفاضة عنفوان اهتزت في هذا التراب كأنه العنبر، كلهم يعرفون الجواب، إنها الأبديات الخالدة ها هنا والجموع عبور، مواكب عبد مواكب حتى ليتسع الأفق.

لها الحبُّ والكأسُ والمزهرُ
وللناس منها الصَّدَى المسكرُ

هل جرّب أحدكم أن يستمع إلى وسوسة الأحجار القديمة في هذا البلد؟

شيء يشبه الشعر يتصاعد منها. جوع موسيقي يلوب على الجدران. إنها إن شئت طفلة بعيون من ذهب، وإن شئت مجنونة تمزق البنفسج وزرقة السماء. وإن شئت عجوز تهدر بالحكمة والثرثرة معًا وبشيء من المرارة غير قليل.

---

(١) محاضرة القيت في مكتبة الأسد في دمشق في افتتاح معرض الكتاب ١٩٩١.

وتسعل المدينة.. تكح.. ويقتبض وجهها والتجاعيد وتغيب عيونها فيما وراء الزمن لو شئت أن تسمع منها خبرًا.

كان ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان.. هل أذكر لكم كم كان عدد البشر على ترابي الأول؟ كم تخون الذاكرة وكم تغوص أحداثها الخوالي كما تضيع الأصداء في الوديان الهاربة... الورثة الجدد الذين يزحفون على ترابي اليوم كالنمل المزدحم ويزيدون على أربعة ملايين.. كم كانوا؟ أسرة؟ عدة أسر كمجموعة من الفؤوس؟ طفلاً وأمه؟ لست أدري ولكني أعرف فقط أن أشداقي المرصوفة اليوم بالزفت والأسمنت والأقفال كانت تغني مع الشحارير. ترقص للربيع تنهل ثمرًا ولا من يقطف فأعيده لأمة الأرض.

هل كان ذلك حلمًا ذهبيًا أم واقعًا. لست أذكر. تطاول العهود أضاع الأصداء في سمعي، قد يكون ذلك قبل العصر البرونزي منذ عشر إلى عشرين ألف سنة، وإنما أذكر أني ذات ليل سمعت عويلاً عويلاً، وسالت الدموع مع مياه بردى، وظهر على ترابي مع الدماء آخرون. قبائل جاءت وتلاها آخرون ثم آخرون، عصائب طير تهتدي بعصائب واختصمت الحجارة مع الحجارة، وأكلت مساكن الطين من غوطتي الكثيفة أشجارًا .. وضحكت ملء صدري. علام يقتتلون؟ لدي الكثير من العطاء فليقطفوا التوت الشوكي بأيديهم الدامية. ولينعموا بهذه التفاحة المحرمة المسروقة من الجنة. أنا مؤمنة أن القحط لن يمر من هنا. لن يمر. ونهر بردى يسيل في عروقي سيلاً من الفضة.

بعد حين عرفت أن الجمال له ثمن. وثمن باهظ ولقد دفعته على الدوام راضية بقدري الذي جعلني منذ وجدت وإلى اليوم في موقع الدفاع والسلام، أبدًا ما هاجمت ولا خطر في بالي العدوان:

وجهي سَنيٌّ مشرقٌ إنَّما
مرّ عن وجوه الخلق وجهي السَّني
لم يبقَ في روحي من موضعٍ
يا ربُّ لم يُخدَشْ ولم يُطعَنِ

وتوالت المصائب موجات بعد موجات من الجراد البشري، دمّرت مرات ومرات شجري وأزهاري وزمرد الظلال، شموسي الصغيرة ديست بالأرجل الخشنة، وما كان لي بعد اسم ولا ملامح تزمجر لها الاضواء. يسمون ذلك العصر القديم بالعصر البرونزي ويعطوني من المدى سبعة الى عشرة آلاف سنة سابقة، ولكن هل عصركم الحالي أرحم بي؟ هذه الغابة من الإسمنت والحجارة التي تأكل - كالجدري - وجهي وعيوني وغوطتي وتجعل هذا الهواء الذي أتنفس ثقيلاً كالرصاص ومجاري مياهي الدافقة عطشًا كلها وأقذارًا.. هل أغفرها؟ لقد مرّت بي أزمات لست أحصيها؛ أوبئة، حرائق، تدمير، مجاعات، طواعين، حين يمتد بكم العمر امتداد عمري يهون عليكم حتى احتراق الظلمات، والصراخ كالهزيم وصقيع الدماء وتصبحون مثلي كشيطان نيتشة الذي تستوي عنده جميع الحالات.. أما هذا الذي أرى فماذا تفعلون؟ ومن ذا الذي يغفره؟.

وتصمت دمشق، تتذكر، هل تراها تستعيد في خيالها أيامها الأولى يوم كانت إحدى جنات الدنيا الأربع؟ كان ما كان وانقلب الزمان، حياتي ولا تكفي أحمال المجلدات لروايتها، مرّت بثلاث مراحل.. الآرامية الأولى، تلتها غربة طويلة عن ذاتي، عشت فيها ازدواج الشخصية اثني عشر قرنًا عانيت فيها ما عانيت، حتى كانت المرحلة العربية الإسلامية، أكانت محطاتها أكثر هناءة؟ من المؤسف أن الشركات دومًا على الأرض كالافعى يتسلل أخرس دون هسيس.

لم يكن لي بعد اسم أعرفه حين عرفت المصائب وعرفتني دهرًا طويلاً، صغيرة صغيرة حملت الهموم، هل هرمت الآن وأنا أقدم مدينة ما تزال موجودة في التاريخ؟ أنا اثنتان في واحدة، صبية أنا كشقائق النعمان التي في نشيد الإنشاد، عيناي حمامتان، اسمي عطر مهراق، وهرمة أنا كوجه القمر المتجعد، عجوز تهتكت منها الأسنان وابيضت حتى العظام، الشتاء يعصف ويمطر في صدري، انا الاثنتان معًا، زنبقة حقل يغمره الربيع، وهياكل مدن تداعى بعضها فوق بعض تنفث البخور العتيق وتتهاوى حولها القرون، أنا ابنة الجغرافيا ولكنني سيدة التاريخ منذ كان صلصال أرضي الطيبة، ومن حور وأرز هذا الوادي الممتد ورائي كمنعرج من الزمرد وقفت على رحلي قرونًا طويلة ظللت قرية ثم قرية كبيرة. مشكلتي الكبرى أني قمت في السهل، في مواجهة الصحراء

والرمال، وحدي قمت ليس ثمَّ حماية، ليس من حجر لبنائي ليس شيء يمنعني من أي مكتسح طامع. أنا لذلك مفتوحة الأبواب للناهبين من كل لون ومطمح كل غازٍ، حتى الطريقة التي وزعت بها مياهي على الأنهار السبعة تسهل على كل مكتسح قتلي عطشًا لأني أدرت ظهري للبحر، مصيري ارتبط بالصحراء، ولأني تركت الجبال والثلوج التي تقطع الطرقات ورائي، كان البدو دائمًا عند أبوابي، فأنا العروسة والضحية في وقت معًا، كل ما حولي من الصخر والرمال والتراب تحرقه الشمس تسعة أشهر في السنة إلا ترابي فهو في ظل وري وجنة نعيم، غير أنه يكتوي بنار أخرى من العيون الحمراء الطامعة وما أهون نار الجحيم.

هل أطلت في الحديث عن الدماشقة الأوائل؟ بلى.. ولكني تعمدت أن تعرفوا الدهر الأطول الذي قضيت قبل التاريخ قبل أن يخط أحد سطرًا منه، قبل القبل، القبور الحجرية التي تلمسون آثارها وبقياها على حوافي الوادي الزمردي، وادي بردى شاهد وشهيد، أو اسألوا التل المرتفع في مئذنة الشحم والخراب حيث ولدت، أسبروا غوره إن استطعتم، تقصَّوا أين تربعت التجمعات الدمشقية الأولى من جوانبي وكم مرة تطبقت بعضها فوق بعض، لو مددتم تاريخي خطّاً بيانيّاً لكان تسعون بالمائة منه يمثل مسيري في ظلمة القرون قبله والباقي هو عدة آلاف من السنين يمثل القسط الذي تعرفون.

وقد تضحكون معي بعد هذا من الأساطير التي وضعها التعالم أو الجهل لمن بناني ولمن سمّى، ما بناني نوح الأول صاحب الفلك المشحون، ولا أليعازر غلام إبراهيم الخليل، ولا بيوراسب الملك اليوناني، ولا عوز بن آرام، ولا دمشقش غلام الإسكندر ذي القرنين، أبانٍ واحد بعد آلاف البناة، وفي عمر رجل واحد وقد قضيت في التكون الأول آلاف السنين؟.

وأكثر سذاجة أولئك الذين يحاولون تفسير اسمي في معلوماتهم القاصرة، فتارة هو عربي من الدمشقة أي السرعة لأن بناتي الذين قضوا آلاف السنين في بنائي أسرعوا في البناء، وتارة هو من الرومان: دوموسكوس، أي المسك المضاعف، وثالثة هو اسم الباني الأول أيّاً كان.. تقلبت على أرضي أقوام عدة آخرها في القديم العموريون والكنعانيون والآراميون، ولست أدري من ذا الذي ترك لي هذا الاسم الغريب وما معناه؟ ولقد يعني

الدار المسقية بالآرامية (درمسقي) لكثرة انسياح الماء (قديمًا طبعًا) في عروقي، اليهود يسمونني أيضًا (دميسق) وفي ألواح إيبلا (دامسكي).. ولكن من ذا الذي يستطيع تبين الحق إلا تأويلا؟؟.

على أنني أعترف أنني أحببت هذا الاسم مع تطاول الأيام، وجعلت جميع الدماشقة على الدهور يحبونه، صار جنة فرح، صار هوية لي ولهم، وباب ترابط وكنزًا من الحنين المتبادل.

لمَ لا أقول ومن الحب؟ لقد أعطيت سكاني ما يشاؤون، كالكروم المباحة كنت سفحت لهم دون حساب خبزًا وخمرًا وفاكهة وزهرًا وحدائق غلبا.

كنت دومًا مدينة وافرة الخير، كنعانية قبل مطلع الألف الثاني قبل الميلاد كنت، بكل تأكيد ثم آرامية منذ أواسطه، والجذران في الأصل؛ الأول واحد عربي يمتد إلى قلب الصحراء العربية، لكن على أكتاف هؤلاء الآراميين دخلت التاريخ من بابه الأوسع، دخل اسمي (داماسكاه) النصوص الفرعونية والآشورية، انتقالي إلى الأيدي الآرامية كان المرحلة الحاسمة الانقلابية من تاريخي، مبارك أنت يا آرام.. فأنا ابنتك الكبرى.. وتكاثر الأهلون فوق ترابي وازدحمت السوق بالصائحين، وتراصّت البيوت فظهر من معالمي خمس ظواهر ميزتني كمدينة صرت بها رأس بلاد آرام:

١ – تعب الناس من حمل ماء بردى المنخفض إلى بيوتهم العالية فشقوا نهر أبانا (بانياس) ليروي المدينة الناشئة، وأرادوا توسيع الرقعة الزراعية لتكفيهم، فشقّوا نهر ثورا (الثور) بعده أو قبله.. متى كان ذلك؟ لقد نسيت. ولكن ذلك وضع الأسس الأولى لنظامي المائي.

٢ – بنوا بينهم وبين بردى هيكلاً للآلهة التي كانوا يعبدون، فما زال مكان عبادة إلى اليوم، أتذكرون الجامع الأموي؟ كان مكانه في الأزمنة معبد آلهة عدة إلى أن تنصب في صدره (حدد) .. ريمون الإله العاصفة قبل أن يتحول اسمه إلى جوبيتر الدمشقي.. ثم إلى الثالوث الأقدس ثم إلى الله الواحد الأحد.

٣ – أقاموا سورًا من الطين يحميهم من العيون الجشعة، كان سورًا متواضعًا ولكنه وسيلة حماية على أي حال، متى قام أول مرة؟ لست أدري ولكني وعيت نفسي وأنا متزنرة بسور، وفي قلبي ذلك الهيكل، وفي عروقي تتدفق أنهر ثلاثة.

٤ – ونبضت أسواقي والأزقة بالحِرَف وبتبادل السلع الزراعية والمنتجات وبعضها من العاج والذهب والبرونز، فاغتنيت بكل شيء.

٥ – في أثناء ذلك قامت من حولي، في غوطتي، مجموعة من القرى كما تنبت الفسائل حول الشجرة ثم ما انفكت تتكاثر بالانقسام الطبيعي وما تزال تحتفظ برنين أسمائها الآرامية الأولى: حرستا، كفرسوسة، داريا، عقربا، كفر بطنا، القابون، صحنايا.. وتذكروا أنتم الأخريات.

بذلك كله أصبحت ذا مركز سياسي، وطمع بي الفاتحون المصريون من الفراعنة، وفي عصر تل العمارنة (٥١ ق م) ورسائلها كانت (داماسكا) بعض من ممتلكاتهم جعلوها عاصمة ولاية (أوبي)، «جعلوني ناطورة الكروم، وأما كرمي فلم أنطره» وزاد مكاني السياسي بعد زوال الاحتلال، فأنا في عهد الملك (حدد) رئيسة اتحاد ولايات الشام الآرامية ضد شلما نصر الثالث الآشوري، ٢١ ملكاً كانوا معي، وقفت له وصمدت في أربع معارك بين سنتي ٣٥٨ ق م يوم ظهرت للمرة الأولى كلمة العرب في النقوش التاريخية و٨٣٨ ق م. ثالوث المجتمع الحضري في سورية الوسطى اجتمع بي، المركز السياسي، والوسط الاقتصادي ومقام الهيكل الكبير، وحملت مواضعي لأكثر من ألفي سنة أسماءها الآرامية، وقد تحدّث ابن عساكر الذي كتب تاريخي منذ ٨٠٠ سنة عن البريص في الشام، وهي موضع القلعة القديمة في التل المرتفع وعن النيبطون مكان سكنى الأنباط وعن الديماس (دائرة المال) والفرناق مكان عمل الفخار والفسقار مكان عمل شراب الفسقة والمسقلّاط مصلبة الأسواق المسقوفة، بل لا تزالون الى اليوم تتحدثون عن الشاغور والنيربين وباب جيرون.

الطريف أن معظم هذه المواقع كانت مواقع تجميلية وسويقات ممردة أنشئت بعد ألف سنة في عهد كاراكلا الإمبراطور الروماني وزميله سبتيموس سيفروس.. ولكنها حملت الأسماء المحلية الآرامية.

في تلك الفترة سيطرت على إسرائيل وجعلتها بعض أتباعي، حاربت ملكها ياهو، لم أترك له سوى خمسين فارسًا وعشر مركبات، الكنوز والذهب قدموا لي لكي لا أتابع

المسير إلى القدس، ثم عثر بي الحظ ذات يوم لأدخل النفق المظلم في التاريخ، في سنة ٤٣٧ ق م استجار أحاز ملك يهودا بالجيش الآشوري ضدي، فأخذ تغلات بلاسر الثالث ١٩ مقاطعة من مقاطعاتي مع ١٩٥ بلدة من حولي وهدمها حتى أصبحت مثل الكثبان التي يتركها السيل، ومع أن حليفه ملك شمأل قتل قرب أسواري وملكي رصين دخل الأسوار غير أنه أضحى مثل عصفور في قفص.. وطال الحصار حتى فتحت أبوابي فقتل الآشوريون المشهورون بقسوتهم مليكي وقطعوا أشجار غوطتي جميعها فلم تنج واحدة منها، قرعاء أصبحت وأخذوا أهلي أسارى على الأقدام، فنفوهم إلى حدود عيلام.

كانت تلك المأساة نهاية مجدي الأول.. ودخلت المرحلة الثانية من عمري، أفرغ من فؤاد أم موسى، قضيت معظم الألف الأول السابق للميلاد و٦٠٠ سنة من الألف الميلادي بعده في مدّ سياسي وجزر محيرين، في دوامة من الأيدي دخلت، ومع أني عدت فجددت أهلي وزرعت غوطتي، لكني سبيّة كنت بين السَّبايا برغمي وإن احتفظت بروحي والملامح والعنفوان. تداولني بعد الآشوريين الفُرسُ الاخمينيون، ثم جاء من أقصى أيونيا الإغريق، واشتجرت فوق رأسي المؤثرات في العصر الذي يسمونه الهلنستي.

وجاء الرومان ثم ورثهم الروم.. أممًا متوالية جاؤوا كلاً منها تجرب حظها في هذا الموضع لتلاقي الطرق والأمم في المصلبة الدمشقية، غريبة عشت خلال هذه الفترة، غريبة عن تكويني الأول وملامحي الموروثة ألفًا ومائتي سنة أو تزيد..

من الآشوريين والأخمينيين بعدهم ما أخذت شيئًا سوى خمول الذكر، لم يكن عندهم شيء يعطونه، وماذا يقفر البين من الديار الخالية؟ الفترة الخطرة جاءت مع الاسكندر المكدوني بعد معركة ايسوس شتاء سنة ٣٣٣ ق. م، قرابة ٢٥٠ سنة من العصر الهلنستي، بعد ذلك ظللت تحت وابل من التأثيرات الإغريقية والتأثر الإغريقي قوي طاغٍ أسر، لكني أصبت بالدوار وأنا أنتقل من أيدي السلوقيين إلى البطالمة وبالعكس، يتنازعني الطرفان، وخلال ذلك جاءني الأنباط، وهم أبناء العمومة، واحتلوني مرتين قبل أن يأتي الرومان في النهاية سنة ٤٦ ق م فيجعلني إمبراطورهم بومبي مقاطعة رومانية، ألحقني بالغرب ثقافة وارتباطًا، اقتطعني أو تصور أنه اقتطعني من جذوري الشرقية، وجاء من بعده هادريان فأعطاني وضع «المتروبوليس» أي المدينة المميزة، وتلاه اسكندر سيفروس

فمنحني شرف أن أكون مستوطنة رومانية. ثم أقام ديوقلسيان في جانب مني مصانع أسلحة، وامتدت يد كاراكلا إليَّ بالتجميل والتزويق.. إنها امتيازات وأوسمة، فأين كنت أنا من كل ذلك؟؟ استفدت من السلم ومن اتساع الإمبراطورية في النمو الاقتصادي، صرت مركزًا اقتصاديّاً دوليّاً لاشيء أكثر من ذلك.

الفيض البشري الإغريقي ثم الروماني الذي تدفق على الشام كله أصابني بالطبع، لكن البلاد كلها أدارت له ظهرها وكذلك فعلت، ظل الغرباء غرباء، بنوا لأنفسهم مدناً جديدة أو توضعوا في أحياء خاصة بهم بجانب مدننا، الطارئة التي وصلتني منهم توضعت إلى الشرق مني كأنها تضاهي بالشوارع المستقيمة المنظمة اعوجاج دروبي وأزقتي القديمة، صرت مدينة مزدوجة لكل منها حياتها مثل شانغاي، ما كان هذا هو الفارق الوحيد.. صرت أتكلم في العهد اليوناني لغتين: اليونانية والآرامية ثم أضفت الثالثة إليهما في العهد الروماني فصرت مثلثة اللغة، ما تنازلت أبدًا عن لغتي التي أضحت مع كتابتها لغة التجارة العالمية في الشرق، بها تكتب أحمال القمح والزيت والخمر لجيوش روما في الشرق أو لعامة روما الكسالى في الغرب.

صحيح أني كسبت من العهد الروماني أربع ظواهر عمرانية رائعة: كسبت قيام سور حجري مستطيل حولي يزنرني مع الأحياء الجديدة فيه سبعة أبواب، وكسبت فرعًا جديدًا من بردى «هو القنوات» التي أمدتني بالماء الجاري، وكسبت بناء الطريق المستقيم «فياركتا» بين الباب الشرقي وباب الجابية بأعمدته الرائعة على الجانبين وأقواسه المتسقة وتماثيله وسويقاته ورواقه المسقوف، وكسبت أخيرًا إعادة بناء الهيكل من أساسه ضمن سورين مربعين يمثل أكبرهما الحرم ويمثل الثاني الداخلي مكان الإله وكنوزه، أطلال بوابة المعبد ما تزال قائمة، ألستم ترونها عند مدخل الجامع الأموي؟؟ ولا يخطرنَّ في البال أن الرومان هم الذين بنوا وأثلوا، ولكنهم أبنائي وأبناء هذه البلاد هم الذين فعلوا وبنوا، فإن يكن ذلك على الطراز اليوناني – الروماني، فلأن ذلك الطراز كان «موضة العصر» تمامًا كما تقلدون اليوم البيوت الغربية، منّي، من أبنائي كان أعظم معمار في العالم القديم (أبولودوروس الدمشقي) الذي بنى لروما ميدان تراجان المعروف هناك، والجسر العملاق على نهر الدانوب، في تلك الأيام، قال جوفنال شاعرهم الهجاء: «إن العاصي صار يصب منذ زمن في نهر التيبر حاملاً معه رطانته وعاداته وقيثاره وأوتار عوده..».

لقد يكون بعض أبنائي قد شدوا شيئًا من الثقافة الإغريقية أو أوغلوا كل الإيغال فيها مع الزمن المتطاول أمثال نيقولاووس الدمشقي الذي فاق بوسيدونيوس كفيلسوف ومؤرخ والذي عاش في بلاط هيودوس أيام السيد المسيح وعرف شخصيًا الإمبراطور أوغوسطوس، وزار روما وألف تاريخًا عامًا له شأنه، ولكن ثقافتي الخاصة ظلت حية في أبنائي.

والغريب أنه في العصر الهلنستي زوروا أسماء المدن في الشام؛ فعكا صارت بطوليمايوس، وبيسان سيكثوبوليس، وبيروت لاوديسا، وعين جر خالكيس، وشكيم نابوليس، أما اسمي فقد فرض نفسه، لم يتغير، بل إن إلهي (حدد) الإله الصاعقة لم يلغوه ولكن حوّروه فصار (جوبيتر الدمشقي)، وعُبِد وصُلِي له في روما ذاتها، وحين سادت النصرانية حملت صليبها وكان مني بولس الرسول، ولعل ذلك لأنها بنت أرضي وسمائي وتصوراتي الكونية. أبدًا ما كنت غريبة عنها ولا كانت غريبة عني، أما الغرب فكان على الدوام هلالة خارجية، قشرة ما انغرست في كياني أبدًا، لقد أخذت ثقافته، بنيت على أساسها زخرفًا وأقواسًا وعمرانًا وفلسفة، أخذت من الغرباء خير ما لديهم، لكني أبقيت مكامن الجذور مني في منأى عن الانصهار في القالب الغريب.

بعد هذه الجولة الطويلة في التاريخ القديم قد تقولون: أدرك دمشق الهرم، ومع الهرم، مرض العجائز، إنها تطيل وتثرثر عن الماضي كائنما تريد تعويض الحاضر، ولن أمتعكم طويلاً بهذه المتعة الحرام فما تحدثت هذا الحديث إلا لأشعركم بعمري الطويل الطويل قبل أن يحل الانقلاب الثالث والأخير في تاريخي بدخول خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح إليَّ بالإسلام في أيلول سنة ٤١ هجرية و٦٣٦ ميلادية، لقد عادت بذلك ذاتي إلى ذاتي، عدت إلى جذوري، التقى حديثي بقديمي يوم الفتح وإن يكن ذلك بلهجة جديدة هي العربية، وبدين جديد هو الاسلام، ولكن هل استقر تاريخي وهدأت؟.

هل ألقت عصاها واستقرت بها النوى؟ أبدًا ظل حظي يرقص على الموج صاعدًا هابطًا، ودمشق إن حكت حكت الكثير، مخزونها من التجارب والأخبار ولا ينابيع الأنهار! عرفت من المجد لحظات ندر أن عرفتها مدينة، وعرفت من الأيام السوداء ما يبكي الحجر، شيء واحد لم أعرفه هو مذلة اليأس، هل تذكرون المنذر بن ماء السماء الذي كان له يومان

في السنة؛ يوم بؤس ويوم نعيم؟ كذلك كنت أنا وإن كانت أيام بؤسي أكثر وأقسى، وماذا أذكر لأذكر؟ اغمضوا الأعين وتذكروا إن شئتم يوم كنت محور العالم كله وسيدته الأولى قرنًا أو حوالي القرن في العهد الأموي، أو يوم قدم علي موسى بن نصير يسوق آلاف الأسرى وأنفس الغنائم من الأندلس في موكب لن يتكرر مثله إلا في القسطنطينية وروما، أو يوم سكرت من الفرح ورقصت حتى حجارتي بنصر صلاح الدين في حطين، وبين أسراه في الأغلال ملك الفرنج، أو عقب هزيمة المغول الذين لا يغلبون في عين جالوت أو يوم اجتمع ضمن أسواري في وقت معًا أقطاب العلم: شمس الدين الذهبي والصلاح الصفدي وابن شاكر الكتبي والشهاب العمري، أو يوم فخري بأبي تمام وبالشيباني واضع القانون الدولي أو بالفقيه السبكي او بابن طولون الصالحي، وما ذكروا بالمقابل يوم استباح العباسيون ترابي ونبشوا حتى الموتى الذين في القبور ونثروا الأشلاء في أرجائي وهدموا سوري فما بقي منه حجر على حجر، أو يوم فعل الفاطميون الشيء نفسه، فثرت عليهم وأحرقت لهم القصر الذي كان في ظاهر السور بين البساتين، ويتسع لعشرة آلاف إنسان، فأحرقوا جانبًا من جوانبي وتركوا الجامع الأموي أطلالاً بأنصاف الجدران، ولا أتحدث عن أيام المجاعات وما أكثر وأقسى، والطواعين وما أشد وأفتك، والحرائق وما تلتهم النيران، وسنوات الجفاف حتى ما تسيل قطرة في مجرى أو ساقية، هذا إلى سنابك الخيل المغيرة وبكاء السبايا في نكبة غازان وتيمور.. ومع ذلك فقد ذهب ذلك كله وبقيت دمشق هي دمشق.. مدينة أنهض على بقايا مدينة.

ودفـــينٌ عـلـــى بــقــايـــا دفـــينٍ
ضــاحــكٌ مـــن تـــزاحــمِ الأضْـــدَادِ

بل كنت أنهض وأتسع ثم أتسع.. فكأن كل كبوة مقدمة للانفراج والفرج، في ذاكرتي المثقلة كشجرة المشمش في الإبان عشرات ألوف الصور، هل أختار لكم صور من كل لون؟.

من الخلفاء: عرفت الخلفاء الأمويين واحدًا واحدًا، ولكن لم أر بعدهم من الخلفاء العباسيين سوى المأمون والمتوكل الذي جرّب أن يعيدني دار ملك، وانقضت ثلاثمائة سنة بعد ذلك حتى رأيت سواد نور الدين وصلاح الدين، ولئن زارني بعض سلاطين المماليك

فقد كان آخر من زارني هو السلطان سليم العثماني الفاتح.. أطرف المواكب التي مرّت في طرقاتي مواكب سلاطين المماليك الذين كانت ترفعهم إلى العرش مؤامراتهم وحماقة الحظ، على ما بهم من جهل وجشع وشراسة، فكانوا يعوضون عن ذلك باصطناع الفخامة، كانت تزين للسلطان المقصورة الخاصة في الجامع ويقام من حولها الحرس بالسيوف والحرير المذهب.

وتخب السنابك بالعمة الضخمة والمظلة الصفراء فوق رأس السلطان والسرج المطرز تحته على الحصان الأبيض وقد يحمل السرج أمامه في الموكب وترفع الرنوك والسناجق وعليها ألقاب السلطان ونقوشه أمامه من حول ذلك أمام الموكب ووراءه أعداد كثيرة من الطبول والكوسات تضرب بالضجة والصَّخب، ومن حول السلطان ومن خلفه الأمراء يرتدون الأقبية الحمراء ويعتمرون العمائم الأنيقة من أثواب الحرير المحاك بالذهب، ويشترك رنين سيوفهم مع صخب السنابك والسروج التي تتدلى من جوانبها الأقمشة المزركشة الثمينة وأمام الجميع المباخر والدفوف والسناجق.. وعلى الناس في الجانبين أن يضجوا بالدعاء للسلطان بالنصر وطول العمر، اما المنافقون فكانت في أيديهم الأقلام وفي أفواههم تعلك اللجم.

من صور البناء؛ كان الجامع الأموي الذي يقولون إنه كان كنيسة فحوله الوليد بن عبدالملك إلى مسجد، حتى لو كان الأمر كذلك فماذا فيه؟

كنيسةُ صارت إلى مسجدِ
هديةُ السَّيدِ للسَّيدِ

ولم يكن الأمر كذلك أبدًا، الوليد هو الذي منحني هذا الأثر الخالد وجعل ترابي:

أمويّ الهوى أحبّ فما دا
رى وعادى على هواهم وعودي

الصورة التقليدية للتقسيم النصفي بين المعبدين لم تكن صحيحة، المعبد الوثني القديم الذي كان يقوم في سور مربع ضمن سور أوسع منه كان مكرسًا للإله (حدد) مدة تزيد على ألفي سنة صار اسمه في آخرها جوبيتر الدمشقي، وانتشرت النصرانية بعد

ذلك في القرن الرابع الميلادي، وقلّ الوثنيون، فأقام الإمبراطور تيودوسيوس الأول سنة ٣٧٩م في داخل السور الثاني كنيسة القديس يوحنا المعمدان (النبي يحيى) وحين دخل المسلمون سنة ٦٣٧م إليَّ، سكنوا ساحة الحرم بين السورين ومنطقتها وأقاموا في الجهة الجنوبية من الساحة مسجدًا فلم يكن ثَمَّ أرض خالية سواها لاقامته، متوسطًا كالعادة بين الأسواق كان يكفيهم.

وجعلوا في جنوبي المسجد قصر الخضراء مقرًا للحكم، وما من شك في أن تسميته بالقصر واسعة عليه، وجعل معاوية بين مقره وبين الجامع ممرّاً مسقوفًا ليعبر مباشرة إلى المسجد، سكن المسلمون من حول القصر والسور والجامع، كان النواة الإسلامية لي، على أن تحوّلي إلى عاصمة إمبراطورية جلب لي الكثير من العرب المسلمين، كما أن قسمًا متزايدًا من سكاني تحولوا إلى الإسلام، فاختل التوازن الديموغرافي واحتاج المسلمون المتزايدون بعد أربعين وخمسين سنة من «الدمشقة» إلى مسجد جامع توسط، وكان الحل الوحيد أمام الوليد أن تزاح الأبنية والكنيس التي قلَّ روادها معًا لإقامة جامع يليق بالامبراطورية المترامية، وهكذا بادل النصارى بكنيسة الحرم كنيسة مريم وكنائس أخرى فتوافرت له الساحة الكافية لإقامة جامع، واحتفظ بمقام النبي يحيى فيه فلا يزال إلى اليوم قائمًا.

ونسي الناس تكاليف القصر الباهظة كما نسوا مهندسيه والبنائين الذين عملوا فيه مدة خلافه الوليد عشر سنوات ونسوا حتى الوليد وبقي لهم منه هذه المؤسسة الضخمة بفسيفسائها والمساحة الشاسعة.

من صور النظام المائي ما أزال أذكر قصة نهر يزيد، نظامي المائي قديم آرامي الجذور، وقد تعقَّد مع الأيام الرومانية فهو يوزع بالعدان وربع العدان وبالساعات المعدودة ليل نهار، لقد استغنيتم اليوم عن ذلك الجهاز المعقد للري، سواقي ومجاري وطوالع وأنهارًا وقنوات، أو هو الذي استغنى عنكم، أنسيتموه؟ فأنتم وراء الماء بالقطارة والماء مفقود ... قديمًا منذ ستة قرون قال شيخ الربوة: دمشق التي تعرفون ثلاث مدن: دمشق التي تعرفون واحدة، القرى المنتشرة في الغوطة مدينة أخرى، وشبكة المياه تحتها مدينة ثالثة.. ونهر يزيد آخر الأنهار تفرعًا عن بردى في الزمن، وكذلك فهو أول الأنهار تفرعًا

عنه في المكان، يأخذ من بردى عند الهامة قبل أن يأخذ أي نهر. يزيد بن معاوية الذي كان مهندسًا هو الذي اقترحه وشارك في تخطيطه، ولعل ذلك كان منذ أيام أبيه، وقد أخذ النهر مجراه في لحف الجبل وفي أنفاق فيه، فهو معجزة هندسية أقامها لإيصال الماء إلى قرى برزة وحرستا والقابون لتوسعة الغوطة الزراعية بعد ازدياد السكان، ولكي يحق له الماء اشترى هذا الحق من جميع أصحابه فصار ليزيد النهر أن يأخذ آخر قطرة من بردى ولو لم يبق فيه قطرة، كما كان آخر تعديل في نظام ري الغوطة ونظامي قبل هذا العصر، لم تعد تضع قطرة من برداي سدى، كان أبنائي يمتصون كل عروقي كما يمتص الرضيع ثدي أمه وهي راضية متلذذة بلذة كالخدر، أما رافد بردى الثرّ: الفيجة، فهو يرفده قبل أن أوجد وتسمونه نبع الفيجة، وابتسم، فالإغريق دعوه (بيجيه) أي النبع، وقد نسيتم معنى الكلمة الإغريقية وجعلتموها اسمًا للنبع.

ودعك بعد هذا من صور الشقاء والتعاسة والكوارث، لا تسألوني، تجرعتها بكل أشكالها.. وتصمت دمشق تتجرع غصتها وهي تذكر الحرائق والطواعين والمجاعات والزلازل التي عرفت.

الزلازل؟ ما أكثر ما خربتني وجعلت أبنيتي الضخمة أنقاضًا تنعى كل من بناها، وأعود فأعاود البناء، الحرائق؟ كانت تأكل جسدي بين الفينة والفينة لهذا فإني أدرك بوضوح لماذا توعد الله الكفار بالنار، إنه يعرف أنها أرهب مخلوقاته، ألسنة اللهيب سهلة النشوب جميلة كألسنة التنين، أما حين تنشب في مباني الطين والتبن والخشب كالمباني التي أنشئت منها فالعياذ بالله من نار الجحيم، وكم عرفت ذلك مئات المرات، وكم أتى جانح النار على بيوتي فجعلها رمادًا كأنها لم تغن بالأمس. صاحب كتب ذهب له مرة في الحريق خمسة عشر ألف كتاب، وأحياء كثيرة هلكت مني، فالناس على أنقاضها كأعجاز نخل خاوية.

الطواعين؟ صارت في بعض الفترات جزءًا من مصيري اليومي، كثرت في أواخر العهد الأموي وخفّت بعد المذابح العباسية، فقال المنصور لبعض أهل الشام: احمدوا الله على أنه أذهب عنكم الطاعون بمجيئنا، فأجاب الشامي: الله أرحم من أن يجمعكم والطاعون علينا، وكثرت في القرن الخامس والسابع والعهد المملوكي، في طاعون سنة

٩٤٧م كانت الناس تتساقط وهي في الجنائز، كان الطاعون يجرف مني يوميّاً ما بين ٧٠٠ الى ١٠٠٠ إنسان لمدة أشهر عدة، وقد ذهب بجماعة كبيرة من العلماء والوجهاء، أقفرت أسماقي والأزقة حتى من المارة، وحين خفّت حدته كان الباقون من سكاني كالمبعوثين من القبور ينفضون عنهم غبار الموت.

أما المجاعات فدعوني أحدثكم عن واحدة منها: أكثركم لا يعرف من هو أتسز الخوارزمي، لم يسمع به ولكنه كان في مطلع الغزو التركي السلجوقي لأرضي، صاحب العرش عندي فترة بعد أواسط القرن الخامس الهجري ١١٠م - أمه أعطته هذا الاسم، ويعني من لا اسم له، ليعمى عنه الموت بعد أن كانت تفقد أطفالها صغارًا، ولكنه عاش وأضحى زعيم عصابة من الترك السلاجقة زحف بها حتى الأناضول، ثم إلى الشام.. كان الفاطميون هنا في الجنوب فأخذ منهم الرملة والقدس ثم ارتد بطمعه إليّ، واصل الغارات على أعمالي سنوات بعد ٣٦٤ هجرية، ورعى زرعي سنوات في كل ربيع حتى خربت المنازل، واستفاض الغلاء، وانقطعت الأقوات، وجلا أكثر السكان عني، فالأحمال المتواصلة هاربة بأهلها، استمر ذلك خمس سنوات حتى اضطر الناس إلى أكل الجيف والموتى وأكل بعضهم بعضًا.. حتى استسلمت، وحسبت أن الشدة قد زالت لكنها اشتدت بما نهب الرجل من متاعي وأهلي ليخرج إلى مصر فيفتحها سنة ٤٦٨هـ، ولكنه هزم هناك هزيمة شنيعة، وعاد إليّ في خمسة عشر فارسًا فقط. وقد نهبت أمواله وقتلت رجاله، فوجدني أسوأ حالاً منه.. وخرج أهلي يقولون له: قد عرفت أنه لم يبق في هذا البلد عشر العشر من الفاقة والجوع والفقر والضعف، ولم يبقَ لنا قوة.. فلا تجعل العدو سببًا في هلاكنا وأنت تعلم أن الجامع الأموي احترق قبل سنوات مع قسم من البلد فهو من دون سقوف، وليس لنا قدرة على بناء جدار من جدرانه بعد أن نهب العدو منا ما يساوي خمسمائة ألف دينار، وصار الناس يُصَلُّون على التلال والتراب.. فتحول أتسز عني فترة، فلما عاد، كنت في الكرب الأشد (لم يبق لي من أهلي سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد خمسمائة ألف أفناهم الفقر والجلاء والغلاء، وكان بي مائتان وأربعون خبازًا فصار لي خبازان، والأسواق خالية، والدار التي كانت تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادى عليها بعشرة دنانير فلا يشتريها أحد، والدكان الذي كان يساوي ألف دينار ما يشترى بدينار،

وكان الضعفاء يأتون الدار الجليلة ذات الأثمان الثقيلة فيضرمون فيها النار، فتحرق ويجعلون أخشابها فحمًا يصطلون به وأكلت الكلاب والسنانير، وكان الناس يقفون في الأزقة فيأخذون المجتازين، فيذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم، وكان لامرأة داران قد أعطيت قديمًا من كل دار ثلاثمائة دينار أو أربعمائة، ولما ارتفعت الشدة عن الناس قليلاً ظهر الفأر، فاحتاجت إلى سنور، فباعت إحدى الدارين بأربعة عشر قيراطًا واشترت بها سنورًا، كان ذلك قبل الحروب الصليبية بربع قرن.

ومع ذلك فقد كنت بعد سنوات قد نهضت من كبوتي، صرت دار ملك ولي عشرة آلاف فارس يوم نزلت الصليبيات، وتصوروا من بعد هذه الكوارث متصلة متناوبة القرع تنزل بي وقد:

بذلت لها المطارفَ والحشايا
فعافتها وباتتْ في عظامي

ومع كل ذلك، كنت أجتازها بصبر وأتوسع بعدها في عناد وإصرار.

وصمودي لكوارث الناس لم يكن بأقل من صمودي لنوائب الدهر، لكني أبدًا ما فقدت الأمل في الغد الأفضل، أبدًا ما تركت عبوس الدهر يتسلل إلى قلبي ويمحو البسمة عن ملامحي أو يمنع ياسميني من نشر العطر وشجر اللوز من معاودة الثمر.

هل أحكي لكم قصة من قصص الصمود؟.

كانت الحروب الصليبية قد مضى عليها نصف قرن حين خسر الفرنجة أول إماراتهم قيامًا: وهي الرها سنة ٩٣٥هـ، طردهم منها زنكي والد نور الدين، وكانت فاجعة، تبين الفرنجة فيها للمرة الأولى كما تبين المسلمون أن الفرنج ليسوا بالسيف الذي لا يهزم، وثارت أوروبا كلها، وتجهز إمبراطور ألمانيا في الجمع الذي لا يحصى كما تجهز ملك فرنسا، ذكروا أنهم كانوا يزيدون على ألف ألف عنان. شيخ مؤرخيكم ابن الأثير كتب: لو وصل هؤلاء إلى الشام لكان يقال: كانت هذه ديار المسلمين، السكك كانت تزحم، المركبات على الطرق، والغبار يعمي العيون في السفوح، والرجالة تزحف كأرجال الجياد عبر الهضاب مبيدة الغرس والحرث، ودب الرعب في الشرق الإسلامي كله كما لو مسته الراجفة، لو جاؤوا.. إنها الحملة الصليبية الثانية.

ومع أن العدد الوفير قتل على الطريق أو هلك أو غرق في الأنهر أو غاله الجوع والمرض والتعب، ومع أن الحملة الألمانية لم يبق منها سوى ألف رجل، فإن ما وصل في النهاية على المراكب إلى صور وعكا وانطاكية كان مرعبًا، كانوا زحفًا بشريًا. وفي اجتماع إمبراطور الألمان مع ملك فرنسا وملك القدس الفرنجي والأمراء الباقين في عكا تقرر أن يزحفوا على دمشق، ولم يكن لي إلا التأهب.. وهل أستطيع اقتلاع جذوري والفرار؟.

وتغمض دمشق العيون وتتذكر: اهتزت الأرض بما معهم من السواد والجمال والأبقار والخيل وهم يدنون من غوطتي حتى نزلوا في النهاية بالمزة المشرفة على ماء بردى، وفرّت الغوطة بمن فيها إلى داخل أسواري. احتضنتها شيبًا وشبابًا وولدًا، وحين اشتجر القتال استظهر الفرنج على المسلمين وغلبوا على الماء وانتشروا في البساتين، ولم أشعر إلا وهم على بابي، باب الجابية، وقد ضرب ملك الألمان خيمته في المرج الأخضر.. ما اقترب أحد من قبل هذا القرب من أسواري أبدًا.

شرعوا في قطع الأشجار والتحصين بها، وفي هدم القناطر وقطع الماء وقد لحق الناس من الارتياع هرج القلوب من الحناجر، وكتب أنر الأتابك الذي كان يتولى الدفاع على أسواري إلى الملأين يمجد، كما قضيت عشرة أيام والدماء تجري مع الماء في بردى وفروعه التي قطعت، وانساح الفرنجة في الوادي والغوطة وكان زمان الفاكهة والمشمش ينوء به الشجر فالتهموا منها الشيء الكثير فأحلت أجوافهم ومات منهم الخلق الكثير، ومرض الباقون، في حين ضاق بأهلي الحال فأخرجوا الصدقات على قدر أحوالهم واجتمع الناس في الجامع رجالاً ونساء وصبيانًا، ونشروا مصحف عثمان، وحثوا الرماد على رؤوسهم وبكوا يتضرعون إلى الله.. كان سقوطي بيد الفرنجة محتومًا ولكنه مسألة وقت، وانتقل الفرنج بثقلهم جهة الباب الشرقي، وهموا أنه الأضعف، في صباح اليوم العاشر ركب قسيس الفرنج الكبير الطويل اللحية حمارًا وعلّق في عنقه صليبًا وجعل في يديه صليبين وجمع بين يديه الأناجيل والكتب والخياله والرجالة، فلم يتخلف عنه إلا من يحفظ الخيام، وزعم لأصحابه أنه رأى السيد المسيح في النوم فوعده بالفتح ذلك اليوم، كانوا قد تقاسموا قبل ذلك حتى أحيائي والدور فيها فيما بينهم، ولم يختلفوا إلا

على من يمنحونه تاجي ويجعلونه الملك، وخرج أهلي يائسين مستسلمين للموت في حملة لم يُرَ في الجاهلية والإسلام مثلها، وقصد واحد من أولادي الأحداث ذلك القسيس وهو في أول القوم فضربه وأبان رأسه وقتل حماره، فتزعزع الجمع الفرنجي وانهزم، وقتل منهم حوالي عشرة آلاف، وتبع الناس الباقين إلى الخيام حتى حجز الليل بين الطرفين.

عند الصباح ساد حول أسواري الهدوء المريب، لم يظهر من الفرنج إلا الأقلون يناوشون، ومرّ يوم ويوم وتبين لأبنائي أن الفرنج ترحلوا.. كيف كان ذلك؟ الخوف والخلاف والرشوة كلها فعلت فعلها كما فعل مشمش الغوطة فعله.

وهزمت الحملة الصليبية الثانية بملوكها الثلاثة.. ومنذ ذلك الحين طارت سمعتي في الآفاق بأني مباركة وأن الكفار لا يدخلون رحابي ففيها أربعون نبيّاً، هذه السمعة جذبت إليّ أمرين:

– توافد السكان عليّ دومًا التماسًا لبركة أرضي مرقد الأنبياء.

– المباني الدينية الرائعة التي زيَّنني بها الأيوبيون والمماليك والعثمانيون من المساجد والتكايا والزوايا والمدارس.. للمرة الخمسين أتعلم أن السمعة الدينية تطعم لبنًا وعسلاً، وهكذا كنت مع كل هذه الكوارث والمآسي أو ربما بسببها أنمو وأكبر وأتسع.

حكايتي الأخيرة لتكن عن توسعي، ومن ذلك إنشاء مدينة العلم في جانبي وتحت كنفي، إنها الصالحية قبل أن يمضي على احتلال الفرنجة لفلسطين نصف قرن كان قد لجأ من أهلها الكثير يفرون من الإقطاع الفرنجي هناك، وكانت تترصدهم الأرصاد في الأغوار لئلا يهربوا ولكنهم كانوا يهربون، من الهاربين كان الشيخ من جماعيل قرب نابلس يعرف بأبي عمر ابن قدامة، حنبلي، ديِّن، جاء الشام ثم لحق به بعض أهله وبلده، وكان أهلي من الشافعية، وكان لسوء الحظ بينهم وبين الحنابلة إحن طويلة، في بغداد. لم يستطيع أبوعمر الاندماج مع أهلي عدا أنني كنت مكتظة بالناس وعلى أبواب انفجار سكاني بسبب حلول نور الدين في رحابي، وله سمعته العريضة بالدين والعدل تجتذب الناس، فاختار أبو عمر مسجد الشيخ رسلان ثم مسجد أبي صالح بظاهر باب توما ينزل به مع أهله المتكاثرين، وكان المكان موبوءًا، فكثر فيهم الضعف والموت، وخرج الرجل

يلتمس لهم مكانًا أروح، الغوطة كلها مسكونة وغالية الأثمان، لم يكن ثمَّ من مكان خالٍ، وإن كان مخيفًا سوى سفح قاسيون، صحيح أن لا ماء هناك إلا نزحًا من نهر يزيد، ولكنه منزل مجاني، وبنى الرجل لأهله هناك مسجدًا من حوله بعض المنازل (هو اليوم جامع الحنابلة) وبنى لنفسه على النهر مدرسة عرفت بالعمرية لا تزال أطلالها قائمة.

ما كان أبو عمر ولا أولاده يدرون أنهم يضعون لذلك نواة مدينة علم بجانبي جديدة، تكاثر الطلبة أولا ثم تكاثر الحنابلة القادمون من كل فج إليّ، ونبتت مع التكاثر البيوت والأسواق كالفطور، وأعجب المتصوفة ومتقاعدو الجند وكبار القادة بالمكان، فأقاموا فيه مقابرهم بالقباب والأوقاف والتكايا والزوايا، فاذا بالموقع يصبح في أقل من قرن أول مدينة كرست للعلم في العالم الإسلامي.

بنو قدامة، الأسرة التي بنت أول حجر في الصالحية أطلعت في العهد المملوكي مع ما تفرع عنها أكثر من ستين عالمًا وقاضيًا للقضاة، ابن تيمية كان من الوافدين إليها، تيمور دمرها قبل تدميري، وعدت وعادت وظلت ربيبتي ورضيعتي، وفيها ممن دفن الشيخ محيي الدين بن عربي والشيخ عبدالغني النابلسي، وزوجة نورالدين، وصلاح الدين، وأخت صلاح الدين، وفي الوقت الذي كانت تنمو فيه الصالحية كانت طارئة جديدة من متقاعدي جند صلاح الدين وأهلهم تتموضع في شرقها مؤلفة حي الأكراد (نور الدين اليوم).

هذه الهبّة الديموغرافية التي كونت مدينة الصالحية الصغيرة بجانبي سبقتها هبّات ولحقت بها من بعد هبّات أخرى.

التكاثف السكاني بدأ يرهقني ضمن حدودي في العهد الأموي، سوري المستطيل لم يكن يسمح بالانتفاخ، وحين نكبني العباسيون بهدم هذا السور كله تنفست أضلاعي، وحين أعيد بناء السور في العهد الطولوني والإخشيدي، كان السكان قد تجاوزوا القديم في الجنوب وفي الغرب، فقام الجديد يحتضنهم أو يحتضن على الأقل بعضهم، أما المساكن الأخرى وتلك التي بنيت في العهد الفاطمي الأول فأسست ضواحي تتبعني كالعقيبة في شمالي، والشاغور في الجنوب، وقصر حجاج في الجنوب الغربي، على أن

سكانها كانوا عند كل نكبة يفرون كالعصافير المذعورة إلى داخل الأسوار، وحين وصلت الطلائع التركية الأولى أنشأ بي أتسز الذي عرفتم مملكة صغيرة تمتع بها أخو السلطان السلجوقي ملكشاه تتش ومربيه من بعده طغتكين.

أسماء غريبة على السمع ولكنها لرجال حكموني فترة حسنة، وقد اقتضى الأمر أن تقوم قلعة، فاختار أتسز موقعها في الشمال الغربي، وبدأ التنفيذ ولم يكمل، فأكمله تتش، لم تكن قلعة بالمعنى الحربي للكلمة ولكنها كانت دار ملك، فيها يسكن مليكي ودواوين الدولة والحرس وبعض الحاشية، لكن لها مع ذلك خندقًا يطيف بها، فلم يكن الحكام يأمنون ثورة الشعب عليهم، وارتحت بعد ذلك الى حكم نورالدين وصلاح الدين، لكن الفرنج هم الذين هددوني أكثر من مرة، فكان لابد من تقوية القلعة والأسوار ولاسيما وقد بدأت أصبح مركز دفاع أول ومركزًا ثقافيًا هامًا بد أن أنشئت بي بعض المدارس لنشر السُّنة. صارت القلعة تحوي كل مظاهر وعوامل قوة التحكم، ففيها السجن وبيت المال ودار سك النقود، كما أن لها سوقها وجامعها وحمامها، إنها أشبه بالمدينة الملكية المستقلة أو بالمدينة الصينية المحرمة.

ويتصل بالقلعة مرج هو (المرجة) اليوم، كان صلاح الدين يلعب فيه مع نور الدين الكرة والصوالجة «لعبة البولو»، وعن طريقها تعارفا واتصلت المودة بينهما واستمر السلاطين ونواب السلاطين من بعد كل ذلك، لكن المرجة صارت بجانب الألعاب العسكرية ميدان استعراض الجيش ومنطقة التدريب: وكان من بعدها مرج آخر أوسع منه (هو مرجة الحشيش) تهجر فيه الحيوانات المكسورة والعاجزة ولها أوقات لإطعامها حتى تموت.. وتحكي دمشق فتقول: خلال ذلك كانت الضواحي الصغيرة التي قامت حولي تكبر وتكبر، وقد بني في كل منها جامع، ودخلت في التوسع، الميدان الشاسع الذي كان في جنوبي والذي كان ينزل من أضيق بنزوله من النازلين كمواكب الأمراء والوافدين وقطع الجيش وقوافل التجارة، كما يلعب فيه الفرسان، امتد جنوبًا بعد أن بني فيه مصلّى العيدين (باب مصلّى) واتخذه تجار الحبوب موضعًا لاستقبال حبوب حوران فامتد ضيّقًا ثم امتد مع تنافس التجار وطمعهم في ملاقاة القادمين على طريق حوان ومصر والحجاز، في الحين نفسه وفي زمن المماليك امتدت المساكن على امتداد نهر القنوات حتى مقابر الصوفية

(البرامكة) وفي ظاهري على باب القلعة الشمالي قام حي جديد بدأ يأكل جوانب ساحة المرجة ولكنه يقوم بحاجة الجند سماه الناس تحت القلعة، فيه سوق الخيل والسروجيون وصانعو الأسلحة وباعة الشعير والتبن وأصحاب المطاعم والخمارات وصناع الأدوات الزراعية.. وكانت المساحات ضمن أسواري تفرغ من سكانها ليبني الحكام أبنيتهم من المساجد والمدارس، وخرجت الدباغات والفواخير خارج الباب الشرقي، وكان الموسرون يخرجون الى البساتين في شمالي حيث تشكل حي العقيبة الكبير وسويقة ضاروجا وإلى الغرب الجنوبي حيث تشكل حي السويقة وكلها في البساتين.

النكبة التي عشتها بعد تيمورلنك في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ذهبت ببهجتي وأوقفت نموي حتى بقيت مدينة نصف خربة في مطالع العهد العثماني، ولم ينقذني من الفقر المدقع إلا موقعي الجغرافي على طريق الحج، صار موسمه السنوي وخروج المحمل سوقي الدولية جيئة وذهابًا، حتى إذا كانت أواخر القرن الماضي عدت، استغنى الناس تمامًا عن الأسوار التي تخربت وركبتها الدور مع ابتعاد الحدود والأخطار عني. الاتصال بالتجارة الأوروبية وبالصناعة ازداد جدًا، التكاثر السكاني فعل فعله، وبخاصة حين كانت تجتمع معه السمعة الدينية والتنافس السياسي الغربي.

أربعة أحياء جديدة كسبت منذ أواخر القرن الماضي حتى أواسط القرن الحالي.. الحي الرسمي الذي بني أواخر العثمانيين في غربي فيه المثيرية (مكان قصر العدل اليوم) والسراي القديمة وهي الثكنة العسكرية (مقر الجامعة اليوم) ومحطة سكة حديد الحجاز، وعمودها التذكاري في المرجة.

القصاع وهو في الأصل بستان واسع أنشأ فيه الفرنسيون المستشفى الفرنسي ولحقهم الإنكليز في معركة التنافس وأقاموا قربه المستشفى الإنكليزي، وإنما أختير المكان لقربه من الحي المسيحي في باب توما ثم اتصل البناء إلى المستشفيين.

طريق الصالحية، وكان بساتين ومنطقة قطاع طرق، وبنى فيه الإيطاليون المستشفى الإيطالي كما جاءت مؤسسة الكهرباء الفرنسية فمدّت فيه خط الترام الصاعد الى المهاجرين، ثم تكامل البناء حول الطريق من سوق صاروجا حي الأكابر واستانبول الصغيرة الى الجسر الأبيض في شريط واحد ضيق.

وحي المهاجرين؛ اليونان حين احتلت جزيرة كريت قبل مطلع هذا القرن قامت الدول فخيرت المسلمين بها أي البلاد يختارون مهجرًا، واختار الكثيرون: شام شريف، اعتقادًا قديمًا فيهم بأنني بلد لا يدخله الكفار، وبنوا لهم حي المهاجرين الكريتية، وحين زار الإمبراطور غليوم إمبراطور ألمانيا البلاد حملوه الى ذلك الحي وبنوا له مصطبة عرفت بمصطبة الإمبراطور، وقال الرجل: هنا كان يجب أن تبنى المدينة لا في المنطقة الرطبة بالسهل، وأعجبت الفكرة ناظم باشا والي الشام فبنى لنفسه قصرا هناك لا يزال يعرف، وخرج السراة يقلدونه وهكذا.. كان الحي الذي سكنه في البدء كريتلي زاده أحمد أفندي وكريتلي زاده عزة بك.

أما أبو رمانة فليس له وجود، لا في الواقع ولا في القيود الرسمية، فعلى خط الترام الصاعد من الجسر الأبيض إلى المهاجرين كان الطريق بساتين ليس فيها معلم سوى مقام قديم متهدم متوسط تتدلى منه شجرة رمان، وكان الترام يقف قربه لينزل سكان الصالحية فيتجه شرقًا إلى حيهم ويتابع أهل المهاجرين الطريق. كُمساري الترام كان ينبه الناس عند الوصول الى هذا الموقف فيصيح: أبو رمانة، وقام البناء بعد ذلك في هذه البقعة، وقام بعد الحرب العالمية الثانية حي أبو رمانة وهو في العرف والقيود العقارية بساتين ملحقة بالشركسية إحدى أقسام الصالحية.

لا تنتظروا أن أحدثكم بعد هذا كيف التهمت غوطتي كالقطط الجائعة وبدلت ملامحي حتى صبغة شعري، هنا أفضل الصمت والخرس.

هذه أنا دمشق عميدة المدائن، حكايتي التي رويتها في صور ممزقة، وجدت فيها نفسي ولون عيني، وجدت أني ما اعتديت أبدًا، فالعطاء عندي هو الأبقى، وأبدًا ما أخرجت القادة المدمرين وإن أخرجت المدافعين وبناة الحضارة الإنسانية، أبدًا ما يئست فالغد عندي على الدوام موعد مجنح.

قد يكون الدرس الأعمق الذي تعلمت في دهري الأطول لا يزيد على كلمة واحدة هي التفاؤل، الإيمان بالحياة وبأنها أقوى من الموت، وبأن الشدائد لا يمكن أن تدوم إلى الأبد، أبدًا لا تدوم إلى الأبد، شيء واحد كتمته عنكم هو سري الخاص الدفين، لغزي الذي تقوم دونه سبعة بحور.. هل أعلنته أم لا يزال سرّاً في صدري؟؟ لست أدري.

****

خمسون سنة من شعر الشعر والبقية تأتي!(*)

د. شاكر مصطفى

يطلبون مني كلمة في نزار، في شاعر كزهرة النار، وراءه نصف قرن من شعر الشعر، أليسوا يطلبون العَصيَّ المعجز؟ ولو طلبوها في صديقه العتيق نزار وبينهما نيف وخمسون سنة من المحبة، أليسوا يمتحنون بذلك بل يتحدون كل عواطفه؟. وإذا كانوا يطلبونها أمدوحة لتكريمه، قل هل بقي في الحقول غار لم يتوج به نزار مفرقيه؟.

بلى! إنهم بذلك يحرجوني، وفي الخاطر من نزار سحب مثقلة بالعطر، أين منها الأمطار الموسمية تهمي كالسيول؟ وأين منها مواسم الكروم بالنبيذ؟ وشلالات الياسمين على أكتاف دمشق؟ وهمس اللآلئ بعضها لبعض في أعباب الموج؟ بعض هذا العطر معتق له في ضميره خمسون سنة، وبعض تفجر أمس مع آخر حرف كتبه نزار.. ولقد تلونت الأطياب في هذا المشوار الطويل وزهرة النار لا تزال ترقص على لهبها وتسكب الظلال والحب والثورة في الدروب، فماذا ترى هذا الصديق العتيق يقول فيه؟ وهل يستطيع أن ينسله من ذاته أو ينسل ذاته منه وبينهما مودة كالإدمان مشرشة في العروق؟.

أصعب ما في الأمر أن نزارًا سبق الفضوليين والنقاد، قطع الطريق على العيون المتلصصة من ثقوب الأبواب، حرم حواء وبناتها احتكار التنصت على دقات قلبه، وفتح صدره لجميع الناس على امتداد خمسة وثلاثين ديوانًا (ونثره بدوره شعر كله) فلم يترك لغيره كلمة يضيفها، لم يدع هامشًا ولا رصيفًا يقف عليه حرف، منذ (أزهار الشر) التي أصدرها سنة ١٩٤٤ باسم (قالت لي السمراء) حتى اليوم ما انفك يقول: هذا أنا، حرب على منطق القبيلة وعلى شيوخ كل القبائل، ثورة على الإقطاع النسائي، الحب ديني، والشعر كتابي المقدس، وهاكم اقرأوا كتابيه!

(*) مخطوط للدكتور شاكر مصطفى.

(١)

دمشق أول غرام وقع فيه نزار وآخر غرام. هي حبه الأول والأخير، كانت هواءه، كل المدن بعدها لم تنسه وجودها ضمن عينيه، إنه متوحد بها، فهو دمشقي بكل معاني الكلمات، في تونس مرة نسي أنه هناك، في البعيد البعيد عن شمشيرها فكانت قصيدته عن دمشق! وفي غرناطة فتح بيتاً فيه الليلك والقرطاسية، وغسل يديه في النافورة الذهبية التي تتوسط الدار وصعد الدرج يبحث عن حجرة شرقية مطعمة بالصدف كانت أمه تنصب فيها سريره! السوسن والظل والياسمين والخبيزة والكباد والفل في شعره منها، غضبه القومي وثورته وجراحه المريرة من طينها وترابها، وحبيباته دمشقيات وان كن يتوزعن متناثرات ما بين الصين وبيروت وجنيف ولندن، شعره يتجول في أزقتها حول قبابها وسواقيها، على بواباتها الأثرية، في جامعها الأموي، في التماع شمسها في الخانات وفي مسابح العقيق! إذ لا يغادرها أبدًا، ولو وصل أقصى الأرض لخرجت حماماتها من جيوبه!..

«أنا خاتم من صياغة دمشق – كذلك يقول – صوت شعري خرج من حنجرتها، أنا مسكون بدمشق .. اللغة التي أكتب بها هي محصول دمشقي، كل حرف في أبجديتي نقلته حجرًا حجرًا من بيوت دمشق وأسوار بساتينها، وفسيفساء جوامعها، أنا دمشقي مائة بالمائة، وأبجديتي تحتشد فيها، كل مآذن الشام وحمائمها وياسمينها ونعناعها وخوخها وعنبها ووزدها البلدي، وبين كل فاصلة وفاصلة من قصائدي تضيء عينان دمشقيتان..».

هنا جذوري. هنا قلبي. هنا لغتي فكيف أوضح؟ هل في العشق إيضاح، نزار يقول هذا ويمضي.. ولكنه لا يقول شيئًا عما وراءه لا يذكر شيئًا عما تواري هذه الجبهة المخضلة بالكتابة الكوفية وبقناديل الكبار الصفراء وبقوافل الأولياء على قاسيون. هناك الكثير مما يطويه نزار في عيون دمشق!

(٢)

صحيح أن قاموسه الشعري، مفرداته، كلماته، أحرفه من محاصيل الشام، لغته في العشق لغتها، صراخه الثوري بعض كلامها والدانتيلا في شعره من نسيجها النسائي

العريق، وصحيح أيضًا أنها اللغة البسيطة للناس البسطاء وليست لغة الكسائي والجوهري ولا ابن منظور التي تجمدت فيها الدماء منذ ألف سنة، وليست قمصان الأعشى والفرزدق والمعري ولكنها قمصان من حياكة الأقوال الدمشقية وحريرها في الاسواق، لغة نزار هي مما يتداوله الناس في السمر وعند مطارحة الغرام أو عند الغضب، حتى القصيدة العمودية التي تخشبت عظامها منذ عصور استّلانّها نزار وطوعها للغة الحديث العادي، لم تعد بين يديه كإيقاع أحجار على صم جندل، ولكن لغة الساقية الجارية والشفاف الشفاف من الحرير، أليس لهذا صار شعره جزءًا من غناء الناس وصار غناء الناس جزءًا منه؟

ولكن يخطئ جدًا من يظن أن هذه اللغة تأتيه عفوًا وتنتظم موسيقى خفية وقوافي وصورًا، وهو في حالة بين الوجد والذهول، نزار يخفي أنه يتعب، يرهق، يجاهد، يتصبب عرقًا ليقتطف كلمة بعينها أو حرفًا بالذات يريده فيهرب منه، يخطئ من يظن أن الشاعر بهلوان يلعب بالكلمات لعب المهرجين في السيرك بالكرات والأطواق، أو يظن أن الشعر «وحي يوحى»، أو هاتف من الغيب تحمله إليه جنية من جن عبقر وهو مسترخ يشرب قهوة، إنها تهاويل الشعراء هذه الحكايات، يعطون بها لأنفسهم قدرة السحرة وغموض الاتصال باللامرئي، لا وحي ولا إيحاء ولا زوار من عبقر يحملون سلال الشعر الى الشاعر، ولا إلهة تتجلى في جبهته وتعزف له بالقيثار، الشعر كدح، عرق، إرهاق، ألم مرّ، حُمى من الحميات التي لم تكتشف بعد جرثومتها. لكي يولد الحرف، الكلمة، البيت، القضية، وتكون شعرًا؛ تنهد أركان الشاعر هدّاً، وهو يهذي ألف مرة بالموسيقى. وكما يصوغ الصائغ الفنان سوار الماس ويضع فيه كل عبقريته الفنية أو طوق الزمرد، وتكتوي بالنار والملاقط أصابعه، وكما تستقبل الأرض الزلازل وتهتز وتتصدع بثورانها الداخلي، وكما يبقى الصياد العجوز أيامًا على البحر في صبر على الصبر ينتظر سمكة تعلق مصادفة بسنارته وقد تأتي ولا تأتي، كذلك يصوغ نزار بيته الشعري الخاص به، يتعامل مع الحرف سيدًا للحرف ويضعه حيث يجب أن يكون فلا فضول في وجوده ولا عكاكيز للقافية ولا ضياع في بساتين الفردوس والإلهام.

(٣)

سر الأسرار عند نزار هو أسلوبه في التعبير، إنه يقوم على توالي التداعيات صورًا بعد صور، وهي تداعيات (أو صور) متباينة في الظاهر ولكنه يطلقها سريعة متوالية ويترك للناس أن يدركوا، في تواليه، ومن خلال تناقضاتها ذلك الخيط الحرير الخفي الذي يرن بينها، ويربطها، إنه يفجر بذلك لي ولك وفي الأجواء حولنا حرية اكتشاف عوالم جديدة، يترك لنا أن نحس الشعر ونلمسه دون أن يقوله بشكل مباشر يشركنا في ابتداع الشعر الذي يريد، مع موسيقاه الخفية ومع المفارقات المتوافقة في مظاهر الوجود، لغة نزار دمشقية، بلى! ولكن تداعياته في تدفق صورها نزارية خالصة مائة بالمائة، شعره هو في تداعي وتصادم الصور التي ينثرها بكل تناقضها على الأسطر لتكتشف أنت بنفسك تلك اللحمة الخبيئة بينها وتدرك «لحظة» الشعر حين ولادته.

الشعر عنده قنديل أخضر كذلك يقول، لم لا يقول إنه قنديل كقوس قزح يحوي في وقت معًا كل درجات الألوان؟ ويقول لا قيمة عندي لشعر لا يحدث ارتجاجًا في قشرة الكرة الارضية، ولم لا يضيف أن هذا الارتجاج ممكن دومًا وأن نزار نفسه يحدثه في صور كصور التلفاز الراكضة تحار كيف تلملمها؟.

تداعيات نزار تفاجئك، تملؤك بالدهشة، وتنتقل بك في مثل انعطاف السنونو أو التماعة الشمس في السدير من بكاء الكروم الى غنج السوسنة، ومن أحزان المخيم في بيروت الى سور الصين، ومن تسبيح العنادل الى وجع البحر، ومن عينين تذبحان في غرناطة الى الفلك القدسي، ومن سنابك القبيلة الى لعن السلطان! بين الجملة والتي تليها عنده أبعاد يترك للناس بكل بساطة وعفوية أن يملأوها بتصورات من عندهم، أن يصلوا بينها بشعور من خلفهم، أن يكتشفوا الشعر، أن يقولوه وهم لا يشعرون! وهنا قد يكون سرى امتداد ظله في الوطن العربي من الماء الى الماء، وإنه ليدرك بشكل عفوي أنه في أشد لحظات تفرده مع الكلمة، هو موجود أمام (٢٢٠) مليون عربي يشيرون إليه بالعيون والأصابع، يركبون الشرفات والنوافذ أو يتعلقون بالشجر عناقيد من العنب الأسود والأبيض، أو يدفعون إليه الأوتوغرافات ويتلمسونه كالأولياء.. للتبرك بالشِّعر!!

(٤)

كيف كان هذا الدمشقي شاميّاً مائة بالمائة؟

يولد الشامي على مايبدو وفي ذرات كيانه نزعات متلازمة بعضها ينبع من لقاء وتصالب طرقات العالم في بلاده فهو ارتباط بهذا العالم واتصال معه، لكن بعضها الآخر تكويني يأتيه من تراب الغوطة ويسكن فيه مع دم آبائه، فالدمشقي (والشامي عامة) إما أن يكون مسكونًا بالورد والظلال والطيب والزيزفون والحور أو لا يكون، وإما أن يكون ابن أمية، ابن البطولات العربية متدفقًا بالثورة تدفق بردى أو لا يكون، بين هذين القطبين ينوس الشامي وينوس نزار، واذا كان يبني في ذاته معبدًا للجمال في النزعة الأولى فهو يعلق في صدر المعبد السيف الدمشقي إرضاء للثانية، وإذا كان شاعرًا للجمال والحب في جانب منه فهو للثورة والحرية في الجانب الآخر سواء بسواء.

الجذور العميقة في هذه النزعات جميعًا هو الحب، ونزار يعتبره جزءًا من كيان الكون، من بنائه، ومن جمال الله فيه، صورة من صور الله في الذات الإنسانية.

نزار لا يفرق (بل يختلط في جبينه) جمال الياسمينة بجمال الثورة، عبق الوردة مع قدسية الحرية، لا يختلف تفتح الربيع في نيسان عنده عن سكرة الأنثى بالعشق، ولا حرية ذات السوار عن حرية الوطن، أو ليست كل هذه الجوانب متكاملة، لا يكون الإنسان بعيد الإيمان بالحرية ما لم يكن في أعماقه يعبد الجمال في الكون، وتناسق ألوان الغروب، وما من امرئ سكن صدره الحب والجمال لم يكن ثورة على الظلم والقهر والطغيان، هكذا تكوّن نزار الدمشقي، وإذا عبّر في شعره الأول عن الحبّ والعشق والمرأة المستعبدة وراء ألف حجاب وشارب مبروم، فقد كان التطور الطبيعي له أن يستدرجه ذلك إلى الوقوف في وجه الظلم الاجتماعي وإلى التمرد على الاستعباد واستنكار الانهيار والى رفض القبح والقهر، إنها الوجوه المتعددة لمثل أعلى واحد هو الحب، لهذا صارت قصائده قناديل معلقة في سماء الوطن العربي وبكل جنون الالوان، وكلّما حاول «فتوات» الشعر تكسيرها علق المتعبون والمعذبون بالحكام والمذلة بدل كل قنديل مكسور سبقه قناديل لأنهم يجدون فيها لون عيونهم وهدير الزلازل التي تأخذهم.

نزار بدأ بالحب وحده سنة ١٩٤٤ ثم ما لبث بعد عشر سنوات أن وعى بالتطور العفوي محطة التحرر الاجتماعي التي بلغت ذروتها بعد قصائد (حبلى) و(أوعية الصديد) في (خبز وحشيش وقمر)، في هذه القصيدة وصل درجة الصدمة التي أقامت عليه القيامة، كل أهل الحذر أفزعتهم صرخته في أعصابهم فقاموا ولم يقعدوا. بعد عشر سنوات أخرى وصل غضبه الذاتي حد الانفجار فكانت محطته الثورية الثانية: التحرر السياسي في (هوامش على دفتر النكسة!) ثم بلغت مرارته درجة التمزق الذاتي الأكبر بعد كامب دافيد واكتساح بيروت ومذبحة صبرا وشاتيلا، في الثمانينيات، فكانت محطته الثالثة (قصائد مغضوب عليها). من شدة إيمانه بعروبته هجا نفسه، ومن شدة الحروق التي وصلت عظام صدره لعن ذاته، كفر، بصق على الخنوع والذل والكذب والاستسلام..

كان دخوله في المحطات الثلاث فضائح كما لو دخلت عمامة بيضاء بباطية خمر إلى الجامع، أو رقصت راهبة في الدير رقصة الجيرك او البطن للرهبان، ولكنها كانت فضائح حب، ومن خلال الحب وحده تفهم، وإذا انهمرت الحجارة عليه في أسواق النخاسة، وإذا تبارى كورس الموميات في تنغيم هجائياته، واشتد رمي نوافذه بالبيض الفاسد، فذلك لأنه قطع أرزاق تنابلة السلطان ومرتزقة الأحزاب! مئات القصائد دبجوا، ركام من المقالات كتبوا، أكوام من الشتائم جمعوا، ولأن أصحابها جميعًا من الموتى فقد قبرها الناس مع أصحابها، وحدها قصائده بقيت شاهد عصره، وحده بقي الحب العظيم، ذلك أن الحب أقدم وأروع ما أودع الله من العاطفة في قلوب البشر، أأنت في شك من هذا؟ إذن فانظر حين أراد الله أن يجمع صلصال آدم إلى طين حواء ماذا فعل؟ خلق الحب بينهما وقال كونا فكانا زوجين، بل إنه حين خلق الكون كله جعل الحب سبيل توالد الذرة من الذرة والتصاق الخلية بالخلية، وحين أدار الفلك بعضه على بعض، خلق التجاذب الكوني الذي يمسك الكون كله أن ينفلت، فإذا غنّى نزار للحب أفلا يعني ذلك أن يصلي لأقدس ما في الوجود من جلال ولأقدم ما بث الله فيه من العاطفة ومن الصلات؟

(٥)

على أن الحب عند نزار ليس عشقًا وكفى!.. ليس طوافًا حول بيت الحبيبة وعزفًا بالقيثار عند شباكها، الحب عنده فتح، كشف، تحطيم للأسوار، مغامرة لتحرير الشق

الإنساني الآخر من الظلام، فالمرأة عند نزار ليست الجارية أبدًا وليست العار الذي يجب أن يوارى، وليست «الحرم» وعليها الأستار، ليست العقيلة التي يعقلها الذكر ويجرها وراءه، بل ليست أيضًا الجنس الثاني والرجل هو الأول، إنها نصف الانسان المكمل له، إنها القرينة. الشق الذي لا تكمل الإنسانية إلا بوجوده، وقد دخل نزار مخدعها – كما قالوا – لا لينام على سريرها الوردي، ويتغزل بأشرعتها المسافرة مع الريح، ولكن ليخرج بها الى النور، ليقول لأبي زيد الهلالي هذه أختك الشقيقة، ولعنترة الخيل هذه هي الند المساوي لك. غنّى لها، تحدّث بلسانها، رقص معها، دخن، تحدّث، رمى مساحاتها على أوراقه كإنسان يحترم إنسانيته، كتب لها الكتب المقدسة لتحفظها، جمع لها «قاموس العاشقين» وسطر «مائة رسالة حب» «وأشعار خارجة على القانون» و«قصائد متوحشة».. كتب الكثير لها وخيّرها:

إنـــي خـــيـــرتـــك فـــاخـــتـــاري
مـــا بـــين المـــوت عـــلـــى صـــدري
أو بـــين دفـــاتـــر أشـــعـــاري
لا تـــوجـــد مـــنـــطـــقـــة وســـطـــى
مـــا بـــين الجـــنـــة والـــنـــار
اخـــتـــاري الحـــبَّ أو الـــلاحـــبَّ
فـــجـــبنٌ ألا تـــخـــتـــاري

ما كان نزار في ذلك كله على تزييف العواطف ولا على التلصص من خصاص النوافذ على عريها وموج النهدين، كان يمارس فكره الإنساني كاملاً تجاه نصف الإنسانية معًا..

إن ولائي لكِ لم يتغير
كنتِ سلطانتي في العام الذي مضى
وستبقينَ سلطانتي في العام الذي سيأتي
ولا أفكرُ في إقصائكِ عن السلطة
فأنا مقتنع
بعدالة اللون الأسود في عينيك الواسعتين
وبطريقتك البدوية في ممارسة الحبِّ!..

نزار ليس بمهرج عاطفي ولا بائع هوى على عربة خضار، ولا دونجوان أو شهريار، مستوى الحب عنده شيء ومستوى الجسد شيء آخر، الحب الجسدي واحد لا يتغير، أما العشق كعاطفة سامية فأمر إنساني في صميم «كن فيكون»، وله قاراته وأمطاره ومنطقه وآفاقه وكهوفه والنيران والجحيم ورائحة الجنون، ونزار لا ينكر تجاربه الشخصية في الحب، فالشاعر أولاً وأخيراً إنسان، ولقد انكسر «عشرين ألف قطعة» أمام بضعة نساء فقط، دخل مرحلة الهذيان الشعري مرات معدودة، ولكن الحب الذي يتحدث عنه في شعره لا يرى في المرأة الجسد ولا خمر العيون ولا رقص الشيطان، الحب عنده رمز لحق المرأة في الحياة، حق الحرية، لأول الحقوق الإنسانية وأخطرها، إنه ثورة، إبحار ضد التيار من دون بوصلة ولا خارطة، توقع لخلجان وغابات بكر وعواصف موج يقطع الحبال والأشرعة، هو غرق في ثنايا الربيع مع الزعتر البري والحبق والرزان والمنثور حتى ما فوق الأذنين!

وأكاد أعتقد أن نزارًا لم يأخذ من تجاربه الشخصية - على غناها - إلا القليل، ثروته الشعرية كانت من ذاته، كنزه المتوهج بألف كهف من كهوف علي بابا الزمردية، إنما كان من إبداعه الذاتي. صحيح أن من يخترق غابات النساء ومجاهل الخدود الموؤدة لابد أن يعلق به بعض الورق الوحشي وبعض أغصان العليق ولابد من أن تسكره بعض الثمار البرية وبعض الغدران المتوحشة ولكنه لم يخترقها ليحب امرأة بعينها وإنما اخترقها من خلال الرماح المشتبكة وزمجرة الغضب الأسود وارتجاف لحى القبيلة ليعلم العشق للنساء جميعًا، ليغني بمزاميره لهن، لعل نصف الإنسانية المكبوت، لعل نصف الوطن يخرج وراءه في مظاهرة عظمى بالأعلام والطبول وزهر الصقوان لمضاحكة الشمس والنور، ولقد تحدث عن الدانتيلا وعن طوق الياسمين ومأساة الحبلى المنكورة والعشيق الخائن والعشق «الآثم» وأوعية الصديد، وعن عتاب الأنثى وعن الرجوع إلى الحبيب.. ما أحلى الرجوع اليه.. كان مسافرًا لا يرفض أي مرفأ يستطيع أن يقول فيه لامرأة يلاقيها:

كوني أنثى.
أريدك أنثى!
وهذا رجائي الوحيد

وآخر أمنية أتوجه بها إلى شفتيك
أريدك باسم الطفولة أنثى
وباسم الرجولة أنثى
وباسم الأمومة أنثى
وباسم جميع المغنين والشعراء
وباسم جميع الصحابة والأولياء
أريدك أنثى.. فهل تقبلين الرجاء؟
وأنثى أريدك من قمة الرأس للقدمين
فكوني سألتك كل الأنوثة.
لا امرأة بين بين!

تحدث نزار في كل شيء في الأنثى، وهو يدور من حول محور واحد هو حقها في أن تكون إنسانًا، حقها في أن تكون صنو الرجل، والمكمل له، حقها في أن يكون لها – مثله – وِهَادها وأمطارها ووديانها وقممها ودمعة الكبر وهمس البوح ودنيا الرغبة كنارِ الجحيم!

(٦)

وتعجب من كثرة الحجارة تنهال على نزار!..

الشعر منذ كان، كان عشقًا كله، تاريخ الشعر هو تاريخ الحب، أول حرف في الشعر كان حرف حب، الشعراء الذين لم يصلوا في معبد الحب، لم يقدموا أوراق اعتمادهم لصاحب الجلالة، لم يحملوا له الكأس والمزهر ما اعتبرهم أحد من الشعراء، لا أتحدث عن جميل وقيس بن الملوح وكثيِّر وابن الأحنف، ولكن من ذا الذي في الشعراء لم يبدأ دندنته الشعرية بقافية الحب والغزل؟ إذا لم يكن من أحد، فلماذا تمطر كل هذه الحجارة على نزار؟ لماذا صارت أحرفه ضمن المواد المخدرة الممنوعة في الجمارك؟ لماذا صار اسمه في القوائم السوداء وطردت حروفه خارج الحدود واعتبرت أبجديته من المواد الخطرة؟ ألف سبب وسبب كان وراء طرده من مدن الملح والقهر، وأنا أعرف أن ٩٩ في المئة من التَّزمّت الذي يطوق شعره عملية نفاق اجتماعي. شهريار ودونجوان ونياق

الخليفة وكل هذا الرعيل كامن فينا يكوِّن منطق القبيلة، نقرأ لنزار ونطرب لما يبدع، ولما يخرج من مخدعِ المرأة من الأسرار، ولكننا نمسك عن الاعتراف بأن دواوينه تنام تحت مخداتنا أو في صندوق الحلي الغالية، نخجل أن نوقع معه في ذيل هذه الأسرار الخبيئة الصغيرة التي يلتقطها من جفون الأنثى، من شلال شعرها، من دوامة البوح فيها، ونكون في منتهى الحذر كأننا في حقل للألغام أو ممر في الأسلاك الشائكة حين نتحدث عن صدى قوافيه تحت جلودنا.

أبدًا ما مجَّد نزار الجنس في شعره، أبداً ما تجاوز الخطوط الحمراء حتى حين لامس أخطر الأسرار الجنسية، ولو غنّى للحب الرخيص الذي يباع على العربات لغنَّى الجميع معه، ولكن المجتمع المأزوم الذي «يفكر بنصفه الأسفل» فقط هو الذي لا يرى في دخوله «المخدع» النسوي غير الجنس، وانهالت بعد ذلك ألوان الاتهامات عليه.

أأنــا الـعـاشـقُ الـوحـيـدُ لـتـلـقـى
تـبـعـات الـهـوى عـلـى كـتـفـيّـا؟

كلا! لم يكن العشق وحده تهمته الكبرى، سلسلة أخرى من التهم لحقته بالرماح وكانت تنضم وتفترق للحملة عليه، ومتطوعون – وما أكثرهم – كانوا يوقدون حوله النار! ويتمتعون بالشرر! وهكذا قضى معظم عمره بين أسنان التنّين!

قالوا: نزار وضع الديناميت في جذور قصر السلطان، أوجع حملة المباخر في موكبه، فضح بطولة الصنجات التي تضرب على الورق، أنحى بالسياط على أبي زيد الهلالي، تسلق أسوار «الحرملك» المحرم ودخل مخادع الحريم وأمسك بأيدي الجواري وخرج بهن الى الشمس والنور، هزئ من شوارب عنترة التي لا يستخدمها في الحرب ولكن في غمز النساء على شواطئ نيس، كسر الإناء المقدس الذي يشرب به الناس نقيع الجلود فلا يغصون ولا يسكرون ولا يتقيأون.. حطم الربابة الموروثة والطبل الدهري الذي طالما ضرب عليه الشعراء دهرًا بعد دهر، رفض الانفصام شطرين، فشطر منه في الجاهلية وشطر على نهدي مارلين مونرو! أنكر عباءة الفرزدق وأبي تمام والزمن الشعري الذي تخشب منذ ألف سنة، أبى أن يسير بالنوق والمها وظباء الحي على ضفاف نهر التامين..

وانتهى نزار بأن يغني بصوته المفرد ويذهب مباشرة الى قلوب الناس دون إذن الشنفرى والسموأل، ودون الانسجام مع كورس القبيلة الرسمي.

وأخيرًا بلغ به التمرد أن ضرب مجلس السلطان كله برجله، فزبادي الصيني حطام، والتماثيل النحاسية تلتمس رؤوسها فلا تجدها، وزخارف التراث الأقدس تحت الأرجل، ووقف ينشد (قصائد مغضوباً عليها) من الله وعلية القوم وأهل الحِجا! منها، والعياذ بالله، قوله:

إياك أن تقرأ حرفًا من كتابات العرب،

فحربهم إشاعة وسيفهم خشب!

وعشقهم خيانة ووعدهم كذب

إياك أن تسمع حرفًا من خطابات العرب!

فكلها حرف ونحو وأدب

ليس في معاجم الأقوام قوم اسمهم عرب

يا صديقي رحم الله العرب!!

ودخل بذلك لا في الشيوعية الهدامة ولا الفوضوية ولا حزب العراة ولكن في «الشعوبية»!!.

(٧)

لا يعرف نزارًا الدمشقيَّ الثائر من لا يفرق بين الشعوبي الحاقد وبين العربي الغاضب من ذاته، يجهل نزارًا ولا يفهمه من لا يرى في شتيمته السياسية «لكوما» الشارع العربي جلدًا للخدر ورفضًا للاستسلام والتبلد، غضبًا على المارد الذي يرفض أن يفيق وهو متمرد بين الماءين، جهازه العصبي الذي سحق احتلال بيروت ومذبحة صبرا وشاتيلا دون أن يرتفع صوت عربي واحد، هو الذي كان يصرخ وليست حروفه، من عمق الحروف في صدره وأصابعه لعن الذات، كفر، بصق على الأرض الموات وعلى الخنوع، وحيث رأى بعض الناس منتهى الكفر كان منتهى الإيمان، وحيث رأوا أقسى الحقد كان أعلى وأوفى درجات العشق، ألم يصل الشاعر القديم عبدالسلام «ديك الجن» مرحلة القتل في الحب؟ ألم يقل وهو يقتل حبيبته:

أعــمــلــتُ كــفّــي فــي مــجــال خــنــاقــهــا

ومــدامــعــي تجــري عــلــى خــدّيــهــا

هذه السادية او الماسوشية (وسمها ما شئت) كانت كلها حبّاً تلذذاً أسود بالجراح، الشاعر خليل حاوي عند احتلال بيروت انتحر احتجاجًا على الغيبوبة العربية وعلى الهوان، انتحر حبّاً لقومه المزقين، نزار بدوره في قصائده المغضوب عليها انتحر حبّاً على طريقته حين رأى الشارع العربي دجاجة في قفص تبول على فخذيها، وتتناسل وتذبح وهي في القفص! كان حلقه يختنق بمرارة ٢٢٠ مليون إنسان.

طريق طويل طويل اجتازه نزار خلال خمسين سنة، والطريق كمائن غيلان وأوكار أفاعي وعيون حمراء كالعتاب ودمدمة رعود وعواصف، وأطرف ما قاسى أنه كان يغني ويشتم في وقت معاً، يسكر الناس بشعره ويهاجم من أجله على السواء، تختنق الساحات بالمتلهفين لسماعه، عدد الحصى وورق الشجر وتضيق بعض الأعين عن احتمال طيفه! ذلك أنه كان دومًا ظاهرة فريدة.. كان ثورة روح وزهرة النار، بنى لنفسه وبنفسه معبدًا يكرز فيه بما هو وراء الحب، بما فوق الحب، بما قبل الحب: بالحرية! حرية الأنثى وحرية الوطن، وحرية الكائن الإنساني، و«أبو زيد» لو تعلمون شنب عنيد وتقاليد تراكمت ألف سنة وسنة قبل ألف ليلة وليلة!

(٨)

جموع الرافضين لهذا الزمن العربي الرديء ليس أكثر منها، ذنب نزار أنه كان من أعلى الرافضين صراخًا.. إن لم يكن أشد الثائرين نارًا وأبعدهم مدى.. أمن الصعب أن تجيد جوقات المنافقين وشعراء المستنقعات ألف مغمز على شاعر يتحدث عن طفولة النهد ويرقص في مخدع النساء ثم ينصب نفسه قوميّاً فيشتم قومه؟ واستثيرت النخوات ترمي نوافذه بالحجارة، ورجم النوافذ دليل على نجاح الكلمة، برهان على أن زهرة النار زلزلت الحذر، دليل على أن الرسالة بلغت لأصحابها رغم السدود العالية التي بناها الديناصورات من حولهم، ورغم حملة فحالى الغليق ومطربي السلطان وسماسرة العهر السياسي!

لم يعد أحد يسمع أو يصدق تكرار بيت عمرو بن كلثوم بعد ١٥٠٠ سنة:

إذا بـلـغ الـصَّـبـيُّ لـنـا فـطـامًـا

تــخــرُّ لـــه الـجـبـابـرُ سـاجـديـنـا

وأضحى العربي يتلفت إلى الوراء لعل البحتري يعني غيره حين يقول:

نـحـن أبـنـاءُ يَـعْـرُبٍ أعـرَبُ الـنـا

سِ لـسـانًـا وأنـضَـرُ الـنـاسِ عـودا

وكأن الإله قال لنا في الحرب كونوا حجارة أو حديدًا!.

فلماذا لا يصفع نزار الوجوه الذليلة – وشاهت الوجوه – لتفتح عيونها العمياء على أكوام الأقذار التي تعيش فيها؟ ولتعيد كلمة «الإباء» التي محيت من قاموس الحكام الى هذا القاموس. بلد العميان صرنا، الذين حين جاءهم بالمصادفة رجل ذو عينين مبصرتين يصف لهم رفيف النور وغزل القمر أخذوه إلى أقرب تل على البلد وصلبوه! إنه يرى!.

العروبة التي تقعي على أبواب البيت الأبيض وتعوي.. والتي تشحذ السُّلمَ من شيلوخ وتعتمد على منبر الأمم المتحدة لتتمرن على الخطابة بالإنكليزية، ليست عروبة نزار، لا! وليست عروبة (الكومسيونات) وتهريب الحشيش وتنقيط راقصات شارع الأهرام بعقود الدولارات، إنها بالعكس عروبة الذين اهترأوا في رطوبة السجون العربية والاسرائيلية، وعروبة المعجزين أنفسهم في أسواق العدو ومقاهيه والآكلين لحوم القطط في المخيمات، وعروبة الملايين من الرافضين وعلى أفواههم الأقفال!.

فإذا ثار على النفوس المسترخية في الأقفاص كدجاج المزارع. إذا لم يجد الملايين بجانبه على الصفيح الناري الذي يقف عليه. إذا وجد الذل يقفز كالشياطين المردة في أرضه وتعشش وتفرخ ثم لا تجد السيوف التي تقطع رؤوسها والأذناب، أليس من حقه أن يضرب الأرض برجله، وأن يصيح لا! اللعنة على الأذلاء، وبكل مرارة الحنجرة؟ أليس من حقه أن يصعق بالشهب المحرقة صرعى التبن والحشيش والقمر؟ أليس من واجبه أن يدمر هذه الرمم التي تدعي الحياة ولا تقوم في الارض بأكثر من استهلاك أوكسجين الهواء؟.

(٩)

قائمة الاتهامات طويلة.. بلى!

على أن نزارًا لا يعتبر الاتهامات له جراحًا في صدره، بل يعتبرها أوسمة، يتقبلها، وقد صاغها باختياره الحر، هو الذي اختار الصدام مع كل عناتر القبيلة منذ قال أول بيت، أهي الفضيحة؟ فلتكن، أكتب فأنا مفضوح، هكذا عارض مقولة ديكارت المعروفة: أفكر فأنا موجود، من يحترف الكتابة هو أكثر الناس كشفًا عن دخائله وأسراره، إن يعرض نفسه في كل حرف يرسمه وعلى الدوام على أشعة X، فإن كان شاعرًا فالمصيبة أعظم، لأن موسيقى الشعر أعلق بالذاكرة من النثر السائب، بيت الشعر يروى ثم يروى ويروى إلى مالا نهاية، وكلمة النثر لا تركض على أكثر من لسانين، الكتابة اعتراف لا أمام الكاهن في عتمة الكنيسة ولكن أمام وديان تضج فيها الأصداء وهي تبتعد، أما فضيحة الشعر فعملية تجريس مستمرة في ساحة البلد، فضيحة بجلاجل وأجراس أبدية. وعلى الرغم من خمسين سنة من الشعر، ومن ألف لائحة دفاع كتبها المتهم نزار والمحامون وكلاؤه، وعلى الرغم من أن بوليس السلطان وسيوف خدامه تقاتل وهي تتراجع، وأنها أحيانًا كثيرة كدون كيشوت إنما تحارب طواحين الهواء، وعلى الرغم من أن الناس قد انحازوا بوضوح إلى هذا الذي أحرق الجسور مع الشنفرى واستعار لغة الحسون وهدير الزلزال، إلى هذا الذي ترك التكية والحساء، ورمى العمامة، وضرب بوابة السلطان بلعنته، وكسر أحذية النساء الصينية، وخرج بالناس، كل الناس إلى الحدائق العامة حيث لا ينتظر الشعر إذن الأمير ولا يحتاج جواز سفر ولا تحقيقًا على الحدود، ولا خلع الحذاء قبل الدخول، وحيث الشعر يحكي ويروى بلغة من حوافر البيت، على الرغم من كل ذلك فقد بقيت في التهم واحدة أخيرة هي أوجعها والأظلم... الشعوبية! إنها التهمة الوحيدة التي يرفض.

قالوا إنه نسق عمود الخيمة في القبيلة، كسر مزراب العين الأثري للضيعة، دنس بالأقذار قدس الأقداس حين وضع العربي وجهًا لوجه أمام سوأته، أمام المزور من تاريخه والكاذب من كرمه وإبائه، عرّى مدن الملح التي يسكنها مع الطاعون والغبار والبلهارسيا ومع الجنون والسعال والصداع والنفاق! هكذا انتهى نزار شعوبيًّا!. بلى! شعوبيًا لأنه

نزل بسياط من الجحيم على قطعان المخدرين والمشلولين والموتى بغير فتور.. فهل ترى نزارًا في حاجة الى من يدافع عن عروبته؟.

فات هؤلاء الباكين على العروبة والعرب، أن من طبيعة النفوس الحساسة المرهفة – والشعر أولاً وأخيرًا حس مرهف – أن تنوس بين قمة الإيمان ودرك القنوط، بين منتهى الثقة وأقصى اليأس والإحباط، التعب بالعروبة – ونزار قال إنه متعب بعروبته – متصل الاتصال الرحمي باللهب الثوري، لا وجود لجهاز يعمل طوال العمر وعلى وتيرة واحدة متصلة، يكذب حتى على نفسه من يعتقد أن الثائر يظل ملتهبًا فلا تنتابه لحظات انكسار ذاتي إلى أن يحترق! حتى الرسول الأعظم اعترته لحظات من اليأس فقال له جلّ وعلا **﴿والضحى والليل إذا سجى • ما ودعك ربك وما قلى • وللآخرةُ خير لك من الأولى • ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾**. وحتى السيد المسيح عاتب ربه وهو على خشبة الصلب – كما يذكرون – فقال: رباه لم تركتني؟ أصحاب العقائد يعرفونها هذه اللحظات المرة، هم أول من يشعر بهذا التحول المفاجئ في الخط البياني صعودًا وهبوطًا دون انقطاع، تموجًا بين حرارة الغليان فوق المائة وبين درجة البرد المطلق، هذه الحركة النفسية المتحولة بين القطبين ليست دليل رفض ولكنها دليل عمق الحياة، ليست إشارة انهيار ولكنها كما في النواس بدء انطلاق جديد. وبقدر ألم الاحباط، بقدر الحزن واليأس تكون قسوة النهاية، إنها ليست موقفًا ثابتًا ولكنها جمرة غضب، إباء الوصول إلى مقر الحفرة، هي حالة نفس تريد الحياة رغم الموت، تريد الرفض للطين وعيونها على النجم!

وتنتهي الحالة من نفسها بعودة الذات إلى الذات!.. ويعود نزار إلى نزار.

(١٠)

وأخيرًا نخطو خطوة أخرى في أعباب نزار لنقول إنه كان ولا يزال صاحب قضية شغلت عمره كله، قبل أن يصبح شاعرًا كانت هذه القضية تشغله، تغلغل في كيانه، وتملأ شرايينه، وما انفكت تنمو في ذاته حتى صارت هاجسه المهيمن عند دندنة العشق، أو في دوار السياسة، أو أمام الصراع الاجتماعي: إنها قضية التحرر: وإذا اختار الشعر سلاحًا فلأنه يؤمن أنه أفضل خزائن الأسلحة في التحرير: تحرير الكلمة، تحرير المرأة، تحرير الوطن من منطق القبيلة وتحرير الوطن العربي من استبداد السلطان!.

من وراء كل الأستار التي يلقيها على أحرفه، فإن المحور يبقى دومًا الحرية، ونستطيع أن نزعم أن الشاعر وصل في عشقه للحرية درجة التصوف، إنه صوفي على طريقته، ولكل متصوف طريقه! الركض في الهواء الطلق هو العافية عنده، وإذا غنى نزار للمرأة وللحب وللثائرين ولأطفال الحجارة، إذا غضب للمذلة والقهر والعدوان، إذا أراد لشعره أن يقلب قشرة الكرة الأرضية، فإنما يرفع الصلوات والتسابيح لأقدس ما في الكون من جلال، وأقدم ما بث الله فيه من عاطفة وأروع ما نثر فيه من جمال، هذا العاشق الكبير هو أيضًا صوفي كبير، بلى كان الجنس يلعب في دواوينه الأولى، ومن كان منكم بلا ذنب فليرمه بحجر. ومن هو المبرّأ المعصوم في هذا المدى؟ ولكنه يوم قال الشعر الشعر، انتهى الجنس عنده أو يكاد وبدأ التصعيد العاطفي الذي وصل حد التوحد بين الحب والحرية، واستمر التصعيد حتى أضحى نوعًا من التصوف، صار الصفاء الروحي والشعر الخالص.

ومصطلح التصوف ليس حكرًا على «الدراويش» السائبة، الصوفية ليست جبة مرقعة ولحية للريح ومسابح تتدلى من الأعناق وعكازًا يدب على التراب، ليست اعتكافًا في كهف، وحمل صحن الحساء من التكية، وهلوسة كلمات في العشق. وأهم من كل ذلك ليست انصرافًا عن البشر للارتباط بالله، ولكنها حب لله يتسع لجميع البشر، فناء في المحبوب سواء كان عقيدة أو دينًا أو إلهًا أو عينين ذابحتين أو وردة، هي انصراف كلي للإلهي الموجود في البشر والخلق الفدائي صوفي على طريقته، ومجنون ليلى صوفي في عشقه، والشاعر الثائر صوفي على نحو من الأنحاء، والمهووس بفنه صوفي، والمغامر العبثي صوفي.. كل توحد مطلق مع عقيدة لون من ألوان التصوف، كل ارتباط دون قيد مع مثل أعلى تصوف، حتى جهاد الزهرة لتتفتح نوع منه، وحتى سنبلة القمح وهي تضحك للشمس!.

ونزار في تصوفه التحرري، في عشقه للحرية «ليس عنده نصف حرية أو ربع حرية أو حرية بالتقسيط، الحرية كالليل والسماء والبحر لا تتجزأ، لا تقبل التقييم ولا التنازلات ولا المساومة»، وهي إما أن تكون أو لا تكون، الحرية التي يطلبها للمرأة هي حرية ممارستها لإنسانيتها، لخياراتها، تركها لمسؤولياتها كإنسان، دون أن يكون لأبي زيد

الهلالي الحق في حبسها في القفص أو في قطع رأسها، والحرية التي يطلبها لوطنه أن يثور على قبب الرصاص وعلى أسوار السلطان وعلى مقصلة القهر المنصوبة والسياف لؤلؤ، وعلى زوار الليل الصراصير وعلى الدراويش حملة الطبول، كما يطلبها لرفض العدوان والثورة على المذلة وعقلية القطيع! أما حرية الكلمة عنده فهي محور الأرض، بل محور الحركة الدائمة في الكون، بدونها لا أرض ولا كون.

حرف نزار الشعري لا يشرد كالفراش المنتشر بين زهرة المانوليا ونور التفاح وعلى السوسن ومع الطيوف والأقحوان، ليس فيه معًا مديح أمير ورثاء صديق ووصف أسد، ومطاردة لاعبة بينغ بونغ، لا تجد عنده ذلك الخليط من شعر الشعراء الذي يصنفه دارسو الأدب قوافي في الهجاء وأخرى في الوصف وبعضًا في المديح وفصلاً في الغزل، نزار وقف خمسين سنة عند محور واحد: الحرية، كل أبجديته وضعها للنضال في هذا الميدان، وقال: هنا كوني الخاص! هنا أنا عند (شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار. نور على نور)! أليست هذه هي الصوفية الشعرية؟.

وهكذا، ليس نزار بحاجة إلى أن يردد في تجلياته الصوفية:

عندما تسطع عيناك كقنديل نحاسي

على باب ولي من دمشق

أفرش السجادة التبريز في الأرض وأدعو للصلاة

وأنادي ودموعي فوق خدي: مدد.

يا وحيدًا يا أحد!

أعطني القوة كي أفنى بمحبوبي

وخذ كل حياتي،

أعطني القدرة كي أصبح في علم الهوى

واحدًا من أولياء الصالحية!

وبعد،،

فعندي نصيحة! إن كنت من مدمني قراءة نزار فحاذر!! من يدمن نزارًا ينته به الأمر إما صوفيًا يفتل على كعبه كالمولوية، أو ثائرًا كبركان مختنق باللهب والغضب،

أو عاشقًا نزيلاً كمجنون ليلى في العصفورية، أو الثلاثة معًا وذلك أقسى المصير! إن شعره كبراكين حادة: فوهات ثائرة بالنار والدخان وسفوحها خضراء من القمم حتى آخر السهول، وعلى خصورها ينمو الشجر والثمر، ويغمز لك بألف إغراء بكلمة تفضل!

وأعترف أني في كل مرة وصلت في ديوان من دواوينه الى النهاية كنت دومًا أقلب الصفحة الأخيرة وأبحث عن حرف هرب أو قافية تسللت.. لعل النشوة لا تنتهي.. ثم آسف على أن الدهشة التي لا تنقطع توقفت، وما أكثر ما حاولت أن أجعل الصفحة الأخيرة تلد شيئًا غير الفهرس، وما أكثر ما عدت إلى الديوان نفسه من أوله أعيد غناءه القرمزي من جديد، هل تعرفون شاعرًا غير المتنبي تقرأ شعره ولا تشبع؟ تعيد قراءته ولا ترتوي؟ تكرره ألف مرة وتطلب المزيد؟.

وإذا كان بعض المؤمنين يدعون الله ربنا نجنا من التجربة! آمين فأنا من جهتي أدعو: إلهي لا تحرمني هذه التجربة!، آمين.

****

كلمة الدكتور شاكر مصطفى
بمناسبة تكريمه في جامعة الكويت

أخي الأستاذ الدكتور عبدالله الغنيم وزير التربية..

الأخت الفاضلة الأستاذة الدكتورة فايزة الخرافي مديرة الجامعة..

زملائي وطلابي الأحباء..

منذ يومين حين فاجأني الصديق الحبيب الأستاذ الدكتور عبدالله المهنا عميد الكلية والأستاذة الدكتورة حياة ناصر الحجي بأمر تكريمي - تلعثمت، وقلت في نفسي وما ضرورة هذا التكريم وأنا أجده كل يوم في وجوه هذا المجتمع الكويتي الطيب شيوخًا وجمهورًا وشبابًا، أجده في تسلُّم أبنائي الخريجين المهمات والمناصب الرفيعة والكراسي العلمية، أجده في تلك الفرحة بل البهجة العارمة التي يطالعني بها طلابي وهم يشدُّون على يدي، أجده في السرور الغامر الذي يقبل به عليّ الكثيرون ممن لا أعرف فيحيون ثم يحيون ويسألون عن صحتي ويدعون بطول العمر، أما يكفي ذلك تكريمًا؟

يوم جئت جامعة الكويت قبل ثلاثين سنة، كانت الجامعة فكرة تتحول إلى واقع. الرمال أمام مبنى الخالدية تعلو مدرجها، نخوضها إلى غرفة مستشار التعليم العالي (ولم يكن يسمى مدير الجامعة يومذاك) وكان هو مع الأمين العام للجامعة في ردهة واحدة على منضدتين عاديتين والردهة عارية، فإذا أرادا استدعاء الفرّاش (الآذن) كانا يستدعيانه بجرس باليد موجود على الطاولة.. ما كنت أظن أني سأبقى في الجامعة يوم افتتحت أكثر من شهر أو سنة، وبقيت خمسًا وعشرين سنة، وما كان يمر في خاطري ولا أحلامي أن الأربعمائة طالب الذين بدأنا بهم هذا الصرح العظيم سوف يصبحون بعد

ثلاثين سنة ثمانية وثلاثين ألفًا من الخريجين الجامعيين، ولا قبضة الأساتذة التي لم تكن تجاوز ٣١ أستاذًا ليس من بينهم كويتي واحد سوف تصبح ٨٦٠ أستاذًا؛ منهم خمسمائة كويتي، هذا إلى جانب ٦٦ ألف متخرج من مركز خدمة المجتمع والتعليم المستمر في هذه الجامعة.

إن هذه هي السعادة التي تغمرني الآن، وأعتبر تكريمي هذا تكريمًا لأولئك الواحد والثلاثين أستاذًا وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور عبدالفتاح اسماعيل يرحمه الله الذين وضعوا اللبنات الأولى لهذا الصرح المرد «**فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا**» وكنت بينهم الأقل علما وسمعة وجهدًا، ولكنا كنا الجُسور:

تقضي المروءة أن نمدَّ جسومَنا

جسرًا، فقل لرفاقنا أن يعبروا

إخواني الأحباء..

في الحكاية أن سائحًا وصل بلدًا ما زاره من قبل، وفوجئ عند مدخله كالعادة القديمة بالمقبرة في ظاهر البلد، ودفعه الفضول ليقرأ ما كتب على شواهد القبور، فدهش كل الدهشة:

- فلان الفلاني العالم العلاّمة مات وعمره سنتان وشهر!
- القاضي العدل فلان مات وعمره ثلاثة أشهر!
- فلان المهندس اللامع مات وعمره سنة ويومان!
- فلان العامل ابن بدر من بطن أمه إلى القبر!

ودخل السائح البلدة وانتهز أول فرصة ليسأل عن هذه المفارقة الغريبة فقالوا له:

- من عاداتنا أننا لا نحب من أعمارنا إلا لحظات السعادة نسجلها ثم نضعها أعمارًا لنا، الباقي لا نحبه من العمر.

لو كانت هذه العادة سارية لدينا لطلبت أن يكتب على شاهدتي:

- عاش ساعة واحدة هي هذه الساعة التي نحن فيها.

وبعد فشكرًا شكرًا شكرًا.

شكرًا لمن فكَّر بالتكريم. لقد طوقوا عنقي بالامتنان!

وشكرًا لمن قاموا به فقد برهنوا على عمق الأخوة التي تربطنا.

وشكرًا للكويت البلد الذي يحفظ العرفان الجميل الطيب.

بلى!

شكرتُ جميلَ صُنعِكُمُ بدمعي
ودمعُ العين مقياسُ الشُّعورِ

لأوَّل مَرَّةٍ قد ذاقَ جفني
على ما ذاقَ من طعمِ السُّرور

****

خبر من الصالحية(*)

د. شاكر مصطفى

يقولون عن أفلاطون الفيلسوف العتيق أنه حين افتتح مدرسة الـ Lycée في أثينا كتب على بابها من لم يكن مهندسًا فلا يدخل علينا! وأقول لكم سلفًا من لم يكن يعرف شيئًا عن الصالحية فلا يدخل علينا.. سيفترسه الملل، فسوف أتحدث عنها وأنا ابنها بالوريد المربوط برباط القلب منذ الطفولة. وقد يستمع معظمكم عن تلك الطرق المتربة وملء صدره الضيق والتساؤل ماذا يعني هذا الحديث كله؟ وشتان بين عاشق يغني حتى لوحل الحذاء وعاذل لا تعجبه حتى الطرق الذهبية التي تغرس على المفرق، وأعان الله العذال على العشاق المعاميد أو أعان المعاميد على العذال، فمتى كان يتفاهم العاذل والعاشق؟ وإنها على أي حال جولة في حي دمشقيّ كان يزرع الفل والياسمين والليلك ويتكئ على أحد أكتافه الشيخ محيي الدين بن العربي وعلى الكتف الآخر الشيخ عبدالغني النابلسي وينام بين الكتفين جمع لا يعلمه إلا الله من أهل الله على الخشب المهترئ واللبن الطيني والشبابيك التي يتهالك بعضها على بعض، وتأكلها العتمة حتى في النهار المبصر!.

إذا خرجتم من هذه القاعة واتجهتم بالوجوه شمالاً إلى قاسيون وجدتم ما لا يحصى من الأضواء التي تبدو كسراج كوخ نصف متقد، وتنحدر حتى مواقع أقدامكم، ها هنا هذا الحي، وإذا أغمضتم الأعين وكانت لكم قدرة التصور القادرة على مسح هذه البيوت الزاحفة كالنبات الشوكي على سفح الجبل فامسحوها من الخواطر حتى لا يبقى منها بيت وحتى يغدو السفح قاعًا بلقعًا تمامًا. فهذه هي الصالحية قبل (٨٥٠) سنة! الواويّات وحدها والضباع وبعض اللصوص هم فقط ملوك هذا السفح الأحياء.. وثم ملوك آخرون ولكنهم في القبور، هم من كان الناس يدعونهم بالأنبياء والأولياء. نبي الله ذي

(*) محاضرة الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى ألقاها مساءً يوم الأربعاء ١٩٩٢/١٢/٩ في مكتبة الأسد بدمشق.

الكفل، كهف جبريل، الأنبياء الأربعون.. عدا بعض المغائر الموحشة كمغارة الجوع ومغارة الدم ولكل موقع منها قصة تروى..

بلى... هناك أيضًا معتكفات صغيرة يدعوها الناس أديرة وليست أكثر من غرف بناها بعض الزهاد ويدعونها مساجد منثورة فرادى على السفح الأجرد، فمنذ زمن قطعت آخر معالم الخضرة عليه. علمًا بأنك تلاحظ بوضوح أن ثم في أسفل السفح خطّاً يمتد أوله عند الربوة حتى ينتهي آخره تحت قرية برزة. جنوبه للخضرة والبساتين الممدودة في الغوطة حتى الأفق المقابل.

فلست تبصرُ إلا واكفًا خَضِلاً
أو يانعًا خَضِرًا أو طائرًا غَرِدًا

أما شماله فهو الجرد الموات، هذا الخط إنما رسمه يزيد بن معاوية ثاني خلفاء الأمويين. فقد كان مهندسًا وأجرى فيه نهر يزيد بعد أن أشترى حقوق مائة من جميع فلاحي الغوطة لتصل المياه إلى أراضية في القابون!.

كان الدمشقيون أزهد الناس في هذا الفراغ الترابي الواسع.. وما دامت الغوطة المخضلة بالذي تحت أيديهم فما لهم وله؟ إنه مهجور للزهاد، ومن الطرائف التي يروونها؛ أن الجو الدمشقي أمحل ذات سنة وانقطعت عنه الأمطار، فتنادى شيوخ البلد للخروج إلى صلاة الاستسقاء، وخرجوا ملابسهم مقلوبة مشققة وعيونهم تبكي وألسنتهم تجاهر بالدعاء يريدون الوصول إلى مغارة الأربعين.. حين وصلوا خط النهر وجدوا شيخًا ناسكًا ليس عليه إلا ثوب يقيه فسألهم الخبر؟ قالوا خارجون نستسقي رب السماء!، قال ارجعوا أنا أسقيكم بقدرته تعالى دون عناء، ولما هزئوا منه قال بعض شيوخهم: نجرب إن الله يضع سره في أضعف خلقه.. وقالوا أرنا سرك البالغ، فما هو أن بدأ يخلع ثوبه حتى ضبضبت السماء، ثم ما نزع كمه الأول حتى أرعدت، ثم ما نزع الكم الثاني حتى انسكبت الأمطار كأفواه القرب، فتراكضوا عليه يقبلون يديه ورجليه ويتبركون به فقال لهم: ليس ثمة كرامة ولا معجزة! لقد عودني ألا أقلع ثوبي لأغسله إلا وينزل عليّ المطر لكي لا يجف الثوب، هذا كل شيء!!.

كان هذا هو العهد بأرض هذا الحي حتى جاء يوم في أواسط القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، قبل ٨٥٠ سنة، ونزل الزحف الصليبي بالشام كالجراد المنتشر المفترس، ومن قرية وراء نابلس لا تزال تحمل منذ أقدم العصور اسمها جماعيل بدأت القصة.

الصليبيون الفرنجة كان قد احتلوا فلسطين.. ذبحوا من سكان القدس وحدها سبعين ألفًا تكوّمت أشلاؤهم في الدروب، طردوا سكان المؤانئ وسكنوها ليسيطروا على تجاراتها الشرقية الرابحة. وأما البر الواسع فتركوا فيه الفلاحين المسلمين ليكونوا عبيد الأرض وليعملوا فيها، وإلا فمن أين يأتون بالقمح والشعير والعلف والفواكه؟ أنهم قلائل وإقطاعيون وعلى هذا الأساس مارسوا تحكمهم بالناس، الجريمة الكبيرة أن يهرب أحد هؤلاء الفلاحين، إنهم يلاحقونه بالخيل حتى أقصى الأرض، واحد من هؤلاء الفلاحين. شيخ شدا شيئًا من العلم والدين، وكان على المذهب الحنبلي، كان يجمع الفلاحين أيام الجمع فيعظهم ويدرِّسهم ويحرضهم على عدم دفع الجزية، وعلمت به السلطات الفرنجية فأنذرته ثم أنذرته، كان أبوه من قبله يحرضهم أيضًا، وذاع عنه التقى وشدة الإيمان حتى عرف أن الفرنجة صمموا على قتله، غيره سجن أو قطعوا رجليه أما هو فكان لديهم رأس الأفعى!.

وفجأة لم يعد الشيخ أحمد بن قدامة يظهر في الضيعة، وسرعان ما وصل الخبر الفرنجة بأنه هرب، ولحقوا به حتى نهر الأردن فرسانًا، فلم يجدوا له أثرًا. لقد عبر النهر ومضى. وعادوا خائبين، في ما كان الشيخ أحمد وبعض أهله الهاربين معه يتجهون إلى دمشق لا يلوون على شيء. كانت دمشق قد وقعت في تلك الأيام في يد نورالدين محمود بن زنكي وسمعته في الجهاد تغني في كل جمع وناد..

بعد ثمانية أيام وصلوا أبواب دمشق واتصلوا بجماعتهم الحنبلية في البلد، فظهرت لهم أولى المصاعب، كانت صعوبة مذهبية، فأهل دمشق شافعية، وبينهم وبين الحنابلة في بغداد وغيرها شحناء ومعارك، فلم يقبلوا النزول لهذه الجماعة القادمة عن بعض الأوقاف للسكن، أبقوهم شرقي دمشق عند مسجد صغير لحنبلي قديم اسمه أبوصالح فيه بئر وله بعض الوقف. وانتسب اللاجئون إلى القدس؛ فمن ذا الذي يعرف (جماعيل)! وكتبوا إلى

بعض أهلهم باللحاق بهم، فلحق بهم مرة واحدة خمسة وثلاثون نفرًا من ذكر وأنثى وكبير وصغير هم جمهرة آل قدامة، ومعهم بعض الأولاد، وكان من حسن حظهم أن الفرنج لم يعرفوا بهربهم إلا متأخرين، فنجوا بدورهم ولحقوا بدمشق إلى المسجد الصغير.. وتوالى هرب الهاربين والمسجد يكتظ، فقامت لديهم الصعوبة الأخرى: الصِّحية؛ كانت الأرض بجاجة رطبة مرزغية، ففتك بهم المرض والبرد وسوء الغذاء، واستوخمت حتى مات منهم في نهاية السنوات الثلاث من الإقامة هناك ثمانية وعشرون نفسًا! وهرب بعضهم إلى داريا.. وزاد في المصاعب صعوبة التموين فمن ذا الذي يسعى لهؤلاء من دمشق بالطعام اليومي؟ وتحرك حتى الحنابلة ضدهم. خشوا أن يغصبوهم أوقافهم في مسجد أبي صالح نفسه فطلبوه منهم.

وطاف الشيخ أحمد غوطة الشام وأطراف القرى الحوارنية يلتمس منزلاً لأصحابه الفلاحين فلم يجده، كانت كلها مملوكة لأصحابها، وزاد في ضيقهم أن سكان الباب الشرقي وهم من النصارى كانوا يشربون الخمر في العادة في البساتين، وكثيرًا ما كانوا يغرون بهم الصبيان فيرمونهم بالحجارة.. وهم لا يملكون دفعًا.. فأين يذهبون؟ دلهم بعض أهم الخير إلى سفح قاسيون الأجرد.. ومع أنهم فلاحون ولا شي يزرع في هذا السفح البور ولكنهم قبلوا مرغمين مع أنهم لم يكونوا يعرفونه إلا مدفنًا مجانيًّا لموتاهم، وخرج الشيخ أحمد شيخ الجماعة ذات صباح إلى الجبل فصلى هناك. وأعجبه المكان فقال: موضع مبارك! كان ذلك حوالي سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م.

وكانت هذه الكلمة تعني تغيير مصير جماعة كلها، ومصير البقعة التي اختارها معًا، فأما مصير جماعته فقد تغير من الفلاحة إلى اختيار العلم والتدريس موردًا للعيش، وأما مصير البقعة فهو أنها تحولت من أرض جرداء مهجورة إلى أول مدينة علم في الإسلام لم يبن قبلها ولا بعدها مدينة للعلم وحده.

بنى الشيخ أحمد يعاونه بعض أهل الخير ثلاثة بيوت، له ولابنه وصهره، وبعد ثلاث سنوات ونيف من المقام بمسجد أبي صالح، انتقلت أولى جماعات المقادسة إلى سفح قاسيون، في السنة التالية صارت البيوت عشرة متلاصقة، ولكن سكانها على الرعب الدائم من الوحش وقطاع الطرق واللصوص حرامية وادي التيم، فأقاموا للبيوت

بابًا موحدًا يغلق عليها، ودعا الناس هذه المجموعة السكنية الجديدة بدير الحنابلة، لكن الجماعة المقادسة ظلوا يحملون اسم جامع أبي صالح معهم فكان الناس يدعونهم بالصالحية لا على أنهم صالحون، ولكن على أنهم السكان القدامى لمسجد أبي صالح!.

ولعب تقى هذه الجماعة الصغيرة وعلمها وتدينها أكبر الدور في حمايتها وفي المعونة لها، فقد تكاثرت الدور بالتدريج حولها وتكاثر الزوار والطلاب وتكاثرت الأوقاف والهدايا. تقول ابنه الشيخ أحمد كان الناس ما كانوا يعرفون والدي إلا بعد خروجه إلى الجبل، فكان الناس يأتونه ويزورونه ويهدون إليه وكان السلطان نورالدين يأتي لزيارته، وما كنا نعرف شراء الفاكهة والبطيخ من كثرة ما كان يهدى إلينا!.

وتبرع رجل يدعى أبا الحزم بن صعلوك العسقلاني فبنى للشيخ أحمد مسجدًا اتخذه الشيخ مدرسة لتدريس القرآن وهو ما عرف بالمدرسة الصغيرة (غربي ماسوف يبنى باسم المدرسة الكبيرة أو العمرية) جنوبي دير الحنابلة، وأضيف إلى المدرسة بئر عرف ببئر الشيخ وفرن للخبز.

توفي الشيخ أحمد الجماعيلي سنة ٥٥٨هـ رأس الأسرة ولم تكن قد استكملت كل استعداداتها للانطلاق الواسع، على أنه في المرحلة التالية التي ترافق فيها بروز الأسرة العلمي مع توسع الحي السكني كانت هي المرحلة الأهم والأصعب. وقد تولاها أبوعمر بن الشيخ أحمد. كان يعطيها من ذاته وجهده وتدينه وكانت هي بدورها تعطيه من توسعها وتألقها في عملية تبادل دوري متنامية.

سمعة هذه الجماعة والأرض البراح الفراغ التي نزلتها والخيرات التي انهالت عليها، فتحت عليها بابًا لا ينقطع من اللاجئين الهاربين لا من فلسطين فقط ولكن من بغداد والجزيرة ومن كل مكان فيه حنبلي، بعضهم كان يأتي زائرًا، وبعضهم يأتي للاستقرار. وتنبه الناس في عهد نورالدين ثم في عهد صلاح الدين وأخلافه إلى هذا الموقع الجديد المكتشف للسكني والتوسع الديمغرافي، وكانت دمشق تكاد تنفطر بمن قدم إليها من كل فج تجذبهم سمعة البطلين من شعراء ومحاربين ومتطوعين ومرتزقة وأعوان وكتبه وشيوخ وأهل علم وفقه، فوجدوا في هذه الضاحية غير البعيدة عن دمشق سكنًا طيبًا

وعيشًا رغدًا.. بالعلم وحده! وبعضهم وجد أنها أرض جافة لا تبلى فيها الجثث كما تبلى في أرض دمشق الرطبة فأقاموا لأنفسهم الأضرحة.. فهذا ضريح عصمة الدين ابنة أنو خاتون زوجة نورالدين ثم صلاح الدين. وهذا قبر جهاركس قائد صلاح الدين صاحب بعلبك وعلى اسمه كانت الشركسية، وهذا قبر الشيخ قيمر وذاك قبر عرودك، وقبر محمد بن عمر لاشين، وفتح الدين أبي طالب وغيرهم... وكلها قائمة إلى اليوم.

واستغل صلاح الدين الأيوبي الموقع فأرسل يبني لجنده الأبطال مواقع سكنية في شرقي الصالحية هي التي عرفت فيما بعد بحي الأكراد الأيوبية مجاورًا للمقادسة وبنت أخته، في مطلع هذا الحي مدرسة الصاحبة! فما تزال إلى اليوم معروفة.

في ٦٠٧هـ/١٢١٠م، حين توفي الشيخ أبوعمر كانت الصالحية قد تحولت إلى شبه بلدة ولكن سمعة أبي عمر هي التي طغت عليها، فقد جمع إلى معرفة الفقه والفرائض والنحو، الزهد والعمل والطيبة، يقول أخوه: كان شيخنا، ربانا وأحسن إلينا، وهاجر بنا، وسفرنا إلى بغداد وبنى الدير ثم زوجنا وبنى لنا الدور وكفانا هموم الدنيا، وكان يشترك في الجهاد، وشارك في فتح القدس، ونسبت إليه الكرامات العديدة التي تنسب لأقطاب الوقت. وحين توفي خرج في تشييعه عشرون ألف مشيع من كبار القوم، ولولا بعض قواد الجند يحرسونه بالسيوف والدبابيس ما وصل قبره شيء من أكفانه التي كان الناس يقتطعون منها للبركة!.

ولعل أهم ماقدمه أبوعمر للجماعة المقدسية هي تلك المؤسسة (المدرسة) التي عرفت باسمه المدرسة العمرية، فقد تكاثر التلاميذ عليه فيما بين سنتي ٥٨٠هـ - ٥٩٠هـ فأعانه بعض أهل الدِّين على بناء هذه المدرسة غربي مدرسته في مكان تنق فيه الضفادع بين القصب، وتمطي نهر يزيد المار هناك، وبنى عشر غرف للفقراء وإيوانين. وبعد ثماني سنوات بنى أبوعمر مشروعه الثاني: جامع الحنابلة عند البيوت التي كان يسكنها وكرس به تحول الصالحية إلى «بند»! وبين هذا وذاك استطاع أبوعمر أن يوجد من أهله وأقربائه جماعة علمية تقوم بجميع الخدمات التي يحتاجها المشروعان من تدريس وخطابه وتنظيم للأوقاف وأن يضمن لهذا الخط العلمي الذي رسمه الاستمرار والبقاء.. ولم يكن قد مضى على وفاة أبي عمر كبير وقت حتى كان قد نبغ في أسرته ستة من كبار العلماء.

عماد الدين إبراهيم (توفي سنة ٦١٤هـ)، شمس الدين أحمد البخاري (توفي ٦٢٣هـ)، بهاء الدين عبدالرحمن (توفي ٦٣٤هـ)، تقي الدين عبدالغني بن عبدالواحد (ابن خالته) وله (٤٥) مؤلفًا بعضها في عشرين مجلدًا وبعضها في عشرة، وموفق الدين عبدالله (حفيد شقيقة) وهو شيخ الفقة الحنبلي كله بكتابه المغني في عشرة مجلدات. حتى لقد نسبوا إليه الكرامات والمشي على الماء ومؤلفاته تقارب الثلاثين، وأخيرًا ضياء الدين محمد بن عبدالواحد (ابن شقيقة أبي عمر)، (ت ٦٤٣هـ) من العلماء الربانيين ومن الحفاظ وله حوالي عشرين مؤلفاً وهو الذي أنشأ على باب دير الحنابلة دار حديث الغرباء وجعل فيها مكتبة واسعة وقف عليها كتبه.

كانت سمعة هذه الجمهرة من العلماء تشكل أكبر رصيد للمدينة الناشئة: الصالحية كانت أشبه بالمغناطيس القوي، فما لبثت الأموال والأوقاف أن ازدادت على الجماعة المقدسية والمدرستين، وتكاثرت الأبنية والبيوت حولهما حتى أضحت البقعة في أقل من نصف قرن بلدة كاملة ذات أسواق ومنازل وسكان ومساجد ومؤسسات وأفران وحمامات وحياة عامة واكتفاء بذاتها عن مدينة دمشق وتمتد على ثلاث كيلو مترات من امتداد نهر يزيد. صحيح أنها برزت في العالم الإسلامي المشرقي على أنها مدارس للمذهب الحنبلي، ولكن أصحاب المذاهب الأخرى لحقوا بها وأسسوا بدورهم مدارس ورباطات وخوانق وتكايا ومعتكفات جعلت البلد رغم سمعته المميزة بلدًا خليطًا لكل المذاهب والتيارات الدينية والأفكار، وصارت الطريق البستانية التي تصل بين هذه المدينة ودمشق مطروقة دون انقطاع بالطلبة والعلماء والتجار والباعة والحطابين والقطانين وعمال البناء والنساك والجند والحدادين والنجارين وأهل الحرف من كل لون، وقد أسهم في نشاط المدينة الجديدة:

العامل السياسي: فبعد نجاح صلاح الدين في تحرير القدس وتهافت الناس على عاصمته دمشق قربى وزلفى. والعامل الاقتصادي: بعد تحول دمشق إلى مركز للسلطان وحاشيته وأمرائه وجنده ومماليكهم وتوسع حاجاتهم اليومية، والكثافة المطردة في الحركة التجارية والحرف. بالإضافة إلى العامل الديمغرافي الذي جعل الناس في حاجة إلى مدى سكني. فكانت الصالحية إحدى مناطق خمس إستوعبت هذه الزيادة

خارج سور المدينة: الشاغور وقصر حجاج جنوب غربي المدينة والفراديس في الشمال وقرية المزة غربي دمشق، وتميزت الصالحية على هذه التوسعات الجديدة بالطابع الديني المزدوج الذي التقى فيه تدين المقادسة مع قدسية جبل قاسيون.

يضاف إلى هذا أن التدين والمعرفة الدينية في تلك الفترة بعد استرداد القدس أضحت عملاً من أعمال الجهاد والمقاومة للاحتلال الصليبي يشجعه الأيوبيون ويعتبرونه رديفًا لعملهم الحربي ويؤيدون وجود المزيد من شيوخ الدين ومن بناء المدارس للعلم والمساجد والزوايا والربط للعبادة لما في ذلك من دعم البناء الدفاعي ودعم التعبئة العسكرية بعد أن ازدوج الخطر الصليبي بالخطر المغولي.

ويضاف أخيرًا أن العصر كله كان عصر يقظة سنية واسعة تجمعت كلها في دمشق، وقد وجد المذهب الحنبلي مكانه المريح في بلد خاص به هو الصالحية ليسهم دون كبير زحام أو خصومه في العمل الديني العسكري ضمن خط دفاعي خارجي داخلي واحد. وإذا كنا لا نجد قبل سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م في الصالحية أي قبيل موت أبي عمر سِوى:

١ - جامع واحد هو جامع الحنابلة الذي بدأه أبوعمر بأموال بعض المحسنين، فلما قصر المال تقدم صاحب أربيل مظفر الدين كوكبوري فأتمه وحفر فيه بئرًا ووقف عليه الأوقاف.

٢ - مدرسة واحدة هي العمرية.

٣ - أربع ترب (أضرحة) لبعض الكبراء.

وبعد قرن واحد من ذلك صار في الصالحية أربع دور للحديث هي: الضيائية، والأشرفية، والناصرية، ودار الحديث العالية، وفيها جامعان جديدان هما جامع الماردانية عند الجسر الأبيض وجامع الركنية في شرقي الصالحية، وعلى اسم بانيه ركن الدين، (يسمى الحي كله باسم ركن الدين الآن).

وفيها ١٣ مدرسة، اثنتان للشافعية واثنتان للحنابلة وتسع للأحناف (بناء الأمراء الترك) هي الضيائية الموقوفة على أمير الحنابلة والصاحبة بناء ربيعة خاتون سنة ٦٢٨هـ،

والبهنسية ومن مدرسيها ابن خلكان، والأتابكية ومن مدرسيها بهاء الدين السبكي. وأما مدارس الحنفية فالمدرسة الجهاركسية ولا تزال قائمة، والمقدمية البرانية والمعظمية غرب الصالحية والشبلية والعلمية والميطورية والقاهرية والعزيزية واليغمورية.

وفي الصالحية أيضًا: البيمارستان القيمري الذي اكتمل فيه الجانب الصحي للمدينة وتوزع فيه الأدوية مجانًا، وأعداد من زوايا الصوفية ذات الأوقاف الدارة، وأعداد أخرى من الترب الفخمة أقيم منها (٢٣) في العهد الأيوبي ثم اكتملت أربعًا وستين.. وفيها من كبار الأطباء مهذب الدين الدخوار صاحب مدرسة الطب الدخوارية، وقاضي القضاة ابن الصالح، وعلي بن محمد السخاوي شيخ النحاة والقراء والفقهاء.

هذا كله يعني أن المجتمع الصالحي قد أضحى خليطًا من مختلف البلدان ومختلف المذاهب ومختلف المشارب والاتجاهات.. والسؤال الذي يلح على خاطركم: إذن فمن أين جاءت سمعة أهل الصالحية بالبخل؟ لو أنهم كانوا من قبيل واحد، من بلد واحد، من هجرة واحدة، لحاولنا التفسير ولكن.. من أين يروون أن الصالحي يسألك إن جئته مساء: تتعشى وإلا تنام مبكرًا؟ وكيف يقولون أن الصالحي يضع المائدة ويضع الماء بعيدًا عنها، فإذا نظر الضيف حوله يلتمس الماء قال الصالحي: «والله بتاكل. ما بيصير؟» فيخجل الضيف، ويحمد الله، وتحمل المائدة من أمامه.. وفيما يصفون بالمقابل أهل الميدان بالكرم والسخاء، ويتندرون بالعزيمة الصالحانية، (تفضل) ولا تتكرر الدعوة! .. من كان منكم يتصور أني سأدافع عن أهل حارتي وأجادل في كرمهم فقد ساء فأله. الميداني – بلى – أكرم وأسخى، لكن المسألة لا علاقة لها بالأخلاق الكريمة أو غير الكريمة، القضية بنت الوضع الجغرافي والمصلحة المباشرة. الميدان مفتوح على حوران أمامه، والميداني حين يسافر إلى حوران لجمع ديونه لا يجد فندقًا ولا مطعمًا فهو عند (معزية) كما يقولون.. حتى إذا جاء الحوراني دمشق وجد المعاملة نفسها في الميدان، إنه دين ووفاء، أما الصالحاني فهو على سفح جبل لا يأتيه منه أحد، فهل يقدم الطعام والمأوى للريح؟! المسألة عادة بحته ومصلحة .. وأولئك الذين كانوا يأتون الصالحية من دمشق، هل كانوا يأتون خماصًا ويرجعون خماصًا؟ أبدًا، ولكنها تندرات الأحياء بعضها على بعض، وأفاكيه يقتل بها الناس الوقت .. ريثما تنصب الموائد وهي تنصب على طرفي المدينة

سواء بسواء... والسلوك الفردي مع العادة هما اللذان يحكمانها، ولوكره المجادلون.. أضف إلى هذا أن شغل الميداني بالطعام لضيوفه فهو يقدم مما عنده، أما الصالحاني فهل يقدم لهم مما لديه؛ جزءًا من الحديث أو فقة ابن حنبل؟ إنه ليس يملك غيره فهو ثروته.

وتجاوزت أسرة قدامة بمدينتها الصالحية السنوات المائة الأولى وهي في الأوج، ولكن يلاحظ أن اللامعين الكبار فيها بدأوا يقلون، استعاضوا بالألقاب الكبرى التي ورثوها عن أجدادهم جدية العمل العلمي، قل سهر الليل على الشموع، والاعتكاف العلمي، وصار العلم للأسرة مهنة، لا هواية، وتولوا وظائف القضاء والمشيخات والأوقاف والخطابة والتدريس وحمل الألقاب الضخمة مقابل ضعف إبداعهم في التأليف، كانت الأسرة تسير لتكون أسرة موظفين. لم ينقطع رفد الجماعة القادم من جماعيل وما حولها، ولعله زاد، ولكن نوعية القادمين كانت ترغب في العيش الرفيه لا الجد العلمي المكدود، معظمهم فضل عيش «المدينة» الموفور على معاناة الطين والوحل في بلدته الأولى، حتى حين تحررت فلسطين على يد صلاح الدين لم يعد إليها إلا الأقلون. بل قدمت الصالحية عدة أسر من أقرباء آل قدامه: مثل آل عبدالهادي وآل سرور وبني عبدالواحد وأسرة الرداوي وغيرها، لكن من حسن حظ هذه الأسر أن بعضها كآل سرور عادت فأقامت لنفسها مركزًا علمياً خاصًا في أرضها الأولى، في حين شارك في مركز الصالحية جاليات حنبلية من كان مكان من بغداد وحران وصفد وعسقلان والخليل والرامة وأربيل وبالس، وكان منها ابن تيمية الإمام المشهور (٦٦١هـ - ٧٢٨هـ) والحسين ابن المبارك الربعي البغدادي (ت ٦٩٢هـ) وإسماعيل بن محمد الفراء (ت ٧٢٩هـ) وابن رجب البغدادي الإمام بجانب الكثير ممن جاؤوا من أتباع المذاهب الأخرى فاستقروا فيها كالذهبي والعراقي وابن فهد المكي وابن مفلح الراميني واليونيني.

في هذه الغمرة تفشت في المجتمع الإسلامي مشرقه ومغربه حركة التصوف . أراد الناس المبالغة في التقرب إلى الله فانصرفوا إلى ترداد اسمه وذكر نعمه في حفلات لا ينقصها الطبل والزمر والصنوج والألوية.. واكتسحت هذه الظاهرة تحت تأثير الخطرين المغولي والصليبي كل الناس، فلا ملجأ إلا إلى الله، وتكاثرت الفرق الصوفية كالكيلانية والمولوية والرفاعية والداودية والنقشبندية والجباوية ولكل منهجها وطرائقها في التعبد

لله وإظهار الغيرة والحب للرسول حتى عمّت جماهير الناس فمن ليس له شيخ فالشيطان شيخه، ولست تسمع في أزقة الفقراء إلا قصفًا وعزفًا وترداد: الله.. الله... وكما يجري في كل عمل نبيل ينزل إلى الشعب فهو لا ينجو من أن يصبح قشورًا وخوارًا وحركات مهووسة، وانتشرت بين العامة أفكار تضع للزهاد والنساك مراتب ودرجات ومناقب وكرامات وظهرت حتى بين النساء أعداد من مسندي العصر وممن بينه وبين الرسول ثمانية أو تسعة رجال وهذا علو الإسناد، ولدينا أسماء ما يزيد على مائة سيدة من رواة الحديث اللامعات ومن قائمات الليل! وبالمقابل وجد بعض شيوخ الأسرة الذين لم ينسجموا مع السياسة العامة للدولة، وكانت لهم ندواتهم الخاصة، لكن باقي الشيوخ والذين يزيدون على الستين كانوا نموذج الموظفين الدينيين، وكان التعاون بينهم وبين الحكم قائمًا متصلاً، وتشكلت لهم في أوهام الناس – وهم رجال الصوفية – مراتب من أجهزة روحية يعترف بها الناس ولهم مناصب ودرجات رجال الحكم الدنيوي نفسها من أقطاب وسلاطين وأبدال من الصعب حصرها. على أنَّ تدخل الحكام في هذه الأمور أفقرها مع الأيام وقلل مواردها، وفيما صار للصالحية محاكمها وفيها (٣٠) قاضيًا على المذاهب الأربعة ولها والٍ خاص ومحتسب وحراس أمن يختصون بها. اكتملت بذلك دورتها المدنية.. ولكن خسرت كثيرًا من طابعها العلمي الخالص.

وفوجئت الصالحية بضربتين من أقسى ما قد يصاب بهما بلد مزدهر، وبين الضربة والأخرى مائة سنة، لكن نتائج الأولى لا تختلف في كثير عن نتائج الأخرى. كانت الأولى ضربة المغولي قازان أواخر القرن السابع، إذ نزلها جيش التتر مع دمشق، وفيما كان يخطب لهم على منبر الجامع الأموي كانت الصالحية تنهب وتحرق وتدمر. الكرج والأرمن من النصارى قدموا مع التتر وسبوا من أهلها الخلق الكثير ودخلوا على المحتمين بجامع الحنابلة، فلا تسل عن السبي وهتك الأعراض. أربعة آلاف أسير أخذوا، والحرائق تأخذ الحي وتأتي على كتب المكتبات، حضر هذه النكبة ابن تيمية ولم يستطع فعل شيء، فالنهب امتد إلى المزة وداريا وقتل فيه الكثير من الشيوخ.

بعد مائة سنة أخرى، وبعد أن لعقت الصالحية المنكودة جراحها وكتب عنها ابن بطوطة الذي زارها مرتين في تلك الفترة أنها مدينة عظيمة لها سوق لا نظير له،

وفيها جامع ومارستان ومدرسة لأبي عمر لتعليم القرآن، وتجري على تلاميذها المأكل والملبس. كانت الضربة الثانية: ضربة تيمورلنك. نزلت أقسام من جندة بسفح قاسيون حتى قبة سيار.

وضرب تيمور معسكره هناك. وجاء مع الوفد الذي يفاوضه في تسليم البلد المؤرخ المعروف ابن خلدون، ولكن المفاوضات لم تمنع الجند التيموري من اكتساح المدينة مع الصالحية بالنهب والإحراق والتدمير. فلما خرج تيمور منها بعد أيام، كانت جدران الجامع الأموي محترقة حتى أواسطها. ووزعت الصالحية مع غنائم دمشق دورًا ومساجد ومدارس وزوايا، ورجالاً ونساء، لم يسلم شيء ومع ذلك ترى حيوية الحي الصالحي تعاوده بعد نصف قرن أو نحوه، ويصفها القلقشندي صاحب صبح الأعشى بعد هذه النكبة الثانية بأنها مدينة ممتدة على سفح الجبل تشرف على دمشق وضواحيها ذات بيوت ومدارس وربط وأسواق وبيوت جليلة، ولكل من دمشق والصالحية البساتين الأنيقة تتسلسل جداولها وتتغنى دوحاتها والجواسق العلية والبرك العميقة والبحيرات الممتدة والحور المشوقة والرياحين المتأرجحة الطيب والفواكة الجنية والثمرات الشهية والأشياء الغنية التي تغني شهرتها عن الوصف ويقوم الإيجاز فيها مقام الإطناب..

وجاء العهد العثماني يجر الطرابيش الحمراء العالية وسيوف الذهب.. ولقد أصابت الصالحية منه ضربة وأيد تنهب .. وكان لا يزال فيها بقية من عزة الماضي وتألقه، ولكن على هونٍ ودون حماس كبير، فبنى السلطان سليم فيها جامع الشيخ محيي الدين بن عربي عند قبره وبجانبه تكية للخير ونواعير تصعد إليه بالماء عن نهر يزيد. وجعل فيه ظاهرة معمارية قلَّ أن تنبه إليها أحد، وجعل المئذنة الحجرية الفخمة تقوم فوق باب الجامع المفرغ، وظهرت بعض دور القرآن ودور الحديث والجوامع والزوايا والخانقاهات.

كانت قوة الدفع الحضاري لا تزال ترسل بأشعتها الأخيرة ولكن في بطء متزايد. كانت جميعًا ظلاً وتتمة لتألق الصالحية السابق. كانت حاراتها حتى الآن قد صارت (٣٨) حارة كثيفة السكان، كثير منها ذات أبواب تغلق في المساء، وفيها من الجوامع والمساجد قرابة (١٥٠) مسجدًا وجامعًا، وإلى غربي جامع الحنابلة (٦) مساجد وفي حارة المدرسة العمرية (٦) وفي حارات الشبلية (٩) والخراب (١٠) والركنية (٧) ورأس

العلية (الصاحية) (١١) وفي ما بين الجسر الأبيض والدلامية (١٥) وفي غربها في السكة (١٠) وفي الفواخير (٧) والبلاقنة (٦) ومعظمها من الطين واللبن لا يقاوم الزمن، ولكنه يعكس صدى التدين العام الذي أناخ على الناس وزحف بين البيوت.

أما الأبنية الهامة الحجرية فتقوم على امتداد السوق الرئيسة وتشمل دارين من دور القرآن وستة من دور الحديث وخمسة جوامع و(٥٨) مسجدًا و(١٦) مدرسة منها (١٢) للأحناف، وكان في الصالحية خمسة خانقاهات ومارستانان و(٢٩) زاوية و(٦٤) تربة وسبعة وعشرين حمامًا و(١٦) رباطًا للنساء والأرامل عدا (١٣) خانًا و(١١) سوقًا و(١٢) قصرًا وعددًا من المعاصر والبساتين والطواحين والاسطبلات. وتعلو البلد غابة من المآذن تظهر فيها (٢٤) مئذنة وعشر قباب كبرى عدا أقباب الترب، وإذا لم يكن ثم إحصاء يقدر عدد سكان هذه الضاحية فليس من المبالغة تقديرهم بما بين ٢٥ - ٣٠ ألف إنسان استنادًا إلى أعداد الجوامع والحمامات وآبار المياه.

لكن كان لابدّ يومًا أن يصوح الربيع وتأخذه لفحات الصيف ثم صبارة الشتاء. عشرات ألوف الأسرجة التي كانت تسهر على نسخ الكتب أخذت تنطفئ . مئات العلماء أخذوا يرحلون إلى دمشق الحاضرة. وكان في المدرسة العمرية ما بين ٥٠٠ إلى ٧٥٠ طالب فتقلصوا إلى أقل من النصف والتناقص في ازدياد، وكان لهم يوميّاً ألف رغيف فتناهبها الموزعون والمشرفون، وبجانبها أكلات حلو في كل مناسبة، وفيها ٣٦٠ غرفة خلاوي للمدرسين والزهاد والطلاب عدا الساحات والأواوين، فصار معظمها فارغًا يأوي إليه المشردون. وحل محل الشيوخ الربانيين بعض المجاذيب! وأخفى الكثيرون وثائق الأوقاف طمعًا في الاستيلاء عليها، وأولئك العلماء من آل قدامة وسرور وعبدالهادي وغيرهم والذين يزيد عددهم على ١١٥ شيخًا لم يبق منهم أحد. وكان ابن طولون وابن عبدالهادي وعبدالغني النابلسي آخر قناديل المدينة قبل الانطفاء الأخير...

وشيئًا فشيئًا انقسمت المدينة طولانيّاً نصفين. انزاحت الطبقة الارستقراطية الغنية إلى جنوبي نهر يزيد حيث الندى والخصب وأقامت هناك سكنها، وتكاثرت طبقات الفقراء في الأعالي الجبلية تزاحم المقابر التي ملأتها، فالبساتين والفواكه والزهر والماء لجماعة، والتراب والوحل وصراخ الجنائز للآخرين.

آخر ملامح مدينة العلم التي فقدتها الصالحية هي مكتبة المدرسة العمرية، لقد جمعها الشيخ طاهر الجزائري أواخر القرن الماضي مع ما جمع من المخطوطات وجعلها دار الكتب الظاهرية، واضعًا بذلك نقطة الختام! وأهملت المدينة قبل ذلك ومن بعده، حتى طريقها الرئيسي انتهى مخاضة من الوحل.. وما أزال أذكر كيف تآمر أهل الحي سنة ١٩٢٨ على تبليط الطريق الطويل الممدود بين المهاجرين وحارة الأكراد، فقد دعوا رئيس الدولة يومذاك الشيخ تاج الدين الحسني لزيارة الشيخ الأكبر! وهو يوم لو تعلمون عظيم، وتراكضنا أطفالاً في الخامسة والسادسة وأكبر وأصغر نريد أن نرى رئيس الدولة، كيف شكله؟ خباثة بعضهم أقنعت الشيخ أنه لا يجوز أن يأتي الشيخ محيي الدين إلا مشيًا إكرامًا له.

ونزل الشيخ تاج الدين من سيارته التي تحمل العلم ومشى في الوحل والطين على مدى كيلو مترين والناس عن الجانبين يعتذرون له بأنه الطريق.. ووصل أمام الجامع بعد الجهد وصفق الأطفال.. ولكن أهل الحي كانوا قد أخذوا من الشيخ الوعد برصف الطريق. وهكذا كان ورصف الطريق.. أما نحن الأطفال فكان يهمنا أن نرى رئيس الدولة، ورأينا كتلة من اللحم تتدحرج وعليها لفة رفيعة بيضاء.. وخاب الظن! ليس وراءها أحد وقد ظننا الباشا باشا!...

وتقطع اليوم هذه الصالحية طولاً وعرضًا فلا تجد إلا المساكين يلتمسون بعض الشمس، وبائع البرتقال ينادي، أو بائع القماش الرخيص، أو الإسكافي والخضري والسمان والخياط والخباز واللحام وأكوامًا من الناس في الطرقات يحمل كل واحد منهم ألف هم في رأسه وهو يدخل بيته العتم. وتسأل عن أبي عمرو وعن ابن طولون وابن عبدالهادي وسبط ابن الجوزي وابن رجب وابن مفلح الراميني نجوم الصالحية، فينظر إليك المسؤول متشككًا في عقلك وقد يقول: أبوعمر؟ عرفته إنه جارنا الطيّان، إن بيته عند المنعطف! ثم يغلق الباب عليه!. ويغلق أمامي وأمامكم كل حديث!

أما مدينة العلم التي كانت تصدِّر قضاة القضاة وكبار الشيوخ والعلماء للعالم الإسلامي فقد ذهبت مع ما ذهب .. لم يبق منها ولا الذكرى!. إلا ذكرياتك أنت... فتبكي!

****

الوثائق الأدبية(*)

منذ سنوات .. يوم كنت أضع كتابي عن (القصة في سورية)، وألملم على السحت والضياع مادته، يومذاك كنت أذيب الساعات - لا أدري بها - بين السلالم والرفوف المترتبة، في المكتبات العتيقة ودور الكتب، بحثًا عن قصة، صفحة، خبر، كلمة تمس البحث الذي كنت أبحث. وكم خرجت أغبر المقلة، أسود القميص واليدين والأنف بالغبار الكسول، والحصاد نزر قليل لا يغني من نهم! وأتى حين، كنت فيه على الشك، بيني وبين نفسي، من أن أستطيع الوصول إلى شيء هام في الجذور الأولى للفكر القصصي في سورية... والجذور الأولى يعلكها النسيان ويسدل بينها وبين العيون حجابًا جديدًا كل يوم، ثم أتى حين كنت أحلم فيه، مجرد حلم، بأن أقع صدفة على بعض الكنز المرصود في رف مهجور أو مجلة قديمة، فإذا بين يدي قصة أو رواية أو مسرحية مما كتب في بلادي قبل سبعين وثمانين وتسعين سنة، وإذا عندي إحدى ركائز البحث وأحد فتوح الكتاب!.

ولم يكن الحلم بعيدًا. ولكنه كان ممطول الاستجابة مجهول الينابيع، لأن الفكر القصصي في الفترة الأولى للنهضة العربية، لم يكن معترفًا به، فكرًا ولا فنًا ولا شيئًا من أدب! تراث القباني (أبي خليل) والقساطلي (نعمان) والمراش (فرنسيس) والخوري (داوود) وغيرهم لم أجد منه إلا اللمم.. وكان مصباح ديوجين يموت بين يدي!! ولكني قبل أن أصدر الكتاب بالذي جمعت سنة ١٩٥٨ كنت قد وصلت إلى شيء جدي.

اطّلعت على بعض تراث القباني، واستوفيت قصص القساطلي قراءة كاملة في مجلة (الجنان) وقد وجدت ما كتب المراش جميعًا أو كدت. أما المعلم داوود الخوري

(*) كلمة قدّم بها الراحل كتابًا بعنوان (المعلّم داود قسطنطين الخوري.. تراثه في الرواية والشعر والأدب)، وزارة الارشاد القومي بالجمهورية العربية السورية جمع مواده د.شاكر مصطفى وكتب مقدمته عام ١٩٦٤.

فلم أجد له شيئًا غير عناوين الآثار التي كتب. ولم يكن المعلم وحده هو الذي فات يدي واطلاعي، فقد كان ثمة أسماء كثيرة غيره، بقيت في طيات كتابي أسماء فقط، في انتظار باحث يكشف عن وزنها الأدبي..

ومرّت سنون...

ثم وجدتني في صدفة من الصدف في (سان باولو). ووجدتني أقع من حيث لا أحتسب، وحيث لا أنتظر، على بعض حلمي القديم! لقد عثرت هناك على تراث المعلم داوود الخوري! وإني لأنحني، ها هنا، احترامًا وشكرًا لذلك التجاوب الطيب الذي قابلتني به أسرة هذا المعلم في ذلك المهجر البعيد، حين رغبت إليها في نشر تراثه، ولتلك الهمة الكريمة الدؤوب التي جمعت لي ذلك التراث، كلمة كلمة، وشطرًا شطرًا، عدة أشهر. ثم قدمت بعد ذلك ما يجب من النفقة لنشره، تكريمًا لوالد الأسرة نفسها، وخدمة للتاريخ الأدبي العربي في وقت واحد. وما أبرّ المقصدين.

وليس من الممكن أن تقرأ هذا الكتاب للمتعة الفنية. لقد كان كذلك لو كنا في عام١٨٩٠ . إن ما أغرق الفكر العربي الحديث من آثار ومن تطورات قد محا الكثير من ألق الأسطر وتلاوين الخيال. بهت كل شيء على القدم فلم يبقَ من معظم هذا التراث الذي يملأ هذه الصفحات الخمسمائة، سوى نكهة التاريخ.

إن شئت أن تعرف قيمة الكتاب فاقرأه بعيني فتى من أواخر القرن الماضي: ليس حوله من الثقافة إلا ما في بعض الكتب الصفر، ولا من «التشخيص» إلا «قره كوز» ولا من الشعر إلا من يصنفه الفقهاء، ولا من الغناء إلا ما يمتد بين (فرح) و(فرح) من موال مكرور، ولا من الرواية إلا ما يذكره (الحكواتي) في غبش المقهى عن (الهلالي) و(الزناتي).

وإن شئت أن تعرف قيمة الكتاب فاقرأه كوثائق أدبية للدراسة والتحليل، تستقرئ فيها ما وراءها، وما تعني، وما تسجل. إنه يمثل طورًا من الأطوار الأولى التي قام عليها فكرنا الأدبي الحديث. وأنه ليحدد، موضع ذلك الفكر في مطالع هذا القرن، من التطور ومن التأثر بالآداب الأجنبية.

ضمن هاتين الزاويتين تتكشف قيمة الآثار وقيمة ذلك المعلم السابق الذي كتبها وبقي يكتبها أكثر من خمسين سنة. لقد كان من الرواد الماهدين الذين عبّدوا الطريق لما نعيش اليوم من تطور فكري وفني. لقد كتب الكثيرون عن (أبي خليل القباني) الرائد والماهد الطليعي. ولكن أحدًا لم يكتب بعد عن تلاميذه ومدرسته. وهذا تلميذه الأول وصاحب مدرسته في حمص.

لقد عرف أبوخليل صاحبه المعلم داوود في دمشق. عرفه، لا موظفًا في الولاية كما عرفه الناس، ولكن شاعرًا يجيد القافية لمسرحيات القباني، ويعين عليها، ويحسن الموسيقى والتلاحين، وتهتز لهاته بالغناء وللغناء! وفي مسرح القباني في (خان الزيت) تذوّق داوود فن صاحبه القباني، وفتحه الجديد في المسرحية الغنائية التي تجمع – الشعر والغناء والرقص والقصة، وتصفع جليد الحياة الرتيبة في ذلك المجتمع الحميدي المغلق!.

لا شك أن المعلم داوود قد بكى حظ صاحبه القباني يوم نهب العامة مسرحه ونكبوا به النهضة الفنية. ولا شك أنه هو الذي أوحى، أو أن صداقته هي التي أوحت، إلى صاحبه أن يرحل إلى حمص ليستأنف حياة جديدة فيها بعد أن خنقت النقمة الرجعية (الكوميضة) التي أطلقها قبل الأوان، للناس، وبعد أن طاردته غضبة الوالي ومجموعة اللحى التي كانت تطيف به!.

في حمص، لا في دمشق ولا مصر، تأسست مدرسة القباني، وعاشت حوالي عشرين سنة بعده. هناك في بلد ابن الوليد والميماس والحجارة السود، تجمع حول أبي خليل عدد من هواة الفن المنتجين. عاشوا معه وعاش لهم سنة كاملة. فتحوا له «قاعة» لصنع النشأ وفتح لهم آفاقه في الفن.. كان منهم: عبدالهادي الوفائي، محمد بن خالد الشلبي، يوسف شاهين، ومنهم المعلم داوود قسطنطين الخوري.

كان هؤلاء هم «المدرسة» التي تابعت في حمص جهد القباني. بعد أن فرّ بنفسه وفنه إلى مصر. إن هذا الكتاب هو بعض آثار تلك المدرسة وذلك الجهد القديم..

أعرفت لماذا هذا الكتاب بعض أركان حلمي وبحثي منذ سنوات؟ ولماذا أهمني أن يوضع بين أيدي الباحثين؟.

وبعد فهذه كلمات ما قصدت بها إلى التحليل والدرس، فذلك ما يتجاوز طوقي واهتمامي في هذه العجالة، وما قصدت بها شكر الذين نشروا الكتاب وإن كانوا يستحقون كل مكرمة وشكر، ولا قصدت إلى تقديم آثار من الروائع التي لا تدانى، فإن صاحبها نفسه، لم يزعم لها ذلك .. كل ما في الأمر أني سعيد بصدور الكتاب، لأني إنما أقدم فيه بعضًا من أحلامي القديمة لمن يحلمون، في المستقبل، بمثلها، من الباحثين. وسعيد أيضًا بهذا الكتاب - الوثيقة، لعل السبيل إلى بحث الفكر الأدبي الحديث لدى العرب، يصبح به أكثر نورًا وأهدى موردًا. إنه «شهادة» حية تبعث، وقد مضى على طيها بين سبعين وثمانين سنة. وأيّاً كان مذاقها العادي أو الغريب اليوم، فإن من حقها أن تأخذ مكانها الذي تستحقه في تاريخنا الفكري الحديث! ما من ذرة إلا ولها مكانها في هذا الكون الكبير، كون الفكر، أوسع الأكوان.

شاكر مصطفى

دمشق - أيلول ١٩٦٤

****

بين شاكر ورفاقه
رسائل متبادلة

رسائل من الشاعر نزار قباني

إلى د. شاكر مصطفى

الحبيب شاكر،

وجهك الكبير النبيل لا يزال يتابعني.. سافر معي في الطائرة.. وحين فتحت حقائبي في منزلي في بيروت.. وجدته فيها أيضًا.

وجهك، منذ وصلتُ مطار الكويت.. كان سقفي وشمسي ووسادتي.. وجهك.. كان الكويت..

ولأنني عرفت الكويت من خلال وجهك.. أحببته كما لا تحب الأوطان.

طبعًا.. لا أريد أن أشكرك والسيدة ظبية على محبتكما وكرمكما الأسطوري.. فالشكر يفسد الأشياء الجميلة.. وأنا أفضِّل أن أترك الأشياء الجميلة.. على الطبيعة.. أي بدون رتوش.. وبدون مقامات الحريري.

أنت فخرنا يا شاكر، كل الذين حدثوني عنك في الكويت كانوا يدغدغون غروري أنا.. لم يكونوا يعرفون أنك أنا..

طارت اليوم إليك نسختان من (مواقف)، أي العدد الأول والثاني، ستحب هذه المجلة حتمًا، وأعتقد أنك تلقائيًا ستعتبر نفسك واحدًا من كواكبها.

أرجو لك وللسيدة ظبية وللأولاد الأعزاء السعادة والعافية، وأتطلع إلى رؤيتكم في بيروت قريبًا..... مع الحب الكبير..

نزار قباني

بيروت ١٩٦٩/٢/٢٥

****

الحبيب شاكر

تنتهي الرحلة الكويتية.. وتبقى أنت كبيرًا كما عرفتك.. رائعًا كما عرفتك.. مرتفعًا كما عرفتك... تنتهي الرحلة الكويتية بأبيضها وأسودها، بثلجها ونارها.. بشمسها ومطرها.. ويبقى الشعر ملك الملوك.. يأمر فيطاع.. ويرفع يده فتتلون بلاد.. وتنتقل بحار من مكانها.. ويفرك خاتمه فتصبح الأحرف الأبجدية بساتين نخيل.

تنتهي أيام الكويت الخرافية.. وتبقى كلماتك عني تضيء وترتعش كالحَلَق الطويل في أذن غجرية من إسبانيا.

كل ما كتب ويكتب عني.. هنا.. وهناك.. «فراطة».. ما كتبته أنت، هو التاريخ الوحيد الذي أعترف به.

إنني لم أقرأ كلمتك عني.. إلا بعد عودتي إلى بيروت، واطلاعي على قصاصات الصحف الكويتية.. ولولا أن الناس كانوا في استقبالي في مطار بيروت.. لعدت على الطائرة ذاتها.. لأقبّل عينيك.

أريد الكلمة مكتوبة بخط يدك.. فأنا أريد أن أنشرها كمقدمة لإحدى مجموعاتي الشعرية.. وأنا متأكد من إن الناس حين سيقرأون مقدمتك.. سينسون شعري..

شكرًا لك ولظبية على ما غمرتموني به من حب وحنان، ومن بيروت تبعث لكم بلقيس وهدباء بكل أشواق القلب.

نزار قباني

بيروت ١٩٨١/١١/٢٥

****

أغنية لشاكر مصطفى

أفتكر، وأنا أدير نقطة هنا وفاصلة هناك، وأداري ثيابي من بقع الطيب يمطرني بها شاكر مصطفى، ما جدوى باب السنديان العتيق والجنينةُ على مبعدة خطوتين منه.. زهرٌ.. وشمسٌ.. وعافية.

ما أسعدني لو تجاوزني الناس.. لو تجاوزوا الباب الخشبي المتكي على مفاصله الملحفة.. الى حوائط تبنى من عبير، الى فسقية تتغرغر بأغنية.. الى مَدَّة عتابا بدأت منذ كان الشوق في بلادي ولم تنته بعد..

ما أسعدني لو دفعتَ الباب ومشيتَ وحدك.. فالطريق الى الكَرْم لا تضيِّع أبدًا.. لا تضيِّع أحًدا.. اتبعْ أول نحلة عطشى وهي تدلك على عناقيد تكاد حركة الشكر في أنابيبها تُسمع.

أنا إذن – وورائي كُوم الأخضر والأحمر – لا أكثر من بطاقة توضع على إضمامة زهر.. من لصيقة توضع على حُقّ طيب في إحدى دكاكين العطور في باريس.. من جسر ينتظر خلفه ألف موعد مطيّب، فما أسعد القارئ لو ألقى نفسه رأسًا في أحضان قارورة العبَق.. أعني في أحضان شاكر مصطفى.

هذا هو موعدي الأول مع شاكر.. موعد على ضفة مَحْبَرة تسبح في مدِّها الأسود حياته وحياتي.. موعد على حضن حرف. فما أحلاك يا شاكر ورائحة الحبر تَهبّ من قميصك هبّات تتمنى معها الليلة لو أصبحت دواة..

هل أدركتَ الآن موقفي في زحمة العناقيد.. أنني لا أستطيع أن أضيف قشة صغيرة.. قشة واحدة إلى هذا الكون النسيق الذي عمره شاكر وحمل له الحجارة بمنقاره.. حجرًا.. حجرًا.. من مقالع القمر.. ومن نهار عينيه.

لذلك أؤثر أن أسمي هذه المحاولة – أغنية لشاكر مصطفى – لا مقدمة، فأنا – بيني وبينك – لا أؤمن بالدهاليز في الفن.. لا أؤمن بالوساطة ولا الوسطاء.

وأحلف لك أن الدليل الذي مشى بي الي صورة (الموناليزا) في رواق من أروقة اللوفر قتلني.. وقتل (الموناليزا) نفسها.. بشرحه الذي يردده كالببغاء.

ماذا لو تركني هذا الرجل أرى (الجوكوند) بعيني أنا.. وألمُّ الكرز بيدي من جوانب فمها.. حبّة حمراء.. وحبّة على موعد مع الحمرة.

لا أدري لماذا كلما قرأت قطعة لشاكر تذكرتُ رقص الباليه دون أي فن آخر.. فغليان حروفه على الورق، والتنوع الذي يمطرك به كقطيع نجوم والغنى والأناقة التي يقدم بهما أفكاره، والزركشات الشعرية التي يضعها في طريقك كالهدايا يقع عليها الأطفال في المدفأة في ليلة عيد الميلاد.. كل هذا يذكرني بلوحات الباليه وبحديث الأرجل وهي تلمس خشب المسرح لمسًا حنونًا يشبه طيران الفراش الليلي، وحديث الرسغ والمفصل وصلاة الأصابع وهي تفتح دربها إلى الله، وحوار الأظافر وهي تمسك نجمة وتفلت نجمة.

إن شاكر لا يرمي حروفه رميًا على خشبة المسرح، كل فكرة لديه تعرف موضعها.. وكل نقطة.. كل فاصلة تعي دورها وتأخذ مكانها المرسوم لها، لا فوضى.. ولا مصادفة في أدب شاكر مصطفى وفي كل أدب جيد، بل لا مصدافة في الحياة إطلاقاً. إن أصغر زهرة تمد رأسها الأبيض على سور حديقتنا تكلف الربيع عزلة تسعة أشهر تحت الأرض.. بين المخططات.. والأقلام.. وقوارير اللون. فيا ليتنا نتذكر – ونحن نقطع عزم الزهر من حاكورة جارنا ونملأ أفواه المواقد بحطب المشمش – الزمن – الذي استغرقته الأرض لتُطْلع الغصن الذي نجعله في مزهرياتنا زينة.. وفي مواقدنا طعامًا.

وبعد، فهذا سفير جمال يخرج من غابات بلادي بمئزر قدّيس وعصا ساحر، «الكلمة الطيبة» لا تسقط من فمه لأنها جزء من فمه، والزهور البرية الغريبة تتمنى لو صارت زادًا في سلّته.

و«الكلمة الجميلة» وهي عندي أطيب من الكلمة الطيبة، لماذا نسيها شاكر؟ وهي تتكمش برئتيه كالنحلة الشرهة بزهرة غريب ممتلئة وتنفرط حرائق من بؤبؤ عينيه وأنجماً من شقّ ريشته.

وما هو الأدب إن لم يكن «الكلمة الجميلة» التي لا تفتح أمامك مغالق صخرة «علي بابا» فقط على حد تعبير شاكر دائمًا تفتح أمامك ألف نافذة على وجه الله..

ذلك أن جمال الكلمة هو جمال الجمالات، والفنون كلها كلمات، الموسيقى كلمة على فم الوتر.. والتصوير كلمة على فم اللون.. والنحت كلمة على فم المرمر، والزنابق على الرُّبا، والنجوم في السماء، والعيون الكبيرة السوداء.. كلمات تنتظر من يقولها.. وما أشقى النجوم والعيون يوم لا تجد من يقول لها أو يقول عنها شيئًا!..

إن امتياز الكلمة يأتي من أنها الأداة الطبيعية للتعبير عن المشاعر الإنسانية، فهي لا تحتال على الوتر كما تفعل الموسيقى، ولا على الحجر كما يفعل النحت، فالأداة والموضوع في الأدب وحدة غير منفصلة.

(الكلمة الجميلة) أخيرًا هي أنا والوجود مجتمعين.. أنا والأرض التي أطلعتني، والإنسانية التي تحتاطني، والجماعة التي أقاسمها حديث النهار وخبز المساء، ووطني الذي يعيش ورقًا أخضر في ظني ونارًا مؤججة في عيوني، فما أظلم الذي يسألني بعد ذلك أن تكون الكلمة في حلقي إنسانية أو «ملتزمة» على حد تعبير الكلمة الدارجة اليوم.

إن الكلمة التي أكتب ليست طفلاً بلا نسب إنها تراث عاطفي اجتماعي إنساني يحمل سعال أبي، ونداء أمي، وشجار صبيان حارتنا، وطقطقة خشب الشوح في مزاريب بيتنا القديم التي لا أبيعها بسمفونيات الدنيا مجتمعة.

الكلمة الطيبة سهلة.. أما (الكلمة الجميلة) فآه ما أصعبها. أن تقول لحبيبتك: عطرك مغرٍ.. كلمة طيبة أما أن تقول لها أن لعطرها فمًا ينادي.. فشيء آخر يتطلب أن تنبش نفسك من جذورها بحثًا عن كلمة صغيرة.. أميرة.. تطفر على الورق فرحة.. كفراشة حرير تحررت من شرنقتها.

وشوشةٌ صغيرة أريد أن أبوح بها قبل أن أذهب.. وهي أن شاكر مصطفى – من زاويتي أنا – أول كاهن بشَّر بنثر فني من طراز لم يعرفه تراب بلادي منذ سنين. فأنا الأدب عندي تعبير غير عادي عن مشاعر عادية، فإذا شاركتني هذه النظرة فإنك سترى في أدب شاكر طيبًا غير عادي.. طيبًا غير الذي تشمه في واجهات المكاتب، وحوانيت الوراقين..

ولقد كنت ولا أزال أعطي هدب عيني لحرف جديد لم يدر ببال أبجدية بعد.. ولم يزحف في جبين إنسان، حرف يتعذب من أجل وجوده على الورق، فإذا أحببتُ شاكر مصطفى فلأنه عرف عذاب الحرف ورائحة الظنون وهي تحترق..

أحبه لأنه فاتح درب، شقّها بمحراث منحوت من أضلعه ودوزن كل حصاة، وكل حشيشة فيها.

أنا أحب شاكر مصطفى، وهذه الأغنية التي كتبتها له ليست مقدمة.. وإنما دعوة إلى حبه..

نزارقباني

لندن – بارنز كومون ١٩٥٤/١١/١٠

****

يا أحلى شاكر،،

رسالتُكَ الزلزال، وصلت الى لندن، فقلبتْ وجودي، وأوراقي، وكتبي، ووجدتُ نفسي مطمورًا تحت أنقاض التاريخ..

أربع صفحات اختصرت الجحيم كله، ولا أعتقد أن (جحيم دانته) يستطيع أن ينافس جحيمك الرعب.. ويكون على مستواه كتابةً، ورصدًا، وتصويرًا.

يا شاكر الكبير الذي لا يستطيع أن يبلع حرفًا واحدًا من حروف الأبجدية.. ولا يستطيع أن يساوم على سنتمتر واحد من سنتمرات الحرية.

نصف كتّابنا يعلكون جلود اللغة يا شاكر.. وأنت تعلك جلدك.. ولحمك.. وجهازك العصبي.

وأنا تلميذك الذي ما زال يبتلع أسياخ النار كالفقراء في الهند.. منذ خمسين عامًا.. دون أن استدعي فرقة الإطفاء.. أو أتململ من حرائقي. أو أقوم بعملية تجميل لجلدي..

الشاعر الذي يقوم بعملية تجميل لجلده.. يتحول الى رقّاص محترف.. أو إلى ممثلة محترفة.. مثل اليزابيث تايلور.. أو صوفيا لورين.. أو كلوديا كادينالي.. أو صباح.. أو بديعة مصابني.

لذلك اخترتُ لندن حتى أكتب.. لا لأرقص.. وقد أصبحتُ على ثقة أن المنفى هو المرفأ الأجمل في حياتي.. وسوف يكون المرفأ الأخير.

بالنسبة للكتابة عني، لا قيمة لكتابٍ يصدر عني لا يحمل توقيع شاكر مصطفى، فأنتَ معلّمي، وصديقي، وإشبيني، وعرّابي.. ولا أحد يعرف شعري أكثر مما تعرفه أنت.. فكيف تهرب من العرس؟

لكن أمنيتي الوحيدة عليك، هي أن تنسى (جحيم دانتيه).. وتجلس معي في باحة دارنا في (مئذنة الشحم) لتصنع لك فائزة خانم فنجان قهوة على ذوقك.. تحت الياسمينة التي كانت تهرهر عليَّ الشِّعْر.. واللؤلؤ، وربما استدعينا الحبيب سعيد الجزائري ليشاركنا الحوار..

اكتب عني يا شاكر، لأنني أريد أن أولد على يديك مرةً ثانية.. اترك ناقات العروبة، وماعِزَها، وراءك.. وعُدْ إلى الشِّعر يا أكبر الشعراء.. وأعظم الأصدقاء.

وسلام عليك، وعلى كل كلمة ستقولها.. وكل وردة ستضعها في عروة ثوبي.. يا أبانا الذي في السماء.. وفي الأرض.. يا شاكر مصطفى.

نزار قباني

لندن ٨ نيسان ١٩٩٧

****

يا أحلى شاكر

وصلتني الآن جوهرة التاج.. فغارت مني الملكة أليزابيث الثانية، وطلبت مني تسليمها الجوهرة الثمنية التي أهداني إياها شاكر مصطفى لتضمها الى أملاك الإمبراطورية.. فرفضت، لأنني أنا أيضًا صاحب إمبراطورية.

لا تزال كلماتك شعرًا، منذ عرفتك في الخمسينيات والستينيات حتى اليوم. أولاً أبكاني العنوان الرائع: (خمسون سنة من شعر الشعر.. والبقية تأتي)، ثم حلّقت معك على ارتفاع ٣٣ ألف قدم (عن سطح العروبة).. فشعرت أنني أطير كريشة في فضائك الشعري.. ولا أستطيع اللحاق بك.

الآن أفهم سر مطاردة صديقنا الظريف المرحوم سعيد الجزائري.. لك، فقد كان يشم في حروفك رائحة المتنبي، وجرير، وقيس بن الملوح، والشريف الرضي، والعباس بن الأحنف.. وعندما كان يلقي القبض على مقالة منك، كان يقول: حصلت من شاكر مصطفى على قصيدة..

إن نبوءته بشاعريتك لم تخب ولا مرة واحدة.. وها أنذا أترحم اليوم على سعيد.. لأنه أهداك إليَّ اليوم مرةً ثانية.. حتى لا أنسى تقديمك لي في جامعة الكويت، حيث كنت أنت الشاعر.. وأنا (مساعد شاعر).

في ما يتعلق بما جاء في الصفحة السابعة ابتداءً من السطر (١٠) (الشاعر ليس بمجلل).. أنا موافق جدًا على الحذف حتى آخر المقطع (لا مجال للتهاون فيها ولا للمهادنة، ص ٢٨) والسبب أنني لا أريد تشويه المقال – القصيدة بأي كلام عن (السلطان..

وجواريه، وحضيائه.. وولائمه لمصلحة الإطفاء الأميركية بنسبة ١٠٠٪ والسيطرة على حريمه بنسبة ١٠٠٪).

ورغم إيماني بكل ما تقوله.. فإنني أريد أن أحتفظ ببياض الياسمين في مقالك الاستثنائي.

سلمت أصابعك يا شاكر ولك الحب العظيم الذي تعرف.

نزار قباني

لندن ٢٤ نيسان ١٩٩٧

****

رسائل من د. شاكر مصطفى
إلى الشاعر نزار قباني

أخي الغالي نزار..

أعلم أن هذا اليوم هو يوم عيد ميلادك. وأسرع في الكتابة إليك، وإن كنت غير واثق من إرسال الرسالة. لماذا؟ لست أدري ولعلي أكتب لنفسي من خلالك.

أنا مثلك من مواليد الأول من آذار. ويبدو أن هذا الشهر أعطانا مفاتيح الربيع وسكرة الجمال في الشرايين. أنت للإبداع وأنا للتذوق. ومن عجب أن قلبي خانني كما خانك قلبك. خانني مرتين وألزمني غرفة الانعاش أسابيع. وأنا الآن أعيش بنصف قلب بعد أن سد الكولسترول شريانين عنه والثالث في الطريق.

ويبدو أن الله حين صاغنا من طينة واحدة زاد في طينتي من خمرة السياسة اللعينة، وزاد في طينتك من خمرة الحب.. ولكنه أرهق قلبي (وقلبك معًا) بالهم القومي وكتب عليهما: يستهلك إلى حين!

ولقد احتِلْتُ على قلبي بألف حيلة وأنا أحس اضطرابه وخفقه وعدم انتظام دقاته، فكنت أعمل كمن سيموت غدًا.. في المستشفى كنت أختبئ من الطبيب في الشرفة لأكتب.. وحين خرجت تحديت هذا «الخافق المعذب» بستة أشهر من العمل المتصل، ألفت خلالها خير أعمالي: كتابًا في (١٢٠٠) صفحة!.

وفي المستشفى، في الولايات المتحدة، فزعت من فتح قلبي، خضعت لعشرة من محاضر التحقيق ولألف سؤال. وعلى الرغم من أني أعرف أنه ليس يحوي شيئًا، أخاف فضيحته فقد خشيت مبضع الجراح والمقص، لي تجربة قديمة مع صديق تعرفه حكم عليه

الجراح بالموت.. ومات تمامًا كما قال الجراح، وعدت على الطائرة قانعًا بكمية من الحبوب ما أزال أعيش عليها. وكفاني الله مبضع كليفلاند والجزارين فيه!

هل تعرف بعد هذا لماذا أكتب لك في هذا اليوم بالذات؟ إن لك عندي يدًا منذ سنوات وأنت لا تعرفها. وقد كنت أنتظر أن ألتقي بك وتلتقي بي لأحدثك بها ولكن.. آه لغربتنا القهرية، لقد تركت القصة خبيئة بين جوانحي سنوات!.

يوم كانت إصابتي الثانية (فقد سقطت مرتين) وامتلأت غرفة الانعاش بالأنابيب في عروقي وبـ (السيروم) يتسرب قطرة قطرة في دمي، والأطباء يذهبون ويرجعون والممرضات بالثياب البيض بين أيديهم كأنهم السعاة الخرس ما بين الموت والحياة، طلبت من قرينتي أن تأتيني ببعض دواوينك، وألحفت، الطبيبَ المناوب شُدِهَ لطلبي! أريد أن أغيب في سحابة حب! ونزار يسقي الغياهب العطشى.

وهكذا كنت رفيقي، الساهر معي، في أيام المستشفى الطويلة ولياليه الأطول، في إصابتي السابقة رافقني ديوان المتنبي وحده، أما في الثانية فاستسلمت لحذر الحب تساقيني به كلماتك، ومن يدري؟ لعلي بهذا الحب نجوت لا بالورود التي ملأت غرفتي ولا بوفود الأحباب المشفقين!.

وقصتي مع قلبي، غير قصتك مع قلبك أنت!، قلبي أعرفه، إنه أصغر من قلب عصفور الدوري، ما اتسع مرة لأكثر من حبيبة واحدة، أما قلبك فيبدو للناس أنه مختلف، وإن كنت أعرف أن اللواتي يمررن به يبقين عند بابه ساعة ويمضين عابرات، فلا غرف للسكن فيه ولا للإيجار الطويل الأجل.. (كالإيجار في بلادنا)، ومع ذلك فإن قلب الشاعر يظل برغمه مفتوح الأنوار ومثيرًا لفضول الزوار، إنه إبحار في الفضيحة بشراع أحمر يلوح في الأفق تغزوه الظنون ولا تأثم، تطارده الأقاويل ولا تهدأ، تحرقه بالنار وتتلذذ بشوائه ولا ترحم. أنت عشتها هذه المحرقة مرغمًا، وتأكد أني لا أشتهي أبدًا أن أعرفها ولا أغبطك عليها..

هل أرسل هذا الكتاب؟ سؤال يركض في جبهتي. أطويه وأنشره ثم أطوي وأنشر ولعله ولعله..

مع الحب العميق..

لم أكتب لك شيئًا عن أخبارنا وحديث الأهل فكل شيء على ما يرام يا سيدتي المركيزة! ونحن كما عهدت؛ هدوء واستقرار بحمد الله، ويضيق الوقت عن الحديث الطويل كما لا معنى للحديث بالأسلوب الإذاعي المقتضب، عاتكة وفاطمة بخير، وسلموا لنا على أحمد وحسين.. فإلى كتاب قادم..

شاكر

٢١ آذار ١٩٩٤

****

أخي الأغلى نزار..

ما أشك في أنك علمت بخبر تكريمك في كانون الأول المقبل وخبر الكتاب الذي تعده لهذا التكريم السيدة النبيلة التي تقدر وأقدر الدكتورة سعاد الصباح. ولكن اللجنة تورطت وكلفتني (مع مجموعة أخرى غيري) ليكون لي كلمة في الكتاب. وبعد إن قبلت بحماسة أدركت أني تورطت، وبقدر فرحي لتكريمك واعتزازي باختياري لكلمة عنك، بقدر ما أراني الآن مرتبكًا، رهبة وإشفاقًا، وكيف أكتب عنك وأنت في أعماقي همسة الزمرد السحري وعلى فمي صلاة؟ كيف أكتب، قل لي، وأنت عندي أنا (مع الفارق الكبير) وعن أي شيء فيك أكتب؟ وأنت نصف قرن من الشعر المرقص والعطاء الدائم؟ أعني قاموسك الذي خلقتَ للشعر؟ عن الصور التي تكسَّح دونها الشعر، عن رسالتك وأنت صاحب رسالة؟ عن الوتر الذي تعزف به على كل قلب؟..

ولقد فكرت أن أعتذر وأوثر الصمت. ولكن هل يعذرني قلمي؟ وهل تعذرني أنت؟ وهل يعذرني الناس وأنت مجدنا الشعري الباقي؟.

عندي منك بضع وثلاثون ديوانًا.. وأضعافها من الأحاديث المقتطفة من هنا وهناك، فكيف أعلم آفاقك؟ وأفتح أبوابك السحرية ثم أغلقها، ثم أفتح وأغلق، للمرة العشرين أفعل، ويحيرني ما آخذ وما أدع من هذا الغيض الزمردي الذي أودعته جنيات الشعر بين يديك، خصبك يلجمني، لو كان ديوان أو خمسة أو عشرة لغامرت. ولكن من ذا الذي يغامر في فلك فيه ألف شمس وألف ثقب أسود مبتلع؟ ومن ذا الذي يجرؤ على جمع الينابيع بصدفة أو يختصر دنيا السمفونيات في جملة موسيقية واحدة؟ كل حرف يحاول أن يكون بطول قامتك محكوم عليه بالفشل، فلماذا أحرجوني؟ ومعك أنت دون خلق الله؟ وكيف أجمع كل سوسن الدنيا وكل كبريائها الثائر وكل عنفوان النساء في مدى شبر

من الكلام؟ من لي بالشراع الذي يبحر حيث تضل الأشرعة؟ وأي جنيّة أدعو لتسير معي وسحري الياسمين الدمشقي في عينيك ومسحة الموال النشوان بين النجم وبابك؟ وكيف أصف هذا المركّب الشفاف من الموسيقى الخفية والسحر الذي يزوغ ولا يزوغ والذي يسمونه بشعر نزار والذي يسافر بالروح إلى النجوم والى المجهول الهارب من الأكوان؟.

مسيرتك نصف قرن كانت عاصفة قلبت التقاليد الشعرية وزرعت بدلاً منها في كل صدر زهرة نار. بلى! زهرة النار هذا أنت، عطر ولهب. عصفور يستحي حتى من نفسه، ونسر بمخالب تمزق قلب الأرض، وما كنت العطر إلا لتكون اللهب أيضًا.

عباد الزهر يرون فيك العطر الفردوسي، وعباد النار يحبون إحراق أسياخها لجلودهم، لقد قلت مرة: ما أسهل كتابة الشعر وما أصعب الكلام عنه، لِمَ لم تقل ما أصعب كتابة الشعر وأصعب منه الكلام عنه؟ قل لي كيف أجتاز هذا الامتحان؟

لك الود الذي لا ينقضي..

شاكر

٢١ /٣/١٩٩٧

****

رسالة من الموسيقي: صلحي حامد الوادي
مدير المعهد العربي للموسيقى - سورية

الأخ الكبير الدكتور شاكر مصطفى

كان من الواجب أن أكتب لك منذ فترة طويلة كي أعبر لك عن شكري وامتناني للرعاية التي أحطتني بها حين قدومي إلى الكويت قبل سنوات مضت. وكم ذكرتك حين عودتي بين الأهل والأصدقاء.

أيها الأخ العزيز...

أنت تعلم أنني قضيت حياتي في البلدان العربية أعمل في مجال هو من أصعب المجالات التي يمكن أن يتعامل فيها العربي وهو فن الموسيقى. من خلال تجربتي كمدير للمعهد في دمشق وكموسيقي كنت ولا زلت، على الرغم من الصعوبات التي تعترض كافة العرب، اتنقل في وطننا الممزق، آلمني دائمًا فقر المكتبات العربية بالدراسات الجادة والعصرية في حقل الموسيقى الإنسانية العالمية، خاصة تلك المؤلفات التي تعرض وتبحث وتحلل أعمال كبار الموسيقيين، ولقد لفت انتباهي مؤخرًا كتاب مقتبس عن موسوعة «Milton cross» الإنكليزية يتناول حياة وأعمال كبار الموسيقيين، ترجمته سيدة دمشقية تحمل شهادة عليا في التاريخ، جعلت من الموسيقى وتاريخ الموسيقى وترجمة ما كتب عنها باللغتين الانكليزية والفرنسية اهتمامها الرئيسي ولقد عرضت عليَّ نصَّها المترجم، وقمت بدوري بعرضه على وزارة الثقافة في دمشق، مشيرًا إلى افتقار المكتبات العربية والمعاهد الموسيقية في كافة الدول العربية التي زرتها لكتب كهذا. ولقد وافقت وزارة الثقافة في دمشق على نشره، ولكن وبسبب الظروف الاقتصادية الراهنة وفقدان ورق

الطباعة في مطابع الوزارة أرجئ طبع هذا الكتاب إلى حين تتوافر الظروف المادية الأجود للاعتناء بهذه القضايا الثقافية.

هذا ما دعاني للكتابة لك، كي أطرح عليك فكرة نشر هذا الكتاب في الكويت، فإن رأيت أن فكرة كهذه قد تكون مفيدة للمكتبات العربية، أرجو إعلامي وسأرسل لك النّص المشار إليه. هذا كما ويمكن أيضًا إرسال بعض المواضيع والمقالات الموسيقية التي يمكن نشرها في مجلات تعنى بشؤون الثقافة من ترجمة السيدة ذاتها وهي أبية إبراهيم الحمزاوي.

أرجو أن تصلك رسالتي وأنت بصحة وعافية، وأنقل لك من دمشق حب من يعرفك بها ومن يذكرك بحب وتقدير واحترام.

أخوك

صلحي حامد الوادي

دمشق/ ١٩٨٧/١٢/٣

****

أستاذي الكبير العلاَّمة الدكتور شاكر مصطفى
(رسالة من د. عمر موسى باشا)(*)

أطيب التحية، أبعثها إليك من دمشقك الفيحاء، من المهاجرين، من حيّه العتيق، ومن (شطّة) القابعة على سفحه، حيثما أقيم منذ أوائل الستين، وحيثما كنت تقيم، وما أحلى قول الشاب الظريف يخاطب أباه في مطارحة وجدانية مطلعها:

أبـــدأ بِـــذكْـــركَ تـنـقـضـي أوقـــاتـــي
مـــا بـــين سُـــمَّـــاري وفـــي خَـلَـواتـــي

ومنها

يـا قَـطْـرُ عُـمَّ دمـشـقَ واخـصُـصْ مـنـزلاً
فـــي قـــاسِـيـــونَ وحـــلِّـــهِ بـنـبـاتِ
وتَـــرنَّمـــي يـــا وُرْقُ فـيـه ويـاصَـبَـا
مُـــرِّي عـلـيـه بـأطـيـبِ الـنَّـفَـحَـات

كذلك كان قاسيون، وكذلك هو كائن، وكذلك سيكون.... ذكرت ذلك كله، وذكرت أستاذي منذ أكثر من سبعة وثلاثين عامًا، يوم كنت تملأ فكرنا بتلك الأملية التاريخية عن حضارة هذا البلد منذ مئات السنين عن تاريخ العرب والإسلام.

وإن أنسَ فلن أنسى البحث الذي كلَّفني به عن (عبدالله بن سبأ)، وعلَّقت عليه آنذاك (هذا البحث يصلح ليكون للدراسات العليا)، أظن أنك نسيت ذلك، ولكنني لن أنسى ذلك،

(*) أكاديمي سوري.

لأن هذا التعليق خلقني خلقًا علميًا جديدًا، وما أنا فيه الآن من مكانة علمية يعود الفضل فيها إلى ذلك التعليق العلمي و(ما أقرب اليوم من الأمس) كما يقول الشاعر شرف الدين الأنصاري.

كنت أتابع منذ القديم أخباركم العلمية ومقالاتكم التي تملأ المجلات العربية، واسترعى انتباهي كونك أحد أعضاء لجنة التحرير في سلسلة (عالم المعرفة) فتشجَّعتُ لألتقي بك في في عالم معرفتك التي قبست منها.

لقد بلغت الستين من العمر، وأنجزت ما يقرب من عشرين كتابًا مطبوعًا منذ سنة ١٩٤٨ حين أصدرت أول ديوان شعري بعنوان «عذارى» وربما كان أول ديوان مطبوع في بلاد الشام في أوائل الأربعينيات، وقد سبقت دواوين الحداثة، لأني تمردت فيه على وحدة القافية، وحافظت على الوزن العربي، وهو يطبع الآن مرة ثانية في دمشق، وسأبعث لك به، وفي اعتقادي أنني أهديتك الطبعة الأولى آنذاك.

وبعد..

أيها الصديق العزيز، والأستاذ الفاضل، فإنني سعيد كل السعادة أن أكتب إليك ذاكرًا عهدًا مضى جمعتنا فيه قرابة الآداب كما يقول أبوتمام.

إن رؤيتي اسمك في (عالم المعرفة) شجعني على إرسال كتاب جديد بعنوان (نظرات جديدة في غفران أبي العلاء)، وهو آخر ما صنعته، وهذا الكتاب الذي آثرت أن يكون بين أيديكم لينشر بتزكيتكم ليكون في ذلك عَوْدًا على بدأ، بدأت البحث بتشجيعكم، وعدت بعد زمن طويل لأبدأ معكم من جديد في (عالم المعرفة)، ويقع في أكثر من (١٦٠) صفحة.

والكتاب الذي سأبعث به لم ينشر من قبل، وفيه إثبات علمي أن أبا العلاء استمد مكوناته الأساسية من القرآن والتفاسير والقصص الديني والإسراء والمعراج، وهذا

البحث لم أسبق إليه على الرغم من أنني أعمل فيه منذ زمن طويل جدًا، ومن اليُمن أن انتهيت من كتابته في يوم الإسراء والمعراج من هذا العام.

وختامًا، تحياتي للزميل الكريم الدكتور إحسان النص، راجيًا لكم كل تقدم في آفاق الفكر لرفد عالم المعرفة الإنسانية بالعطاء الخيّر.

وختًاما لك أخلص تحياتي القلبية، وأنا بانتظار جوابكم إذا آنستم في هذا الكتاب، ما يدفعكم إلى الجواب لأعرف موافقتكم أولاً، وهل تفضلون إرساله إليكم أو إرساله إلى الأمين العام.

د. عمر موسى باشا

٧ من رجب ١٤٠٧هـ

****

أخي الدكتور شاكر حفظه الله

قبلاتي وأشواقي،،،

وكما كنت أتوقع فقد كانت مقدمة ديوان (يا ليل) لحمة الكتاب وسداه، وإعجاب الناس بها أكثر من إعجابهم بالشعر، لك شكري ما حييت.

أخي الغالي..

بعون الله قررت إصدار عدد خاص عن دمشق بحدود ٨٠٠ صفحة من مجلة الثقافة الشهرية، وطبيعي جدًا أن يكون الكاتب الأول في هذا العدد الدكتور شاكر مصطفى ابن دمشق وحبيب دمشق. وأترك لك حرية اختيار الموضوع وحرية عدد صفحاته، راجيًا أن تصلني موافقتك وعنوان الموضوع بعد وصول رسالتي هذه إليك.

قبلاتي لك واحترامي للسيدة العائلة الفاضلة.

أخوك

مدحة عكاش

رئيس تحرير مجلة الثقافة

دمشق ٢٥/٩/١٩٨٠م

****

رسالة من محمد فؤاد يوسف(*)

عزيزي شاكر بك...

أفتتح يومي المبارك بالكتابة إليك، فليس أحب للنفس من ذكرى الأصدقاء أو تبادل الحب والأخوة بين الزملاء، ولقد مضت مدة لم أكتب لك فيها ولست بالناسي للصداقة أو بالتجاهل لصفوة الإخوان ولكنه الكسل إن شئت، أو حوادث الوطن إن تحريت الدقة وأردت الحقيقة السافرة.

مصر بلد الهدوء والوداعة صارت جمرة ملتهبة وهي على وشك الانفجار، حدثتني أنت في الصيف الماضي عن جهاد سوريا الشقيقة في سبيل الحرية والاستقلال، فهل تسمع مني بضع دقائق عن وطن عزيز عليكم يقضّ مضجع سوريا وأبناء سوريا أن تمتد إليه يد الطغيان، أو يبقى أثر للاحتلال بعد أن هب الشرق دفعة واحدة يريد إزاحة ستار الظلم الكثيف ويتلمس صبح الحرية ونور التحرر!!

لقد أصبح الموقف واضحًا كل الوضوح، والمفاوضات ستبدأ، والشعب كله رجالاً ونساءً بل وأطفالاً ينادون في منتصف الليل بالجلاء، والسودان وزعماء الشعب خاضعة للشباب الذي أخضع الجميع لكلمة الوطن، وانتخبت هيئة المفاوضات، وإنا لهف المفاوضات لمنتظرون بعيون واسعة وقلوب قلقة، فإن أجيبت مطالبنا.. الرحيل للإنجليز، وإن لم تجب المطالب فسيعرف الجميع من هم أبناء مصر، وسيرى (...) من مصر مثل الدفاع عن الوطن، وافتدائه بكل مرتخص وغالٍ!! إن الإنجليز بدأوا يفهمون الموقف على حقيقته وخاصة بعد الحوادث الأخيرة، حوادث يكفي أن أقول لك إن مصريين عزّل من السلاح قد هاجموا الإنجليز في مساكنهم هاجموا الجند المسلحين، فلم يخفت صوت

(*) مدرس من مصر من أصدقاء د. شاكر مصطفى.

الرصاص، ولا عادية الطغيان، صرخة الوطنية وعدالة المطالب، ولن يخيب الله أمة لا تسعى إلى غير الحق!!

أخي...

أين تلك الأيام الخالدة وأين صباحكم الأغر معنا وأين اللقاء وأين السهر في جو القاهرة؟!! أين الظرف الذي كان يفيض به محياكم؟ وأين التسلية والضحك حتى في قاعة المحاضرات؟ أين ذهب كل هذا؟ يؤسفني أن يكون قد أصبح من طيات الذكرى وصدى الأيام!!

أغلب إخواننا الذين سألتم عنهم معنا في معهد التربية؛ فمعنا الهادي والزيادي وكمال عزيز ولبيب وغيرهم إلا محمد ابراهيم فهو مدرس الآن في المنصورة وعنوانه المدرسة الملكية بالمنصورة، فقط، وقد حدثني عن روتين حياتك وقلت إن تصحيح الكراسات وتقدير الدرجات يضايقك، ولتعلم أني زميلك في البلوى وشريكك في كل هذا، فنحن نتموّن في المدارس وما يجري على المدرسين يجري علينا مع فارق كبير وهو أن المدرس يزوره المفتش مرة أو مرتين في العام، ونحن مهددون بالمفتشين في كل يوم!!

إنها الحياة فلنتقبلها بصدر رحب ولنصبر على مكاره الأيام وليحاول الإنسان أن يرى وسط الليل البهيم انبلاج الصبح ونسمة الفجر!!

أخي...

أبعث إليك بالشوق الذي لن يطفئوه سوى برد اللقاء، وبالسلام الذي يقدره القلب للقلب وبالتحية لسوريا ولأبناء سوريا الكرام الأماجد، بل إلى تراب سوريا التي نتعشم أن نزورها في يوم من الأيام. اذكرني يا شاكر فلسنا لك إلا محبين نتعطر بذكراكم وبشذا أُخوَّتكم.

محمد فؤاد يوسف

****

رسالة من: د. إحسان صدقي العمد

أستاذي وأخي الكريم... الدكتور شاكر مصطفى حفظه الله

كان لتكرمك بزيارتي في المستشفى أوقع الأثر في نفسي وأبقاه، وأثر في أكثر شعرك المنثور، وبيانك المسحور، الذي ألهمني هذه الأبيات، شكرًا لبعض فضل:

شاكرٌ مالكُ البيانِ، ومَن شَكْ
كَ فهذا الأهداءُ بعضُ بيانكْ

أنت قلبٌ دقاتُهُ الحبُّ والبَذْ
لُ وإني مُفاخرٌ بعطائكْ

أنتَ زوَّدتَنا مِنَ العِلْمِ نَبعًا
ومِن الفضلِ جملةً من خصالكْ

فإذا الدهرُ قدْ أتى بوفاءٍ
عزَّ فيه، وكلُّهُ من وفائكْ

باركَ اللهُ فيكَ أستاذَنا
هل معدنٌ للخيراتِ إلاّ هنالكْ

تلميذك المخلص

د. إحسان صدقي العمد

قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الكويت

١٩٨٧/٢/١٤

****

شاكر مصطفى

في وسائل الإعلام

تلويحة وداع لقنديلين دمشقيين(*)

د. عبد السلام العجيلي

عندما بلغت «اللاتيرنا»(1) حيث أقيم مجلس العزاء، لفت نظري جمع من الناس كان أفراده يتدافعون حول جسد طريح أمام ذلك الباب. تخللت الجمع لأرى ذلك الرجل، فرأيته. وجهه كان شاحبًا وأطرافه ساكنة لا حراك بها، ونفسه كان منقطعًا أو كالمنقطع، وحين أثبت النظر بذلك الوجه أحسست كأن قبضة من الفولاذ تمسك بخناقي: كن وجه الدكتور شاكر.. شاكر مصطفى! وهتف في أعماقي صوت مرتاع يقول: يا إلهي.. نجاة وشاكر في أن واحد؟.

ذلك أن مجلس العزاء الذي كنت قصدته بعد غروب شمس ذلك اليوم، في دمشق، كان مقامًا لمأتم نجاة قصاب حسن، المحامي الأديب الفنان، الكاتب الساخر والمتحدث البارع، صديقي وصديق شاكر مصطفى. كنت قد جئت إلى دمشق في اليوم الفائت ممنيًا نفسي بأن أزور في الصباح نجاة وأعوده في سرير مرضه، فإذا في الصباح يفاجئوني بورقة نعيه ملصقة على جدار أراه أمامي. شيعت جثمانه مع المشيعين في آخر النهار، وجئت لأحضر مجلس عزائه في المساء. ولكن هذا شاكر، صديق نجاة وصديقي، ولا بد أنه كان في طريقه إلى العزاء مثلي، ملقى على الأرض بلا حراك أمامي..

كل الذين تجمعوا حول الجسد الطريح ظنوا أن صاحبه صريع نوبة قلب مفاجئة، إذا لم تكن قضت عليه فهي في سبيلها إلى ذلك. وأنا الطبيب، حين أمسكت بيده وجسست نبضه شعرت بالاطمئنان عليه. لم تكن تلك نوبة قلبية ولكنها حالة إغماء قدّرت أنها ستزول سريعًا. قلت هذا لمن كان حوله، وعدت إليه بعد دقائق التعزية القليلة فوجدته قد أُجلس

(*) قصاصة من صحيفة لم يسجل مؤرشف المادة اسمها، وجدناها في مكتبة د. شاكر مصطفى.

(1) اللاتيرنا: مقهى القناديل الذي يتوسط دمشق، وقد تحول منذ الخمسينيات من القرن الماضي إلى مقر شبه رسمي للحركة الأدبية في العاصمة السورية وكان الراحلان من رواده.

على كرسي واطئ بعد صحوته، في كامل وعيه ومتمالكًا لنفسه. حمدت الله، عندها، على أنه رحمنا فلم يفجعنا بشاكر ثاني يوم من الفجيعة بنجاة، وقلت له، لشاكر: كيف تفعل بنا وبنفسك هذا؟ ألا تدري بأننا مدعوّان معًا على الطعام ظهر الغد عند الأستاذ عصام؟ فارتسمت على شفتيه ابتسامة واهنة، وهو يجيبني بلهجة مزاح مثل لهجتي، قائلاً: بلى أدري، ومعنا أبو أيمن.. لا يكن لك فكر، سأكون معكم غدًا في الموعد.

وحقّاً كان الدكتور شاكر مصطفى في الموعد معنا في النهار التالي. لقد استعاد هذا الصديق الغالي عافيته بعد الغيبوبة، على هشاشة تلك العافية في السنين الأخيرة، وشاركنا الطعام ذلك اليوم. على مائدة الطعام تحدثنا كثيرًا وضحكنا كثيرًا ونستعيد الذكريات ونتلو الأشعار ونعلق على الأخبار. وتركت دمشق بعد ثلاثة أيام وأنا مغتبط بأن القدر لم يضاعف حزننا بفقدنا لشاكر في ذلك اليوم، أعني بعد يوم واحد من فقد نجاة. إلا أن اغتباطي، ويا للأسف والأسى الشديدين، لم يطل أمده. فلم تنقض على مغادرتي دمشق عشر ليالٍ حتى هتف إليَّ صديقنا الأستاذ عصام نفسه ليقول: خبر سيئ لا بد أن أعلمك به.. كنّا أربعة ذلك اليوم، واليوم فقدنا واحدًا. صحت: إنه شاكر، فلا حول ولا قوة إلا بالله!

لـعَـمـرُكَ لا أدري وإنـي لأوجِـلُ
عـلـى أيّـنـا تـعـدو المـنـيَّـة أوَّلُ

أعود إلى ماضينا، أنا وشاكر مصطفى ونجاة قصاب حسن، فأجد أن بداياته ترجع إلى أكثر من خمسين عامًا مضت. إلى أول الأربعينيات من هذا القرن الذي أوشك أن ينصرم. أنا وشاكر يجمعنا ترددنا على مبنى معهد الحقوق في دمشق، وهو اليوم مقر وزارة السياحة السورية، إذ كان طلاب الدراسات العليا المختلفة آنذاك يتناوبون على تلقي دروسهم في قاعاته. كنت أتردد عليه، أنا، كطالب طب، ويتردد عليه شاكر كتلميذ في دار المعلمين العليا. تردد غير متزامن ما كان ليتيح لنا معرفة وثيقة. لم تتوثق المعرفة بيننا إلا في أواخر الأربعينيات، وكان دافعها حب الأدب والإنتاج فيه. ولعل خطاي كانت أسبق من خطى شاكر في هذا الميدان لعدة أسباب، أولها فارق السن، على ضآلته، بيني وبينه. على أنها كانت خطى متقاربة على كل حال. وليس أدل على ذلك من نتيجة استفتاء

اصطنعه صديقنا الراحل سعيد الجزائري في مجلة النقاد الدمشقية، في منتصف عام ١٩٥٢. فقد جاءت نتيجة الاستفتاء، وكان عنوانه «مَن أحبُّ الكتَّاب إليك» تحمل ثلاثة أسماء هي على التتالي: فؤاد الشايب وعبدالسلام العجيلي وشاكر مصطفى، أثارت نتيجة الاستفتاء في أيامها اهتمام الأوساط الأدبية السورية على ضيق رقعة تلك الأوساط في تلك الأيام وكرستنا عند كثيرين على رأس طليعة الجيل الجديد من أدباء بلدنا في ذلك الزمن.

في تلك الطليعة كانت القصة القصيرة هي التي تجمع بيني وبين فؤاد الشايب في انتاجنا لها. أما شاكر مصطفى فإن لغتة الشاعرية وأسلوبة الآخاذ في التعبير ومخرونة الثقافي الكبير هي التي كانت تشد إليه المستمعين والقراء في ما يلقيه من أحاديث وينشره من مقالات. مقالات جمع بواكيرها في ثلاثة كتب صغيرة صدرت عام ١٩٥٢ عن دار الرواد بدمشق بعناوين: «بيني وبينك» و«حضارة الطين» و«في ركاب الشيطان». وإذا كان شاكر لم يكتب القصة مثل فؤاد ومثلي، فإنه كان المؤرخ القدير لهذا الفن من فنون الأدب. ولا تزال محاضرته التي ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية العليا في القاهرة عن القصة السورية حتى الحرب العالمية الثانية، لا تزال محاضراته تلك في كتابها الصادر عام ١٩٥٨ المرجع الأهم والأكمل في تاريخ قصتنا.

ومن مؤرخ للقصة انتقل شاكر مصطفى إلى أن يكون مؤرخ الثقافة والأدب والسياسة ومعلمًا لتاريخ الحضارة العربية في مختلف جامعات الوطن العربي. وإذا كان الكثيرون من تلامذته وقرائه قد رأوا فيه عالم التاريخ قبل كل شيء، فإن هذه الصفة المهنية للأستاذ الدكتور شاكر مصطفى لم تقو على أن تطغى على مكونات الأدب الرفيع في التفكير والتعبير. ظل أديبًا ساحر الأسلوب شاعري الكلمة، في تاريخه وكتاباته النقدية، وفي مناقشاته ومساجلاته. بل إنه ظل أديبًا في ممارسات حياته الأخرى التي كانت تبعده قليلاً أو كثيرًا عن الأدب، أعني في تدريسه الجامعي ومناصبة الدبلوماسية ومهامه السياسية.

هذا عن شاكر مصطفى. إنه قليل من كثير لا يمكن الإحاطة به في مقال. أما ما يقال عن الراحل العزيز الآخر نجاة قصاب حسن، فهو قريب مما قلته عن صديقه، قرب يومي

رحيلهما عنّا، وأقرب. وقد قضت ظروف حياتيهما، وحياتي أنا معهما، أن نتلازم فكريّاً وإن تباعدت مساراتنا في العيش والعمل والمقام. كان نجاة وشاكر رفيقين منذ الصبا. أما أنا فقد كنت طارئًا عليهما، لم تشتد روابطي بهما إلا بعد تخرجي في الجامعة. وكان الأدب رابطتنا الأولى والحميمة في مختلف المناسبات، وإذا كان استفتاء النقاد الذي ذكرته آنفًا قد خلا من اسم نجاة قصاب حسن، فإن نجاة نفسه لم يغب عنه بنتاجه. ولذلك حكاية طريفة أرويها في ما يلي.

بعد أن أعلنت نتيجة ذلك الاستفتاء المزعوم في مجلة النقاد، نشرت المجلة في عدد لاحق منها ثلاث مقالات لفؤاد الشايب وعبدالسلام العجيلي وشاكر مصطفى، الفائزين الثلاثة في الاستفتاء، يعلق كل منهم في مقال على تلك النتيجة، والصحيح ليس واحد منا، نحن الثلاثة كتب كلمة مما نشرته المجلة بتواقيعنا. كان رئيس تحريرها الأستاذ سعيد الجزائري، قد طالب كل منا بكتابة مقال في الموضوع، إلا أننا تهاونا ولم نكتب شيئًا. وكان أن عهد أخونا سعيد إلى نجاة قصاب حسن بأن يصوغ على ألسنتنا وبأسلوب كل منا، مقالاً تنسبه المجلة إلينا. وهكذا كان، وكان ما كتبه نجاة من الأحكام في تقليد أساليبنا وحكاية أفكارنا بحيث تقبله القراء وصدّقوه، وبحيث كدنا نحن الملفق علينا ذلك الكلام نصدقه وحين أتضح الأمر، أو حين افتضح، كانت ضجة شغلت الأدباء والمتأدبين وملأتهم كما ملأتنا بالإعجاب والضحك زمنًا غير قصير.

هذه الحكاية تعطينا صورة لطبيعة علاقة نجاة قصاب حسن بأصدقائه الأدباء، وبالأدب بصورة عامة، بل وبألوان الفنون الأخرى التي كان يبدع فيها هذا الإنسان المتعدد المواهب الفائر النشاط صورة فيها، إلى جانب العمل الفني المتكامل، روح السخرية الضاحكة ولا مبالاة الواثق من نفسه، إنه يرسم الكاريكاتور، ويؤلف الموسيقى ويعزفها، وينظم الشعر ويسجل الذكريات، فوق ما ينشره من أبحاث ودراسات حقوقية وقانونية. ومع كل هذا فإنه لم يشأ، ولا أقول إنه لم يستطع، أن يعتبر أديبًا أو موسيقيّاً أو رسامًا أو شاعرًا، كان يمارس المحاماة في مثابرة وجد، لأن المحاماة كانت عمله الذي يعيش منه.

أما الفنون بألوانها المختلفة، والأدب أحدها، فكان يكثر من تقليد الآخرين فيها. كان يقلدنا نحن مداعبًا، ويقلد كبار الشعراء في قصائد يزوِّرها عليهم، ويقلد أصحابه

الرحابنة في ما ينظمون من زجل ويؤلفون من أوبريتات موسيقية. وكأنه بكل ما يفعل يريد – إلى جانب البرهنة على قدراته المتنوعة – أن يسخر من نفسه مثلما يسخر منّا. وإنما حاولت أن أنفذ إلى قلوبهم وأكتب بأقلامهم، أي بروحهم.. لقد كنت أتجنب دائمًا التوقيع على ما أكتب، يشهد على ذلك قراء المجلات والصحف الذين لم يروا اسمي إلا نادرًا في آخر مقال.

هذا الذي قلته، على أية حال إن النتاج الأدبي والفني لنجاة قصاب حسن كان كله منصبًا على التقليد وفي السخرية. لقد كان في إيمانه بالثقافة الحقة وفي سعيه لتزويد مواطنيه بها، وفي عمله لتعزيز القيم الإنسانية الرفيعة في بيئته وعند أبناء أمته، أصيلاً كل الأصالة وجادًا كل الجد. تشهد بذلك كتبه الأدبية المطبوعة ومؤلفاته في القوانين والتشريعات. ويتوج كل ما ذكرته عندنا نحن أصدقاءه، وعند قراء كتاباته وعند متابعيه في المنتديات وفي الإذاعات المسموعة والمرئية، يتوجه ما اشتهر به من عِشرة محببة وخلق كريم وعلم واسع.

نجاة قصاب حسن وشاكر مصطفى... صديقان رحلا متقاربين في مغادرة دنيانا مثل تقاربهما في العيش فيها. رحلا معًا، إلا أنهما لم يبعدا عنا البعد الكبير لا في الذاكرة والتصوير ولا في الزمان والمكان. ألم يقل الشاعر القديم:

ومــا نــحــن إلا مــثــلــهــم غــيــرَ أنــنــا
أقــمــنــا قــلــيــلاً بــعــدهــم وتــقــدَّمــوا

****

د. شاكر مصطفى.. وعملاق فولتير..(*)

د. محمد المهدي

انشغل المؤرخ بالزمان، وانشغل الجغرافي بالمكان، وكانت المشكلة أن يضع المؤرخ الزمان في مكان، أو أن يضع الجغرافي المكان في زمان، من الصعب الفصل. أي قدرة هذه تستطيع أن تفصل الإنسان.. بل قل أي كائن حي في حركته الزمانية عن مكانه.. أو حركته المكانية عن زمانه.

أليست مشكلة العقد التاريخية هي صراع على المكان؟، أليست مشكلة حركة الأرض والأجرام والكون المتسع هي نسبية الزمان؟.

الحيرة الدرامية أزاغت عين الباحث بين ملايين. ملايين الاضابير.. وملايين ملايين الأحجار، واكتفى البعض بالتقاط لحظته الدارسة يتأملها بعين مكروسكوبية، يدقق في تفاصيلها.. يفصل خلاياها.. يكتشف مكيروباتها.. يتابع تداخلاتها.. اكتفى البعض من الباحثين بالتأليف التاريخي، أي أن يؤلف بين ما جاء في مرجع، وما جاء في آخر.. وما جاء.. وما جاء.. الى نهاية ما يسعه جهد البحث وقرار التوقف لتصور الاكتمال.

وتساءل البعض.. هل هذا هو الاكتمال؟

وأجاب إنه اتصال السطور، وتلبس الفقرات، وترابط الفصول.. واكتمال الكتاب.. بل اكتمال الكتب الموسوعية، ولكنه ليس اكتمال الدائرة، القضية تساؤلية، وعليه أليس اصطياد لحظة يقنع فيها المؤرخ بالاكتمال بين القوسين، بل باتساع يفتح القوسين، بل يفتح كل الأقواس، يدخل الى السديم الواسع.. يتأمل الكون بالتليسكوب التاريخي.

وقلة من المؤرخين من انشغل بالتليسكوب التاريخي، وأقل من القلة من ربط بين

(*) عن صحيفة القبس الكويتية، أكتوبر ١٩٨٤ ص ١٣.

نظرة البعد ونظرة القرب، بين متناهي الصغر ومتناهي الكبر، بين الخلايا المتحركة المتصارعة المكونة لحركة الدماء الساخنة، وبين الأجرام السابحة في قدرات إمكانات كل العلم الحديث، ولكنها أيضًا متصارعة بقدرات رؤية عملاق فولتير.

ومن هو عملاق فولتير؟

إنه كائن خيالي تصوره هذا الأديب الفرنسي الذي شارك في عصر التنوير الغربي، لا يكتفي بقراءة أضابير التاريخ، لا يكتفي بقراءة الأحداث بين الأقواس، لقد طالت ساقاه، فوقف في بحيرة البحر الأبيض يلتفت يمينًا فيشهد الغرب، ويلتفت يسارًا فيشهد الشرق، ودارت أحلامه الأوسع بين الأزمنة والأمكنة.

هذه النظرة الدرامية لا تتوافر إلا لحس متفكر، لحس درامي، لحس هارموني، لحس شاعر، لحس مصور ناحت.

لقد عرفت الدكتور شاكر مصطفى حاملاً لهذا الهم، لا أقول الموزع بين الأوزان والأوتار والألوان، ولكن المؤلف بينها تأليفًا آخر غير هذا الذي نراه، توليفًا كتوليف الدخان ليخرج نفثه وتضيع.

المؤلف بينها بمعنى الألفة التي تربط الخلايا التاريخية الأرضية على كرة رخامية زرقاء تغري العملاق المتأمل السابح أن يتحسسها بالأنامل، مغمض العينين، حانيًا كأنه جياكومتي النحات، يشفق عليها حتى من ربتة الحب كشفقه محدثنا العربي على الأنامل الناعمة من خدش الحرير.

تربط الخلايا التاريخية الأرضية بالخلايا الكونية على «ضوء قمر» بيتهوفن في «ليلة» موزار، يطل عليها من مسقط جديد لا هو بالشرقي ولا بالغربي، لا هو بالشمالي ولا بالجنوبي، فمن قال إن للكون شرقًا وغربًا أو شمالاً وجنوبًا؟ ومتى نتخلص من مصطلحات قوسية في الأمل البعيد.. البعيد. كما يحب د.شاكر أن يصوغ عباراته موقعة؟ ومتى نتخلص من مصطلحات غربية اسمتنا في بطاقة الإقامة الشرق الأوسط، وسمّت جيراننا الشرق الأقصى؟.. أوسط بالنسبة لمن؟ وأقصى بالنسبة لمن؟.

الغرب لم ينسل الحضارات السابقة ولكنه جاء في زمانه فوجدها يتيمة، ولا أقول إنه تبنّاها ولكن وضعها في قاع جعبته.. ألم يتحدث «هيجل» عن درجات حضارية هرمية أولمبية تسلطن على قمعها الغرب!!

الدكتور شاكر مصطفى من هذا النوع الذي أقلقه الكون، ولم يقلقه التاريخ موضوع دراسته وتخصصه، أقلقه الكون كأديب وعازف ورسام وشاعر.. وهل ننسى أنه بدأ دراساته بكتاب صدر في الخمسينيات عن تاريخ القصة في سوريا؟

يذكرني د. شاكر مصطفى بالمؤرخ الفرنسي «آلان ديكو»، استكمل بدرامياته التليفزيونية التاريخية رحلة ماجلان التي لم يكملها صاحبها حول الأرض.. شرق «ديكو» وغرب، تسلّق وتدحرج، وبعد أن تعتق استوزروه أخيرًا في فرنسا فحزنت.. وصدق حدسي فقد توقف.

د. شاكر مصطفى كان أوفر حظّاً من جانب، استوزروه ناضجًا، ونفض عنه الأزار والخلعة مبكرًا، وانطلق لذاته مغردًا، وانتظرت دائمًا الجانب الآخر من «ديكو» بعد العتق والعتاقة، أن يستكمل لنا ما هو أوغل وأسبق وأنفع لنا من رحلات ماجلان التجارية المظهر الاستعمارية الجوهر، أن يصوغ لنا رحلات السيرافي واليعقوبي وابن فضلان والمسعودي والبيروني والبغدادي وابن بطوطة.. وغيرهم الكثير.. أن يصوغها في قالب درامي يرفع بها عنا الغمة اليومية المرئية.

د. شاكر نموذج لا تنساه، لأنه ينسيك التاريخ الذي أسموه أنيابًا وأظافر، ويذكرك بالتاريخ الذي أسماه المظلوم واليتيم. صدرت له مؤخرًا عن شركة النور؛ كتب دولة بني العباس، واليتامى في التاريخ، والمظلومون في التاريخ.. يقول في كتابه المظلومون في التاريخ: «فالتاريخ محشر كبير للظالمين وللمظلومين على السواء، وفيه الملايين من هؤلاء وهؤلاء، وشرط وجود الآخرين أن يوجد الأولون، فلا مظلوم بدون ظالم، وذلك الجائع الذي يبحث عن لقمة الخبز في القمامة يدين له بالدين الكبير ذلك الموسر الذي يتقيأ الغنى تقيُّؤًا، وإذا كان من ظلاّم بعدد النجوم فثَمَّ مظلومون عدد الرمل والحصى والتراب، وما يطفو على السطح إلا جزء من عشر معشار من لا تدري أنت ولا أدري أنا به، وإني أرثي

للأكباد التي احترقت من دون أن تجد من يكفكف دمعها، وأبكي لمن داسته عجلة التاريخ كيف يدافع عن نفسه، وإذا كان يأمل أن يأتي يوم يصل فيه إلى الإنصاف فإني أخشى ألا يكون في «التقويم» مثل هذا اليوم، أخشى ألا يأتي.. ألا يأتي أبدًا..».

د. شاكر مصطفى، عافاك الله وأعادك إلينا محلِّقًا بالأوتار والألوان والإيقاعات التاريخية.. ألفة التأليف لا فرقة التوليف.

من جوف العقل، مصدر العاطفة الراسخة، أقدم لك التحية، وإلى لقاء قريب نتحلَّق وتحلِّق، تنسج اللحمة التاريخية في السدّة الجغرافية كما تعودنا.

****

شجرة إبداع خالدة..(*)

جمانه طه

فَمِنْ عجبٍ أن يجمعَ العلمَ كلَّهُ
وغرَّ السَّجايا والعلا رجلٌ فردُ
مروءةُ حُرٍّ أدَّبَتْهُ يدُ النُّهى
فموردُ غاياتِ الكمالِ لهُ وردُ
وحسبُكَ مفقودًا حميدًا مصيرهُ
فإنَّ الكريمَ البرَّ موعدُهُ الخلدُ

إنه الدكتور شاكر مصطفى، ولأنه هو، ماذا أكتب؟ فأنا لم أعرفه شخصيًا منذ زمن بعيد، ولقاءاتي معه لم تتعدى عدد أصابع اليد الواحدة، ومع ذلك أزعم أني أعرفه معرفة وثيقة من خلال كتبه وأبحاثه ومقالاته، التي تصدرت مع اسمه أهم الدوريات الثقافية العربية، لقد رحل شاكر مصطفى عن دنيانا، وبرحيله فقدنا واحدًا من أبرز المؤرخين العرب، وأكثرهم موضوعية في النظرة والتحليل، وشاعرية في اللغة والأسلوب، فقد استطاع أن يكتب التاريخ بلغة رشيقة وحرف أنيق، حتى بتنا نحن القراء لا نعرف إن كان المؤرخ فيه قد خرج من إهاب الأديب، أو أن الأديب فيه قد تماهى في عباءة المؤرخ.

لم يكن شاكر مصطفى مقسمًا بين الوظيفة والإبداع مثل بعض الأدباء، بل كان واحدًا في واحد، فهو في عمله الرسمي مؤرخ وأديب وشاعر، وفي إبداعه كان سفيرًا وأكاديميًا، فالكتابة عنده لم تكن مساحة فنية، إنما مساحة من نفسه الرضية العميقة المتواضعة، لذا عندما نقرؤه نلحظ أن لغته مثل نفسه، صادقة وعميقة رضية مطواعة رائقة، حتى يصح عليها وصف السهل المتنع.

(*) عن صحيفة تشرين السورية – ١٩٩٧/٨/١٩ – العدد ٦٨٨٨.

ومن بعض ما خطّه قلمه الساحر في وصف بعض ذكريات يفاعته، نقرأ: «كنا عصبة من اليافعين الأشـرار، وإن كان لثغ الطفولة لا يزال على شفاهنا، وكانت حياتنا لعبًا كلها، كل شيء كان لعبًا.. وأي لعب؟.. نعلك دروسنا المدرسية في غير شهية كما تعلك الجلود، ونقلد الأساتذة، نسافر في الحي مسافة طويلة لنستمع في عتمة الطريق، الى خشخشة الجهاز الأعجوبة الذي اشتراه أحد الموسرين ويسمونه الراديو..! نعابث الدبابة والسنغالي القابع وراء مدفعها، فنرميه بالحجارة، ثم نحاوره ونختطف الخبز الفرنسي الذي كان يطوح به. نقرأ. ونقرأ أي شيء يقع تحت أيدينا من روايات أرسين لوبين وشرلوك هولمز، إلى المجلات والجرائد القديمة، نثرثر، ثم نثرثر، في السياسة والأحزاب وتنظيم المظاهرات ورمي المفرقعات والمناشير، ولو جاع أحدنا لبكى..!».

كان شاكر مصطفى شجرة إبداع معرفية طعم منها واستظل بها الكثيرون، ونظر إليها الجميع بدهشة، وإعجاب، أما أنا فأقف من هذه الشجرة وأقول بكل فخر واعتزاز، وأنا أيضًا ساعدني الحظ وتفيأت ظلها ونلت من ثمرها، وذلك عندما كتب د.شاكر مصطفى دراسة متميزة عن مجموعتي القصصية (سندباد في رحلة مؤجلة).

لقد غربت شمس الجسد، وغلقت عليه الأبواب، لكن الذات الخفية التي تمثل حقيقة شاكر مصطفى تبقى روحًا حرة طليقة خالدة، بما ترك للإنسانية من علم وفكر وأدب.

ترى هل أدرك جلجامش أن عشبة الخلود ما هي الا الروح التي تنبت على ضفاف الإبداع!؟.

رحمك الله أيها الراحل الكبير.

****

أصدقاء رحلوا..(*)

أحمد إبراهيم الفقيه

كلما شاهدت اسم الدكتور شاكر مصطفى، يتصدر إحدى الصفحات في مجلة أو صحيفة، وعدت نفسي بلحظات فرح وبهجة عميقة، لأنني أكون في هذه الحالة واثقًا من أنني سأقرأ شيئًا جميلاً وممتعًا ودسمًا، نتيجة خصال ومؤهلات كثيرة، جعلت من اسمه «علامة مميزة» تدل على العمق والجودة والأصالة، ولم يحدث أن خيب الدكتور شاكر مصطفى رجائي، ولو لمرة واحدة، من بين مئات المرات التي التقيت فيها بإبداعه الأدبي وعطائه الفكري، وأسلوبه الذي امتزجت فيه لغة العلم ومفرداته، بروح الشعر وجمالياته، فأنتج كل ذلك أسلوبًا نادرًا فريدًا تميز به أستاذنا الجليل دون غيره من الكتّاب.

وعندما قرأت منذ أيام اسمه، في نعي صغير نشرته صحيفة محلية، أذهلني الخبر، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي لا يكون لاسمه وقع مبهج سعيد، وإنما وقع فاجع حزين، لفراق كاتب كان من أحب الكتاب الى نفسي، رغم أنني لم ألتقِ به سوى مرتين قصيرتين، كانت الأولى عام ١٩٧٤ عندما كنت رئيسًا لتحرير مجلة «الثقافة العربية» ودعوته مع مجموعة كتّاب ومفكرين لحضور ندوة بطرابلس أقامتها المجلة عن «التعريب»، ثم التقيته في مطلع العام الماضي، بمدينة مراكش، عندما حضرنا معًا مؤتمر المعتمد بن عباد، بدعوة كريمة من «الشرق الاوسط» وعبّرت له أثناء لقائي الخاطف معه، وبحضور السيدة الفاضلة قرينته، عن عميق إعجابي بما يكتب، وأمنيتي أن أراه ينتظم في نشر كتاباته بمنبر واحد لكي لا يفوتني أن أقرأ كل شيء يكتبه، لأن تعامله مع صحف ومجلات متنوعة، يجعل من الصعب، لكاتب مثلي، يحبه ويتابع إنتاجه، أن يصل إليه.

(*) قصاصة من صحيفة وجدناها في مكتبة د. شاكر مصطفى، لم يكتب عليها اسم الصحيفة.

يحزنني اليوم أنني لن أحظى بتلك المفاجآت الجميلة، عندما أفتح صحيفة أو مجلة، وتطالعني مقالة ممهورة باسمه، ولكن عزائي، أن هناك مقالات وبحوثًا كثيرة لم أستطع قراءتها، لأنها نشرت في منابر محدودة التوزيع، ولابد أن يد العناية ستمتد لإنتاج الراحل الكبير، فتجمع هذا النتاج المبعثر، وتقدمه هدية للجمهور العريض من تلاميذه ومريديه ومحبيه.

أستاذنا الدكتور شاكر مصطفى علم من أعلام كتابة التاريخ، وأستاذ لهذه المادة في جامعة دمشق، ثم في جامعة الكويت، وتولّى في منتصف الستينيات منصب وزير الإعلام في سوريا في حكومة صلاح الدين البيطار، ثم ترك الشام الى الكويت، أستاذًا في الجامعة، وأستاذًا خارج الجامعة، حيث أسهم في تأسيس وتحرير وتطوير عدد من المنابر الثقافية مثل عالم المعرفة، وقدّم للمكتبة العربية مجموعة كتب من بينها موسوعته الشهيرة عن المؤرخين العرب، التي تعد مرجعًا في هذا المجال، كما اهتم بالحضارات، وكتب عنها البحوث والدراسات، التي كان من بينها كتابه عن الحضارة الرومانية الذي أسماه «حضارة الطين»، كما كتب عن الحروب الصليبية كتابة متميزة، وأظهر كيف أن الصليب كان مجرد غطاء للأطماع الاستعمارية، وقد كتب جميع مؤلفاته التاريخية بروح جديدة، ورؤية عربية، وأسلوب أدبي قادر على تطويع الكلمات لتكون وعاء جميلاً وممتعًا للأفكار والمعلومات، وهو لم يكن يكتفي بكتابة التاريخ، وإنما له مساهماته في مجالات الدراسات الأدبية والإنثربولوجية، مثل كتابه عن الأدب في البرازيل وأثر العرب في ثقافة تلك البلاد. وقد كتب كتابه هذا من وحي الأعوام التي قضاها مستشارًا ثقافيًا لسفارة بلاده في البرازيل.

****

د. شاكر مصطفى (١٩٢١ - ١٩٩٧)

«المؤرخ والمفكر والأديب»(*)

الدكتور شاكر مصطفى هو عالم ومؤرخ وكاتب وأديب ولد في دمشق عام ١٩٢١، وبعد حصوله على الليسانس من الجامعة السورية (جامعة دمشق الآن) عمل في التدريس الثانوي، وفي ذلك الوقت المبكر من حياته لفت أنظار القراء بمقالاته التي كان ينشرها في مجلة «النقاد» لما تميز به من أسلوب أدبي رفيع المستوى.

حصل على إجازة في الآداب - قسم التاريخ من مصر ثم حصل على الدكتوراه في التاريخ من سويسرا.

وتناولت أطروحته موضوعين، أحدهما عن الدولة البويهية في دمشق، والآخر عن التاريخ والمؤرخين في العصر السلجوقي.

شغل الدكتور شاكر مصطفى مناصب رفيعة عدة في الحكومة السورية بدأها: مديرًا لتعليم درعا، ثم أمينا عامًا للجامعة السورية، فملحقًا ثقافيًا في مصر.

بعد ذلك شغل منصب القنصل العام لسوريا في كولومبيا والبرازيل، عاد بعدها إلى دمشق ليتولى الأمانة العامة لوزارة الخارجية السورية، وذلك قبل أن يصبح وزيرًا للإعلام.

وما أن ترك الحقيبة الوزارية حتى تفرغ للتدريس في جامعة الكويت منذ عام ١٩٦٦، فعمل مدرسًا للتاريخ بكلية الآداب حتى أصبح عميدًا للكلية نفسها، وانتدبته

(*) صحيفة القبس ٢٠٠٠/١/٥م، العدد ٩٥٣٧، إعداد مركز المعلومات والدراسات في «القبس».

الكويت ليشغل منصب الأمين العام المساعد بجامعة الدول العربية في تونس للجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية، بعدها عين مستشارًا ثقافيًا في الديوان الأميري.

وللدكتور شاكر مصطفى مواهب متعددة فهو مؤرخ متجدد، وكاتب متجدد، له ذاكرة غنية تمده حين يكتب أو يتحدث، فكان يجيد اللغتين الفرنسية والبرتغالية إجادة تامة ومكّنه ذلك من كتابة دراسات أدبية واجتماعية وسياسية مختلفة، كانت نتيجتها أكثر من خمسين كتابًا، لا يكاد يقف عليها المثقف حتى يجد كل ما لذ وطاب وكل ما ينفع العقل والفكر من فنون الثقافة والفلسفة، ففي التاريخ مثلاً له موسوعة باسم «التاريخ العربي والمؤرخون» صدر منها خمسة مجلدات ضخمة، وفيها يجد الباحث ما يفي حاجته من تراجم مختصرة عند الحاجة، لكل من تناول التاريخ العربي بدراسة أو حتى لفتة.

ومن مؤلفاته أيضًا: «مختصر التاريخ»، «حضارة الطين»، «بيني وبينك»، «في ركاب الشيطان»، «الأدب في البرازيل»، وتجدها من الكتب والمؤلفات القيمة مثل «موسوعة العالم الإسلامي ورجالها» وسلسلة كتب «أوراق من التاريخ» التي تقع في أكثر من ثلاثين كتابًا.

ويمكن القول إن الدكتور شاكر مصطفى زاوج بين الأدب والتاريخ، ومزج بينهما، فعندما تقرأ كتب التاريخ تتذوق المادة الأدبية من خلال المادة التاريخية والعكس نتيجة تمتعه باللغة الرشيقة والكلمة المرهفة في أسلوبه في الكتابة.

والدكتور شاكر مصطفى توفي يوم ١٩٩٧/٧/٣١ عن عمر يناهز ٧٦ عامًا، وبرحيله فقدنا عالمًا ومؤرخًا ومفكرًا وأديبًا عالمي الرؤية وموسوعي المعرفة، إنساني المغزى والضمير، وهو من جيل العمالقة المتازين بتعدد المواهب والملكات، وقد كان بهذا كله ثروة قومية وإنسانية وأحد الأفذاذ المعدودين في عالمنا اليوم.

وفي الذكرى الأولى لرحيل د. شاكر مصطفى صدر الكتاب الثالث والثلاثون من سلسلة كتاب العربي التي تصدر فصليًا حملت عنوان «على جناح طائر»، وخصصت لمقالات الدكتور شاكر مصطفى، وفي كلمته المعنونة «شاكر مصطفى ذاكرة لن تغيب من

ثقافتنا» يقول د. محمد الرميحي: لقد امتاز الدكتور شاكر مصطفى بالرؤية الثابتة وببعد النظر، حتى أن من يجالسه يشعر به وكأنه يحمل هموم الثقافة العربية ويجهد نفسه في التفتيش عن مخارج لأزماتها وقد نادى بالتجديد والتغيير مستنكرًا أصوات الذين يهزجون للتراث، وقدسيته وهم يتمسكون بالقشور الميتة منه، وكما أنه كان ينظر إلى كل الأشياء يمكن أن يتم صنعها بأوامر إلا الثقافة، وما من أحد على الأرض يستطيع خلق شاعر أو صنع عالم بالقوة، كذلك كان يستنكر علاقة السلطة بالمثقف، حيث إنها تنظر إليه كما ينظر العابر إلى الشحاذ على الدرب نظرة إشفاق وقرش في اليد، وهو متهم أمامها ما لم يثبت براءته بالنفاق أو بالصمت المطلق، وهي أمامه ليست أكثر من جمجمة فارغة، ويحمِّل المثقفين أيضًا مسؤولية ضياع حريتهم ووصولهم إلى هذا الواقع المهمش.

****

رحيل شاكر مصطفى

صاحب «استراتيجية الثقافة العربية»

المثقفون واحات محدودة في امتداد الصحراء(*)

سلوى الأسطواني وفادية الزعبي

فقدت الساحة الثقافية السورية والعربية أحد أبرز وجوهها العلمية والأدبية المؤرخ والأديب السوري الدكتور شاكر مصطفى، الذي توفي الخميس الماضي عن عمر يناهز السادسة والسبعين، وقد شيع جثمانه يوم الجمعة في موكب كبير ضم عددًا من المسؤولين والمثقفين والكتاب والصحافيين إلى مثواه الاخير في مدافن العائلة في دمشق، ووصفته الأوساط الرسمية في سورية بأنه أحد أعلام الثقافة العربية في هذا القرن.

والدكتور شاكر مصطفى، وهو دمشقي ومن مواليد عام ١٩٢١ قدّم العديد من المؤلفات التاريخية والأدبية، وكان الدكتور شاكر مصطفى قد عمل في التدريس الثانوي في ثانويات دمشق قبل أن يصبح مديرًا للتعليم في محافظة درعا، ثم انتقل إلى التدريس الجامعي وأصبح أمينًا عامًا للجامعة السورية، ثم دخل بعدها السلك الدبلوماسي؛ فكان ملحقًا ثقافيًا في مصر، ثم قنصلاً عامًا لسورية في كولومبيا والبرازيل، وبعدها أصبح أمينًا عامًا لوزارة الخارجية السورية فوزيرًا للإعلام، وبعدما عمل في التدريس الجامعي في الكويت أستاذًا للتاريخ الإسلامي في جامعتها، وتسلّم منصب عميد كلية الآداب، كما شغل منصب أمين عام لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في تونس الذي رشحته الكويت لهذا المنصب،

(*) عن صحيفة الشرق الأوسط ١٩٩٧/٨/٤ - العدد ٦٨٢٤.

ونال الدكتور شاكر مصطفى الدكتوراه في التاريخ من سويسرا، وتناولت أطروحته موضوعين أحدهما عن الدولة البويهية في دمشق، والآخر عن التاريخ والمؤرخين في العصرين السلجوقي والأيوبي.

أصدر الفقيد أكثر من ٥٠ كتابًا زاوج فيها بين الأدب والتاريخ، فقد كان يتمتع بلغة رشيقة سلسة استمدها من بداياته في الكتابة الأدبية، ومن كتاباته الفكرية والأدبية والتاريخية «القصة في سورية» و«بيني وبينكم» و«في ركاب الشيطان» و«الأدب في البرازيل» و«استراتيجية الثقافة العربية» في ستة مجلدات إضافة إلى العديد من الكتب التي تناول فيها موضوعات من التاريخ العربي على اختلاف مراحله؛ «التاريخ العباسي»، و«فلسطين في العصرين الأيوبي والفاطمي»، و«العالم الحديث»، و«المدن في الإسلام»، و«مختصر التاريخ» و«حضارة الطين»، و«دليل التاريخ والمؤرخين»، و«موسوعة العالم الإسلامي ورجالها»، و«كتب وأوراق من التاريخ» التي تقع في أكثر من ثلاثين كتابًا، كما كتب مئات المقالات والأبحاث للصحف والمجلات المختصة، وبرحيل هذا الإنسان الذي أثبت حضوره منذ الأربعينيات وحقق إنجازات فكرية غنية في إطار الثقافة، تكون سورية قد فقدت أحد أهم أعلامها.

وكانت «الشرق الأوسط» قد أجرت لقاء مطولاً مع الدكتور شاكر مصطفى تحدث فيه عن التراث والثقافة العربية المعاصرة والتأثيرات الغربية في هذه الثقافة، وقال الفقيد في هذا اللقاء، الذي سينشر قريبًا، إن هناك ثلاثة مقومات تكوينية لهذه الثقافة، متفاعلة في ما بينها ومتداخله التأثير والتأثر والخطوط، وهذه المقومات هي التراث، والوضع الثقافي العام، وهو مجموعة النشاطات الفكرية والفنية والأدبية والاقتصادية، أما المقوم الثالث فهو تيار التفاعل والتأثيرات القادمة إلينا وخاصة من الغرب.

وعبر الدكتور مصطفى عن تفاؤله بمستقبل الثقافة العربية قائلاً: إن هناك ثقافة خاصة بنا ومن إنتاجنا، وهي بنت ذاتيتنا ومواقفنا، ولاحظ أن هناك تكوينًا ثقافيًا جديدًا ومتطورًا، فهناك تقدم في الفن التشكيلي، ونجاح في القصة والرواية.

كما تحدث في هذا اللقاء عن قصور اتحادات الكتّاب الرسمية التي تجتمع وتأتمر بأمر السلطات، وعن مشكلة «المغارات الإقليمية» كما سمّاها، بحجة «الوطنية» تارة، وبحجة الحفاظ على التراث الذاتي مرة أخرى.

وانتقد الدكتور شاكر مصطفى في لقائه هذه الحكومات التي لا تصرف إلا أقل من نصف في المائة من ميزانياتها السنوية على الثقافة، والتي تنظر إلى المثقف باعتباره شخصًا مشبوهًا، يحمل الكلمة كبندقية، ولذلك يرى أن مشكلة الحركة الفكرية هي المشكلة الكبرى للثقافة العربية في السنوات الثلاثين أو الأربعين الأخيرة.

****

فيلم وثائقي وحلقة خاصة عن الدكتور شاكر مصطفى

بثها التلفزيون العربي السوري:

رحالة الأدب والتاريخ

بث التلفزيون العربي السوري إبان رحيل المفكر د. شاكر مصطفى حلقة تلفزيونية وفيلمًا وثائقيًا عن حياة الراحل استضاف فيها عددًا من معاصري الراحل وأبنائه، وفي ما يلي نص الحلقة:

المذيعة:

شاعر كبير في إيهاب مؤرخ قدير، وطنيٌّ صادق، مخلص لوطنه وأمته، رحالة مستكشف يتأمل أبعاد الحقيقة في الزمان والمكان وأعماق ذات الإنسانية في آن معًا، عاشق أنغام، وذواقة كلمات وصور وألوان، وقارئ لماح لما بين السطور في الوجوه والأحداث والمخطوطات والمنمنمات التاريخية، ذلكم هو بعض ما انطوت عليه شخصية الراحل الكبير الدكتور شاكر مصطفى الذي أغنى حياتنا بإنتاجه الأدبي والفكري الزاخر بكل جليل وجميل ومضيء من الكلمات والأفكار. في دمشق ١٩٢١م كانت بداية هذا المشروع الحضاري المتميز حيث ولد الراحل الكبير الدكتور شاكر مصطفى في حي الصالحية لأب يعمل بقالاً وأسرة دون المتوسطة، فحمل مؤثراته الشعبية المحببة على مدى حياته، وتأسست فيه معالم شخصيته العصامية التي لا تعترف بالعوائق والعقبات.

فظل ذلك الإنسان الدمشقي في مولده وهواه، العربي الصميم في انتمائه ورؤاه، وأشواقه الحميمة إلى استعادة أمجاد أمته في التاريخ.

● د. شاكر الفحام (رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق):

– الأستاذ شاكر كما نعلم متنوع الاختصاصات، متنوع الأسلوب يحسن عرض أموره، ويحسن عرض التاريخ، وأنا أعتقد أن اهتمامه بالتاريخ وفهمه له يتصل بنشأته التي كانت هي نشأة الجيل الذي عشنا فيه، فنحن هذا الجيل نشأنا في أحضان الثورة السورية وتشربنا مبادئها في الكفاح من أجل حرية الوطن، وهذا جعلنا جميعًا نتعلق بالمثل العليا من جهة ونتعلق من جهة أخرى بفهم تراثنا وحضارتنا وتاريخنا فهمًا جديدًا نجعله حافزًا لنا في النضال والعمل، ولذلك فإن الأستاذ شاكر حين يعرض للتاريخ لايعرضه سردًا ولا يعرضه كما جاء في الكتب بل يفهمه من وجهة نظر قومية عربية مرتبطة بتاريخ هذه الأمة ويحاول أن يبعد عنه كل ما لصق به من تزييف، ومن هنا، فإنه استطاع أن يقدم كتبًا جميلة جديدة رائعة.

يتميز الدكتور مصطفى إلى جانب جمال أسلوبه أنه كثير النتاج لا يتوقف، أسلوبه يسيل بسهولة ولذلك فإنه ترك مؤلفات كثيرة في التاريخ وفي أشياء أخرى سواها، هو لم يقصر عمله على التاريخ ولكنه ألّف كثيرًا في التاريخ، مثلاً كتابه (التاريخ العربي والمؤرخون)، كتابه مثلاً لو فرضنا في الدولة العباسية، له كتب كثيرة ولكن مهارته الأساسية في هذه الكتب أن شخصيته تظهر ظهورًا واضحًا، عندما ألّف كتابًا عن الأندلس في ذكرى هذا الفردوس المفقود، فإنك تجد هذا الكتاب على صغره، فيه آراء كثيرة دقيقة وجميلة وتعبر عن هذا الارتباط القوي بين الأستاذ شاكر وبين فهم التاريخ وبين التعرف إلى العلل الحقيقية وبين إبعاد كل ما هو ثانوي وبسيط وضعيف وقد يكون غير صحيح.

● د. نور الدين حاطوم (أستاذ التاريخ في جامعة دمشق سابقًا):

– في الحقيقة الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى مهما أقول فيه، لايمكن أن أوفيه حقه، إن كان ذلك من جانب الصداقة أو في عالم التأليف والثقافة اللتين قضى عمره فيهما وضحى بكل شيء في سبيل نشر الثقافة، وجمع بين خصلتين طيبتين، الأولى: كونه مؤرخًا وقد ألّف في التاريخ الإسلامي، سواء كان ذلك في تاريخ الدول الإسلامية

كبني العباس، أو في المؤرخين الذين خدموا التاريخ الإسلامي أيضًا؛ المؤرخين القدامى والمؤرخين المحدثين، مؤلفاته كثيرة، أكثر من خمسين كتابًا، وإذا تكلمت عن المقالات فهذه المقالات لا تعد ولا تحصى، وإذا تكلمت عن المحاضرات فهذه المحاضرات لاتعد ولا تحصى أيضًا، جمع بين الأدب وجمال الأدب وجمع أيضًا بين التاريخ والتحقيق التاريخي، فإذا قرأته سررت بما كتبه في الأدب وسررت بما كتبه في التاريخ وأفدت من علمه ومن ثقافته.

المذيعة:

وككل مشروع حضاري كبير، لابد له من نقطة بداية يتلمسها الوعي بالرجوع إلى الانطباعات الأولى عن البيئة والناس والظروف المحيطة بالنبتة الإنسانية المتطلعة إلى الحياة، يحدثنا الدكتور شاكر مصطفى عن خطواته الأولى على مدارج الوعي والنبوغ فيقول: «كان الحدث الأهم في حياتي يوم نلت الشهادة الابتدائية، لقد وضعت الصحيفة التي نشرت اسمي في إطار من الورق وعلقتها على الحائط، فرحتي بها لم يعدلها نوالي لأي شهادة بعدها، ثم لا أدري كيف عشقت القراءة والفنون والأدب في المدرسة الثانوية، فأقمت مكتبة لي من ثلاثة كتب تراثية في صندوق خشبي، فأنا على الطرب للشعر تارة، وعلى محاولات الرسم تارة، وعلى الإنصات لراديو وإسطوانات الجيران تارة ثالثة، كان ذلك في عقد الثلاثينيات، وكان أبي شديد القسوة يعاقبني إذا رآني أقرأ لاهياً عن الدكان ولكنني ظللت أقرأ في السرّ كل ما يقع تحت يدي سواء أكان مجلة أم جريدة أم كتاباً في نهم الميت من الجوع».

● **أ. أديب اللجمي (معاون وزير الثقافة سابقًا):**

– شاكر المفكر، المثقف، المفكر، وأقولها للحق؛ منذ شبابه الأول كان نسيجه نسيجًا ثقافيّاً مائة بالمائة، كان يحب الثقافة، يعشقها يلتهمها يقرأ كثيرًا، وكنا نتحدث – ليل نهار عندما نلتقي – عن كتاب ومفكرين وموضوعات، وفي الأربعينيات كانت هناك أفكار مطروحة معروفة، أفكار عربية وعالمية كانت تستهوينا في ذلك الحين، فكان شاكر رمزًا لعاشق الثقافة الذي كان في الوقت ذاته يُعنى عناية خاصة بالفكر الاجتماعي بما يعني الإنسان بمشكلة الإنسان كإنسان، الإنسان الذي كان عبر التاريخ يكافح من أجل

التحرر، يكافح من أجل الخلاص من الاسترقاق، من الدونية، الذي كان يكافح من أجل حريته، من أجل تفتحه، من أجل إبداعه، فكانت هذه الموضوعات في الواقع تستهويه استهواءً لاحدود له، واستمرت تستهويه حتى ساعته الأخيرة، حياة شاكر كانت فعلاً نوعًا من ما أُسميه كفاحًا، أُسميه كفاحًا، لكنه كفاح هادئ، كفاح بنَّاء، كفاح يرمي إلى إقامة كيان إنساني، سواء في إطاره العربي أو إطاره الإنساني، يضمن للإنسان كرامته، ويضمن له حقه في أن يفكر وفي أن يعبِّر.

المذيعة:

وتمضي بالراحل الكبير الدكتور شاكر مصطفى سلسلة أقداره كما يدعوها، لتتكامل أبعاد شخصيته العلمية والعملية ووعيه الوطني الذي تنامى في مرحلة مقاومة الاستعمار الفرنسي مع الحركة الشعبية المطالبة بالاستقلال، فينال الشهادة الثانوية من (مكتب عنبر)، ويتم دراسته الجامعية في مصر دارسًا للتاريخ وذلك في في عام ١٩٤٥م، ويعود إلى بلده سوريا ليعمل أستاذًا في ثانويات درعا ودمشق، فمديرًا لدار المعلمين الابتدائية، فأمينًا عامًا للجامعة السورية، ثم مستشارًا ثقافيًا لسفارة سوريا في مصر، فقائمًا بأعمال سوريا في السودان ومستشارًا في سفارة الجمهورية العربية المتحدة في كولومبيا، وقنصلاً عامًا في البرازيل ، فمديرًا عامًا للسياسة الخارجية في وزارة الخارجية، فوزيرًا للإعلام.

ومع تعدد المهام التي أوكلت إليه وتنوع خصائصها وأمكنتها، فإنه لا يتوقف عند النظر إليها بعين النقد إلا عند فائدة كبرى جناها بدأبه وعمق تأمله ودراسته في البشر والتواريخ والأمكنة، يقول: «العمل الوحيد الذي أفادني هو قراءة لكتاب لا أضخم ولا أغنى ولا أكثر حكمة، وقد أعطاني أسرار البحار السبعة وأبعاد ذاتي في وقت معًا؛ إنه السفر، الإنسان لم أعرفه إلا في الرحلة، لم اكتشفه إلا في فجاج الأرض وأجنحة الطائرات، فوق الغمام، إنه شوقي وشيطاني اللذان اختزنتهما في ذاتي».

في العام ١٩٦٦ يدعى إلى الكويت للمشاركة في تأسيس جامعتها، حيث بقي يدرِّس التاريخ العربي الإسلامي فيها خمسًا وعشرين سنة، ويشارك في الحياة الثقافية

بمؤلفاته المهمة وبرامجه الإذاعية، وعضوًا في هيئات ومؤسسات علمية متعددة، وكان هذا هو قدره الأخير الذي حقق له أمنيته في التفرغ للعلم والبحث، وأحاطه بحب طلابه وتقديرهم، وثقة المثقفين ورجال العلم بجهوده ومؤلفاته التي تجمع بين الروح الأدبية والدقة العلمية في تآخٍ وتكامل بديعين.

بعد رحلة طويلة في عالم التأليف والإبداع التي تجسدت في أكثر من خمسين كتاباً تشكل ثروة بالغة الأهمية في المكتبة العربية، وقف الدكتور شاكر مصطفى قبيل رحيله وقفة تأمل في جوانب هذه الرحلة العامرة بالإبداع والخصوبة قائلاً بالتواضع الصادق الذي عُرف عنه: «إنني أشعر على الدوام بضآلة ما أعلم، فإذا أنا جوع كلي إلى كل معرفة، وإنني أدرك اليوم – وأنا أستعرض حياتي كلها – وأنظر إلى مكتبتي التي تصل إلى خمسة عشر ألف مجلد، مدى جهلي ومعنى الحكمة البالغة في قوله تعالى «وفوق كل ذي علم عليم»، وإني لأؤمن كما قال بيكون وهو يفارق الوجود «بأنني كنت مجرد طفل يغرف من ماء المحيط بصدفة».

ويتابع الراحل الكبير تأمله في حصيلة حياته التي أمضاها بين الناس والأقلام والكتب فيقول: «على أنني لا أنسى أنني كسبت في مشوار حياتي كنزين أعتز بهما، ولعلهما سبب سعادتي في هذه الدنيا؛ مودة أحبابي وأصدقائي وتقديرهم النبيل الذي يلقونني به حيث كنت، وما أرجو أن يكون لتراثي العلمي والفكري على ضآلته من نفع لمن يأتون بعدي.

من رسالة نزار قباني إلى الدكتور شاكر مصطفى:

«لا قيمة لكتاب يصدر عني ولا يحمل توقيع شاكر مصطفى، فأنت معلمي وصديقي وإشبيني وعرّابي ولا أحد يعرف شعري أكثر مما تعرفه أنت، اكتب عني يا شاكر لأنني أريد أن أولد على يديك مرة ثانية».

• الحكم شاكر مصطفى (نجل الفقيد):

– كان رجلاً حنونًا محبّاً راعيًا لي ولإخوتي جميعًا، علّمنا الحرية، علّمنا حب الاختيار، علمنا أن نخوض تجربتنا بأنفسنا، فلم يتدخل يومًا في اختيارنا أيّا كان .. في دراستنا، في حياتنا الاجتماعية، بتجاربنا، بل كان العين الساهرة دائمًا الذي ينظر إلينا من بعيد، ويوجه وينبه ولكن دون التدخل أو دون التعنت أو دون الإجبار، كان قلقًا دائمًا على كلمة الحق، وكان دائمًا قلقًا على الحرية فحمل مسؤولية الحق والحرية، والبحث عن الحقيقة دائمًا.

لقد أحب الصالحية ودمشق والشام والغوطة، وأحب جميع زهور دمشق، فكانت دائمًا في أحاسيسه وفي ترحاله، فقد جال الدنيا من شرقها إلى غربها؛ من اليابان إلى أمريكا اللاتينية، ومن أفريقيا إلى أوروبا، ولكن كانت دائمًا دمشق وزهورها وأهلها وحيَّه دائمًا كانت ترافقه، فكان يحلم أن يرى العالم كله مجتمعًا في دمشق، لا أستطيع أن أتكلم أكثر من أني أقول أنه كان رجلاً يحب التاريخ كحب أبنائه، فهو كما قال كان الخبزَ له، ولكن الأدب كان في عروقه وشرايينه، وكان هذا الحب وهذا الإخلاص وهذه الصفات التي كان يحملها تجسدت أيضًا في حياته اليومية، فكان دائمًا كريمًا، هادئًا، صبورًا، مجاملاً، ومحبّاً للآخرين، فلا أذكر أنّ أحدًا من أصدقائه أو أقربائه أو المقربين إليه أو حتى أبناء حارته لم يذكره إلا بالخير، أو بالإحسان ويترحم عليه، رحمه الله.

• د. كندة شاكر مصطفى (ابنة الفقيد):

– لا أتذكر أنه أغضب يومًا واحدًا منّا، أو قصَّر أو بخل مع أحدنا، كان دائمًا كريمًا معنا، كان حبّه لنا محور حياته، لم يفرق بين أي منّا، صبيانًا وبناتًا، الآخرون فقدوا المفكر والأديب والصديق، لكننا نحن فقدنا فوق هذا كله الأب الحبيب، إنه يحبني كثيرًا، طلابه الكثيرون يحبونه ويذكرونه دائمًا، أتذكر واحدة من المرضى من طلابه الذين عالجتهم حيث قالت لي ذات مرة: كنت أدخل الفصل بعده وأشرح الدرس دون أن أمسح السبورة لشدة تعلق الطلاب به، وبعد أكثر من ثلاثين سنة فإن طلبته مازالوا متعلقين به.

● **أ. أديب اللجمي:**

- أخي وصديقي شاكر مصطفى بالنسبة لي هو إنسان مثقف، مفكر، وكاتب.

الإنسان شاكر مصطفى كان نموذجًا فعلاً، وأقولها بموضوعية كاملة، كان نموذجًا للدماثة والوداعة واحترام الآخرين، لم أشهد لمرة واحدة نوعًا من التصرف المتهيج أو من التصرف الكثير الارتجال المنفعل إن صح التعبير تجاه الآخرين، كان يواجه الناس صغارًا وكبارًا بنوع من الدماثة والوداعة تنمُّ في أعماقه عن احترام عميق للإنسان كإنسان؛ طفلاً كان أم كبيرًا.

لهذا، كان أنجحنا عندما كنا طلابًا في دار المعلمين، أو كان من أنجحنا لأنه كان يعامل الأطفال، أطفال المدارس الابتدائية، كان يعاملهم بنوع من الدماثة والوداعة التي تكاد تشعرنا أنه أب حقيقي لهؤلاء الطلاب، لم يكن أبدًا ينفعل منهم، من تشويشهم أو من صخبهم، بينما كنا نحن ننفعل وأحيانًا نحتج، استمر هذا الإنسان على ذلك طوال حياته، وكان شاكر وهو يغالب الموت منذ أكثر من عشر سنين، يغالبه بهذه الوداعة الكبيرة، وفي الوقت ذاته، وربما أهم من ذلك، كان يغالبه بفكره، شاكر صديقي الحبيب، رحمه الله.

ظهر خلال عرض الشريط ما يلي:

- **صور لمكتبه الخاص.**
- **صور لمكتبته التي تضم ١٥ ألف كتاب.**
- **صور له مع زملائه.**
- **صور له مع عائلته.**
- **صور لمنزله الذي ولد فيه.**
- **صور له في جامعة الكويت + مؤتمرات.**
- **صور لشهادات التقدير والدروع وميداليات حصل عليها.**

- عرضت أسماء بعض الكتب الخاصة به تباعًا:

١ - **المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، إحصاء المدن الإسلامية ودراسة اجتماعية اقتصادية لها.**

٢ – أوراق من التاريخ (اليتامى في التاريخ).

٣ – (١٠٠) من معارك الجهاد في الإسلام.

٤ – سلسلة أوراق من التاريخ (العرب في التاريخ).

٥ – رجال وشياطين.

٦ – المصادفة في التاريخ.

٧ – قضايا من التاريخ.

٨ – صور أندلسية من التاريخ.

٩ – تاريخنا وبقايا صور.

١٠ – بيني وبينك.

١١ – ماريانا.

١٢ – موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها.

١٣ – التاريخ العربي والمؤرخون دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام.

١٤ – دولة بني العباس (١٣٢ – ٢٤٧هـ/ ٧٥٠ – ٨٦١م).

١٥ – حضارة الطين.

١٦ – بهجة المعرفة.

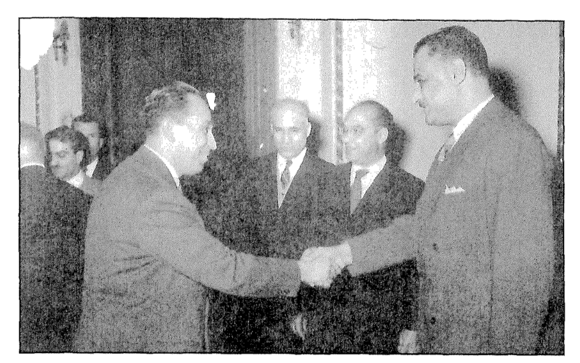
١٧ – المظلومون في التاريخ.

****

صور في حياة الراحل



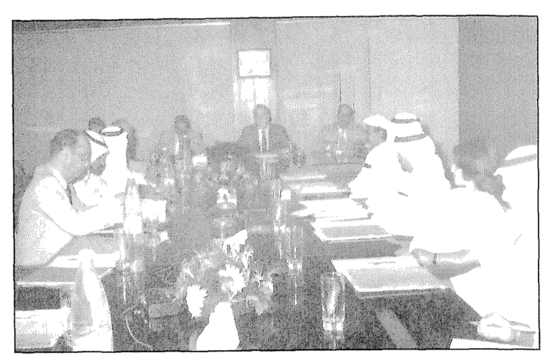
الدكتور شاكر مصطفى



مع الرئيس الراحل جمال عبدالناصر



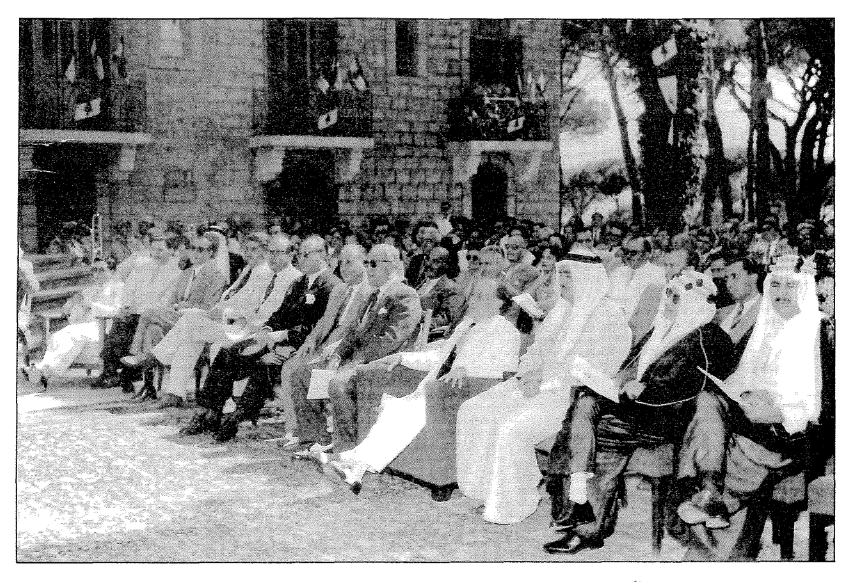
مع رئيس مجلس الأمة الأسبق خالد صالح الغنيم في مؤتمر برلماني دولي عقد في الهند عام ١٩٦٩
وكان حينها مستشارًا في مجلس الأمة الكويتي



صورة تضم د.خالد الوسمي عضو مجلس الأمة الكويتي السابق ود.محمد الرميحي ود.أحمد كمال أبوالمجد (وزير مصري سابق) ود. محمد عابد الجابري عام ١٩٨٢.



من حفل افتتاح جامعة الكويت عام ١٩٦٦



يجلس في الصف الثاني (الأول من اليمين) في مؤتمر القمة العربي الذي عقد في لبنان عام ١٩٥٢ ويظهر في الصورة عدد من الزعماء العرب



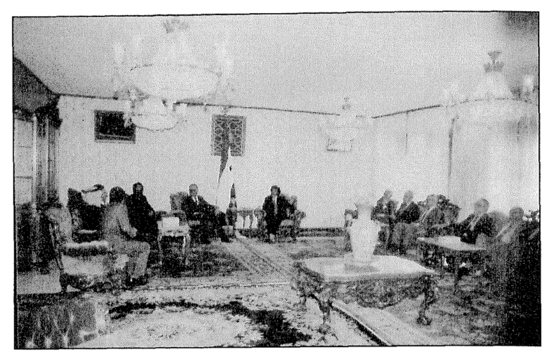
يلقي محاضرة في جامعة الكويت عام ١٩٧٢م



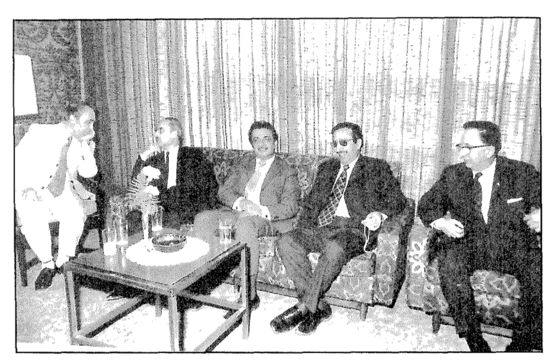
مع الوفد البرلماني الكويتي في باريس عام ١٩٧١



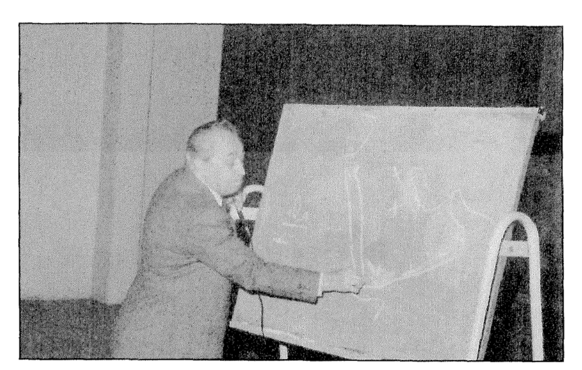
في الكويت خلال الثمانينيات مع وزير الدولة آنذاك عبدالعزيز حسين وهو يستقبل وفد المؤسسة العالمية لمساعدة الطلبة العرب



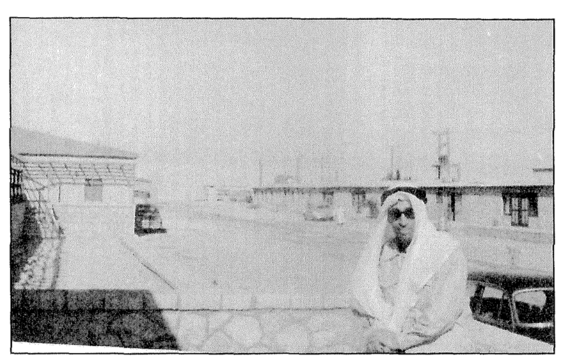
مع الرئيس اليمني علي عبدالله صالح ووزير الدولة ووزير الدولة الكويتي عبدالعزيز حسين وشخصيات سياسية وأدبية عام ١٩٨٣م



في منزل السفير السوري بالكويت عام ١٩٧٢



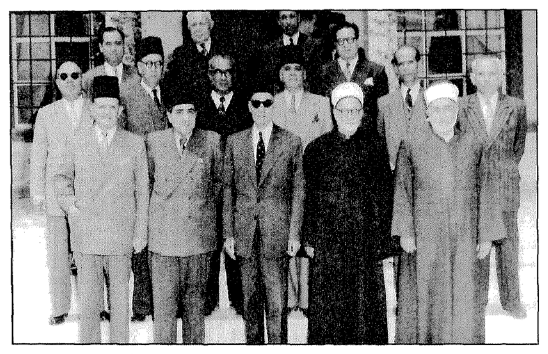
يشرح درسًا في التاريخ - جامعة الكويت



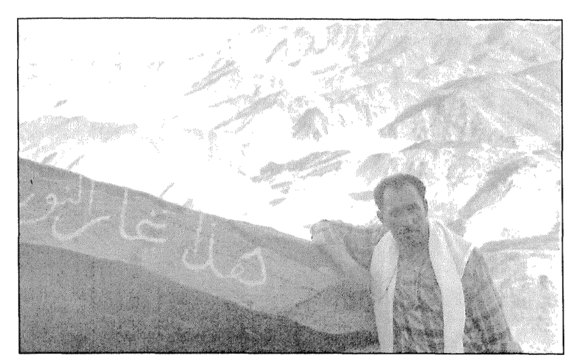
يرتدي الزي الخليجي - في زيارة رسمية إلى السعودية



في الجمعية السورية للفنون عام ١٩٥٢م



أمام مجلس الشعب السوري في الخمسينيات (الثاني في الصف الأخير)



في رحلة عمرة أمام غار النور



في ثياب الإحرام مع أصدقائه



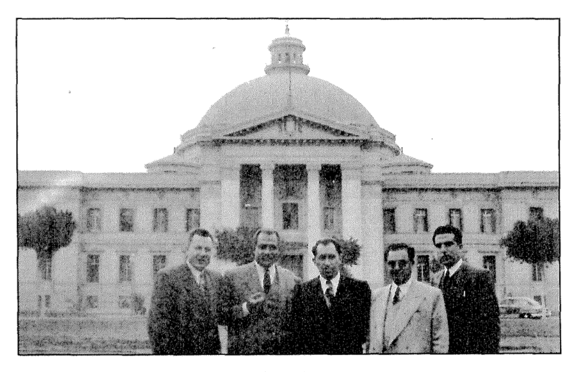
مع المحامي والكاتب الراحل نجاة قصاب حسن وعدد من الطلاب في الخمسينيات



يوم عقد قرانه (الخامس من اليمين جالسًا) مع أقربائه عام ١٩٥٥م



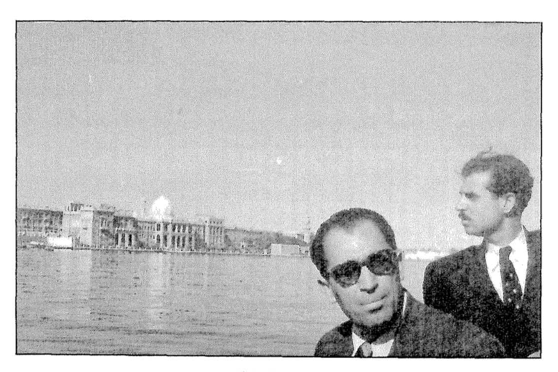
في ألمانيا عام ١٩٥٣م



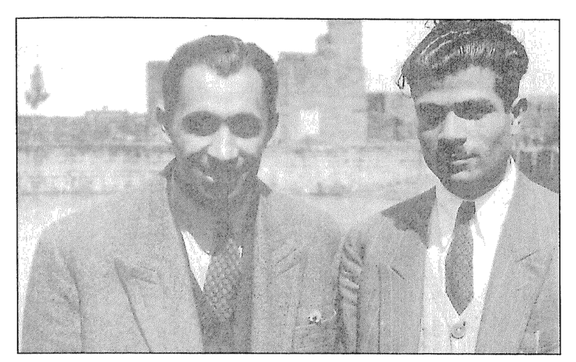
في جامعة القاهرة



في فينيسيا عام ١٩٥٣م



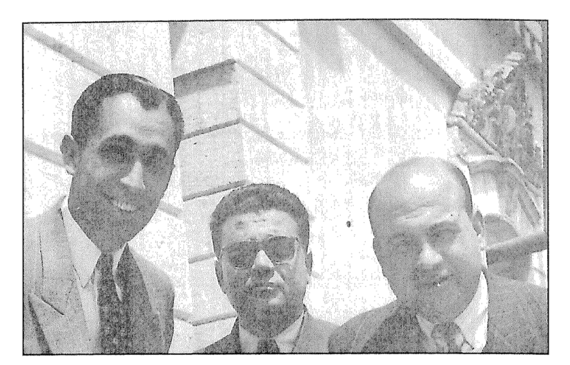
البندقية عام ١٩٥٣م



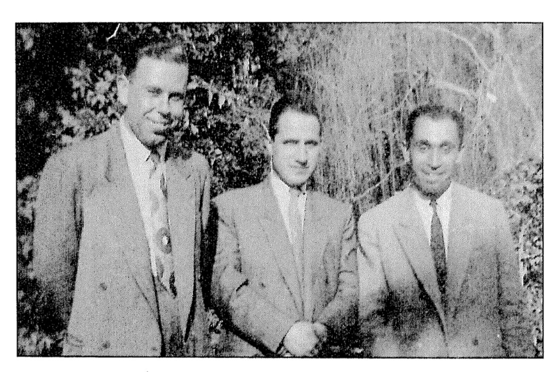
عام ١٩٤٨ في بصرى



في لبنان خلال فترة الخمسينيات



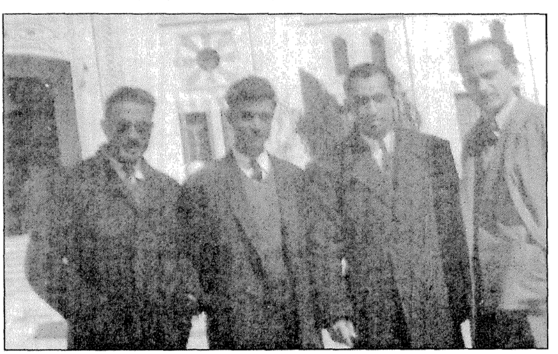
في دمشق عام ١٩٤٨م



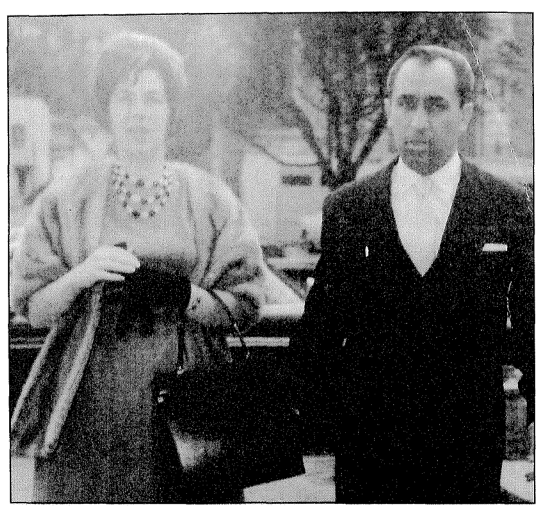
في القناطر الخيرية بمصر خلال رحلة أطلقوا عليها اسم «رحلة دوحة الأدب» عام ١٩٤٧م



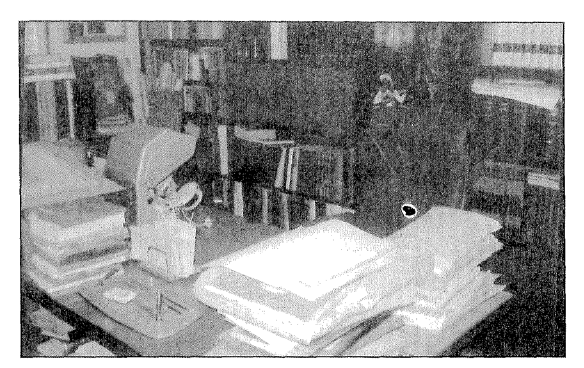
أمام برج بيزا بإيطاليا



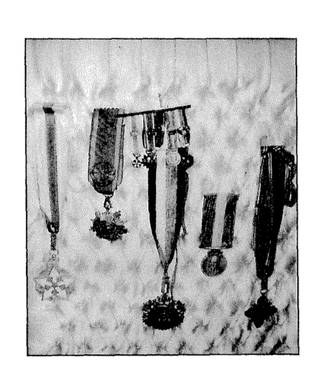
صورة التقطت عام ١٩٤٦



قنصل عام لسورية في البرازيل مع عقيلته

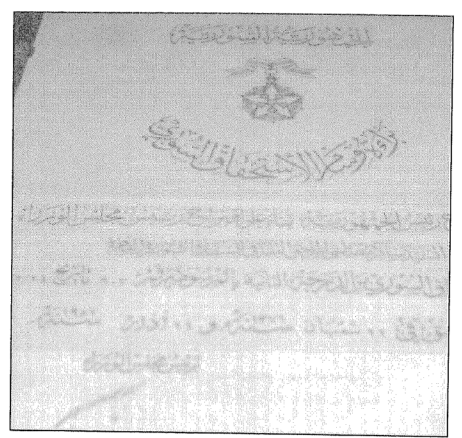


مكتب الراحل د. شاكر مصطفى كما تركه آخر مرة في بيته بدمشق

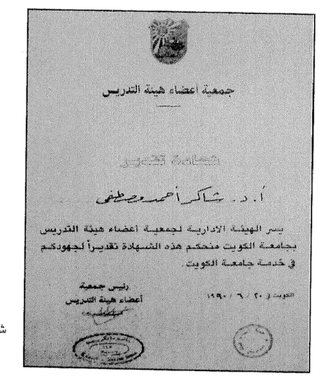


أوسمة حصل عليها خلال رحلة مديدة من العطاء

وشاح احتفالية ٣٠ عامًا على إنشاء كلية الآداب
في جامعة الكويت



براءة وسام الاستحقاق السوري عام ١٩٥٧م



جمعية أعضاء هيئة التدريس

شهادة تقدير

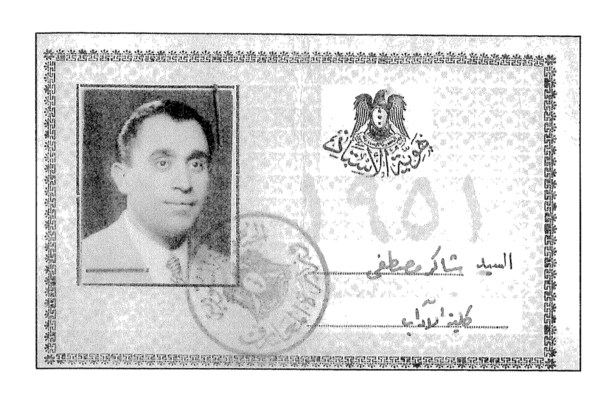
أ. د. شاكر أحمد مصطفى

يسر الهيئة الادارية لجمعية أعضاء هيئة التدريس بجامعة الكويت منحكم هذه الشهادة تقديراً لجهودكم في خدمة جامعة الكويت.

الكويت في ٢٠ / ٦ / ١٩٩٠

رئيس جمعية
أعضاء هيئة التدريس

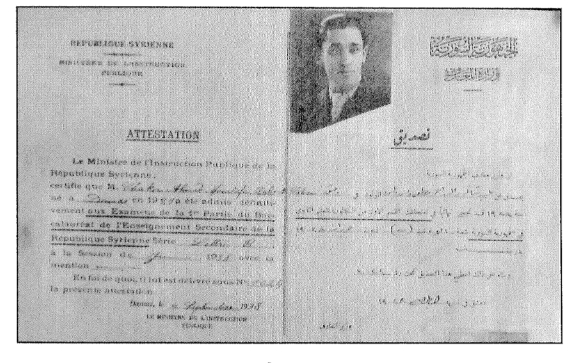
شهادة تقدير من جمعية أعضاء هيئة التدريس في جامعة الكويت



١٩٥١

السيد شاكر مصطفى

كلية الآداب



RÉPUBLIQUE SYRIENNE

MINISTÈRE DE L'INSTRUCTION PUBLIQUE

ATTESTATION

Le Ministre de l'Instruction Publique de la République Syrienne :

certifie que M. [illegible]

né à [illegible] en 19[illegible] a été admis définitivement aux Examens de la 1re Partie du Baccalauréat de l'Enseignement Secondaire de la République Syrienne Série [illegible]

à la Session de [illegible] 19[illegible] avec la mention [illegible]

En foi de quoi, il lui est délivré sous No [illegible] la présente attestation.

Damas, le [illegible]

LE MINISTRE DE L'INSTRUCTION PUBLIQUE

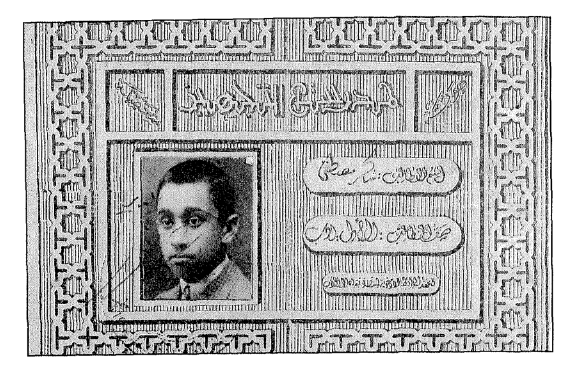
الجمهورية السورية

وزارة المعارف

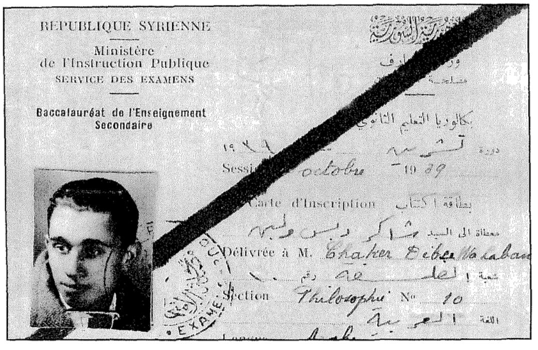
تصديق

[illegible]

بطاقة كلية الآداب



في مدرسة تجهيز المعلمين الصف الأول



REPUBLIQUE SYRIENNE

Ministère
de l'Instruction Publique
SERVICE DES EXAMENS

Baccalauréat de l'Enseignement Secondaire

بكالوريا التعليم الثانوي

Session octobre 1939

Carte d'Inscription — بطاقة اكتتاب

Délivrée à M.

Section Philosophie No 10

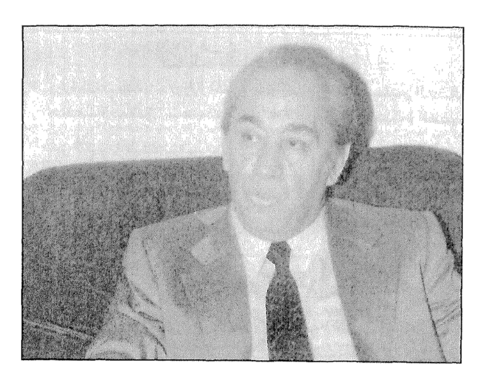
في التعليم الثانوي عام ١٩٣٩



في التجهيز الثانوي



بطاقة دار المعلمين



صورة الغلاف لمجلة «المسلمون» الصادرة في لندن عام ١٩٨٢.



في المرحلة الابتدائية عام ١٩٣١م

إنا لله وإنا إليه راجعون

وزارة الثقافة ـ وزارة الخارجية ـ وزارة التعليم العالي
جامعة دمشق ـ مجمع اللغة العربية ـ أصدقاء الفقيد

شقيق الفقيد : الاستاذ توفيق مصطفى
أبناء الفقيد : أحمد الحكم ومحمد مبين مصطفى
خال الفقيد : عبد الوهاب المارديني
أحفاد الفقيد : شاكر وبدر مصطفى وعمر ومصطفى ويوسف عواد وعبد العزيز عوض ومناف الهنيدي
أبناء شقيقه : أحمد وخالد مصطفى
أبناء شقيقاته : الدكتور ملهم والمهندس محمد شفيق مراد وبسام وغسان ومصطفى وجمال القاسم
أبناء عمه : مصطفى وسعيد وعزت ومحمد علي وعبد الحميد وعبد الهادي دبس ولبن
أخوال زوجته : الدكتور عبد الله عبد الدايم والمحامي محمد عبد الدايم
أبناء خاله : محمد صبحي ومحمد خليل ماورديني
أنسباء الفقيد : المهندس أحمد عواد والمهندس رائد عوض وماهر الهندي ومثقال القاسم
أشقاء زوجته : الدكتور نزار وفيصل عباره
عدلاء الفقيد : المحامي محمد خير السراج ووليد اللبابيدي وسمير القباني ومحمود الجحجاح والدكتور زيد البيطار وغسان ترمانيني

وعموم آل المصطفى وعباره ودبس ولبن وماورديني ومراد والقاسم والحموي والسراج واللبابيدي والقباني والجحجاح والبيطار وترمانيني وطنطش وعواد وعوض والهنيدي

ينعون إليكم بمزيد من الرضا والتسليم وفاة فقيدهم الغالي

المؤرخ العربي الكبير ومربي الأجيال

الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى

الذي وافاه الاجل المحتوم مساء يوم الخميس الواقع في ٢٦ ربيع الأول ١٤١٨ الموافق ٣١ تموز ١٩٩٧ وسيشيع جثمانه الطاهر من داره الكائنة في **المالكي شارع خليل مردم ـ بناء بدر**
حيث يصلى عليه عقب صلاة عصر يوم السبت الموافق ٢ آب ١٩٩٧ في جامع بدر ثم يوارى مثواه الاخير في مقبرة ذ و الكفل

للفقيد الرحمة ولكم الأجر والثواب

التشييع بالسيارات **تقبل التعازي بدار الفقيد**

الإيديولوجية الصليبية = نظرة جديدة

قبل ألف سنة وبالضبط سنة ٩٩٩ للميلاد كانت الحالة في أزقة أوروبا وقراها
المعتمة المرحلة ونهاياتها التي لا تشبهها تشهدها الحالة غير العادي فيها. فأما السماء فقد
حالوا تؤماً من الملائكة. فالكنائس تقرع الأجراس، وأبهاؤها تعج بالمصلين الراكعين والتائبين
معلول إلى الأديرة. وسوح الأزمنة السوداء تطوف كالأشباح من بيت إلى بيت. إنهم من هنا أنه
الاعتقاد كانت في الناس فاز عماء في عقائده. والخصوم يركض بعضهم إلى بعض يرجونه السماح
والفقير والدائنون يغضون الطرف عن المدينين .... حتى المجرمون اختفوا في السوح. موجة من الرعب
والخشوع كانت تشل الجموع ... ما الحكاية؟
راج في الناس ودبر البرج في كل الأزقة والدروب حتى القرى النائية أن القيامة ستقوم
سنة ألف! وما أدراك ما الناس أمام يوم القيامة؟ حدث الإجماع وتصاعد النشيج والبكاء
وربط بعضهم نفسه بالسلاسل إلى جدران الكنائس. وتنازل الكثيرون الأوطان عن أشيائهم
ليشاركوا الشعب في الفقر والتخلي عن الدنيا وليعيدوا إلى الجنة. ... موجة التطهير الجدران
وما وراء الجدران. أوروبا كلها أصبحت كنيسة راكعة للسماء. حمى التقى أخذت الجموع في السيول
الآتية وتدحرج الرعب في الدروب....
ومرت الأيام بطيئة بائسة وانقضت سنة ألف وجاوزتها ولم تقم القيامة. ولكن الناس
ظلوا على السنين، ينتظرونها. فلعلهم غلطوا في الحساب! تهاوى الرعب ما فادت بيتاً ولا كوخاً
ولا قلعة إقطاعية.. انقلاب كالزلزلة المدمرة هدم اطمئنان الناس وأمنهم الروحي....
يخيل إلي أننا هنا يجب أن نفتش عن الحجر الأول أو الفكرة - النواة في تكوين أيديولوجية
الهجوم الأوروبي على العالم الإسلامي وبخاصة في المشرق وفيما يسمى بالحروب الصليبية.
الايديولوجيات لا ينبتها بالطبع شعار واحد لطلوع، ولا يجردا أحد منها طفقة قوية. الايديولوجيات
المكتسبة كتبت والتي أثارت الحروب عدة قرون بين أوروبا والإسلام هي نتيجة تجمع وتفاعل عدد
من الأفكار — القوي بعضها مع بعض. وقد تكون هذه الأفكار متناقضة وغير منطقية بالنسبة
لنا أبداً، ولكنها تتجمع، وفي مجموعها، أرأيت الحجر الذي ترميه بكتلة ثلج صغيرة أنه يتدحرج لتصبح
كرة ثلجية خطرة؟ فكيف تكونت إذن تلك الايديولوجية؟
حتى البدء؟ أرجو أن تكونوا معي بخاصة في خمسة أمور:
الأول: أننا نتكلم عن عصر للدين فيه الكلمة العليا. والصليبيات هي بنت معركة الدين. لو تقدمت
ايديولوجيتها عن العصر أو تأخرت عنه لتغير التاريخ
هذا أن التاريخ يتغير باستمرار مع تطور الزمن، لا شيء فيه ثابت أبداً ومن الصليبيات
الثاني: التناقضات والتغيرات في عديدة [illegible]
عصر انقلابي بامتياز. التناقضات الصليبية والصهيونية في كثير من الجوانب.
الثالث: التوازن الذي تحفظه الايديولوجيتين [illegible] في الأذهان ولم أشر
إليه ولكن أرجو أنه يبقى في الأذهان
حاش من [illegible] الحرب الصليبية الحقيقية ومنها نتكلم دما نحوها من الحروب
الرابع: أن الصليبية الأولى هي وحدها الحرب التي يجمع عنها أو انقضت إليها
تدعى بهذا الاسم في حروب أخرى لها دوافع مختلفة
وأخيراً: فمن البديهي أن موجة التقى الكلاسيكية لم تختف ولا هي ولا نتائجها في تلك السنة
تحديداً، كما لم تكن الايديولوجية الصليبية فيما بعد موجوداً من قبل ولكن سنة ألف كانت
السنة الانقلابية التي قفزت بعدد من العناصر إلى المقدمة ورسمت الخط المستقيم
لها عبر الأوروبية الجاهلة. كان القرن الحادي عشر الذي تلا تلك السنة هو قرن تكوينها
هذه الايديولوجية بتطاها وجذورها، في وحشيتها وتناقضات مبادئها، وفي قلب النفسية
الدينية كما في استغلال الأساطير والغيبيات فيها.

كتابات بخط يد الراحل شاهدة على دأبه في الإبداع

الجريدة الرسمية للجمهورية العربية السورية

العدد رقم (١) لعام ١٩٦٦

مرسوم رقم ٢

رئيس مجلس الرئاسة

بعد الاطلاع على أحكام الدستور المؤقت

وعلى المرسوم رقم ١ تاريخ ١ / ١ / ١٩٦٦ المتضمن تسمية السيد صلاح الدين البيطار رئيساً لمجلس الوزراء

وعلى قرار مجلس الرئاسة رقم ٢ تاريخ ١ / ١ / ١٩٦٦

يرسم ما يلي :

مادة ١ تؤلف الوزارة في الجمهورية العربية السورية كما يلي :

السيد صلاح الدين البيطار رئيساً لمجلس الوزراء ووزيراً للخارجية
السيد اللواء محمد عمران وزيراً للدفاع
السيد الدكتور عبد الله عبد الدائم وزيراً للتربية
السيد فهمي العاشوري وزيراً للداخلية
السيد الدكتور كمال حصني وزيراً للاقتصاد
السيد الدكتور صلاح وزان وزيراً للزراعة
السيد اللواء ممدوح جابر وزيراً لشؤون الرئاسة
السيد الدكتور هشام العاص وزيراً للصناعة
السيد المهندس سميح فاخوري وزيراً للأشغال العامة
السيد المهندس محمود تجار وزيراً للشؤون البلدية والقروية
السيد موفق الشربجي وزيراً للمالية
السيد يوسف خباز وزير دولة لشؤون الحكم والسياحة
السيد الدكتور حنين سياج وزيراً للصحة والأسعاف العام
السيد شاكر مصطفى وزيراً للإعلام
السيد الدكتور محمد الفاضل وزيراً للعدل
السيد الدكتور أحمد بدر الدين وزيراً للمواصلات
السيد جميل ثابت وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل
السيد جميل حداد وزيراً للاصلاح الزراعي
السيد الدكتور عبد الوهاب خياطة وزيراً للتخطيط
السيد بشير القطب وزير دولة للشؤون الخارجية
السيد كمال شحادة وزيراً للتموين
السيد المهندس نزال ديري وزير دولة لشؤون الجزيرة والفرات
السيد الدكتور أسعد درقاوي وزيراً للثقافة والارشاد القومي
السيد محمود عرب سعيد وزير دولة ووزيراً للأوقاف
السيد الدكتور عدنان شومان نائباً لوزير الشؤون الاجتماعية والعمل
السيد رئيس الفرحان الفياض نائباً لوزير الدولة لشؤون الجزيرة والفرات

مادة ٢ ينشر هذا المرسوم ويبلغ من يلزم لتنفيذه .

دمشق في ١٠ / ٩ / ١٣٨٥ و ١ / ١ / ١٩٦٦

أمين الحافظ
صدر عن رئيس مجلس الرئاسة
رئيس مجلس الوزراء
صلاح الدين البيطار

صورة عن مرسوم تعيينه وزيرًا للإعلام في سوريا عام ١٩٦٦م

المحتوى

شهادات بحق الراحل د. شاكر مصطفى

من محاضرات وكلمات د. شاكر مصطفى

بين شاكر ورفاقه/ رسائل متبادلة

د. شاكر مصطفى في وسائل الإعلام

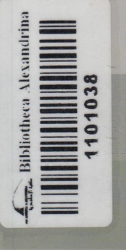
****

شاكر مصطفي - من زاويتي أنا - أول كاهن بشر بنثر فني من طراز لم يعرفه تراب بلادي منذ سنين . فأنا الأدب عندي تعبير غير عادي عن مشاعر عادية فإذا شاركتني هذه النظرة فانك سترى في أدب شاكر طيبا غير عادي .. طيباً غير الذي تشمه في واجهات المكاتب ، وحوانيت الوراقين .

ولقد كنت ولا أزال أعطي هدب عيني لحرف جديد لم يدر ببال أبجدية بعد .... ولم يزحف في جبين إنسان ، حرف يتعذب من أجل وجوده على الورق . فإذا أحببت شاكر مصطفى فلأنه عرف عذاب الحرف .. ورائحة الظنون وهي تحترق ..

أحبه لأنه فاتح درب ... شقها بمحراث منحوت من أضلعه ودوزن كل حصاة .. وكل حشيشة فيها ..

نزار قباني





الكويت
2010